على شفا جسد

رشا فاضل

- أديبة وإعلامية عراقية، مواليد 1975.
- حاصلة على بكلوريوس في اللغة الإنكليزية من جامعة تكريت.
- عملت في الصحافة والإعلام وفي التدريس.
- حاصلة على عدة جوائز عربية في المسرح والرواية والقصة القصيرة، منها:
  - جائزة دبي الثقافية للإبداع في الرواية، عام 2011.
  - المركز الأول في جائزة نازك الملائكة في القصة القصيرة.
  - جائزة وزارة الثقافة العراقية في المسرح عن مسرحية الجلاد.
  - وجوائز اخرى.
- شاركت في العديد من الملتقيات الثقافية منها:
  - الملتقى العربي الثالث للقصة القصيرة في عمان، 2011.
  - المؤتمر التأسيسي لنادي القلم الدولي في دمشق،2007.
  - المؤتمر التأسيسي للمجلس العراقي الأعلى للثقافة، عمّان، 2007.
  - ملتقى القصة القصيرة جداً في حلب، 2005.
- الإصدارات :
  - أحلام كالفراشات، (مجموعة قصصية)، بغداد 2003.
  - مزامير السومري، (قراءات في المنجز الشعري لعبد الرزاق الربيعي)، القاهرة، 2008.
  - على شفا جسد، (رواية)، بيروت، 2012.
  - خراب الوطن، (نصوص نثر)، دمشق، 2007.

رشا فاضل

على شفا جسد

الرواية الحائزة على

جائزة دبي الثقافية للإبداع العربي

2011

الطبعة الأولى، 2012م

ISBN: 978-9953-417-71-4

جميع الحقوق محفوظة للناشر
مؤسسة شرق غرب ـ ديوان المسار للنشر

eastwest@diwanalmasar.com
www.diwanalmasar.com

Headquarters:
Diwan Cultural Center
Haifa Street, House No. 1
Iraq - Baghdad

Berlin Office:
West-östlicher Diwan e.V.,
Giesebrechtsraße 3,
D-10629 Berlin
E-mail: eastwest@diwanal-masar.com
www.diwanalmasar.com

التوزيع: الفرات للنشر والتوزيع
ص.ب.: ٦٤٣٥-١١٣ بيروت، لبنان
هاتف: ٠٠٥٤ ٧٥٠ ١ ٩٦١+
فاكس: ٠٠٥٣ ٧٥٠ ١ ٩٦١+

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت: نيل وفرات.كوم:
www.neelwafurat.com

إن مؤسسة شرق -غرب ديوان المسار غير مسؤولة عن أفكار المؤلف وآرائه في هذا الكتاب.
وتعبر الآراء الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة أن تعبر عن آراء المؤسسة.

حين أضرموا النار

«عندما يموت الحبّ
تحوم الذكريات فوق جثّته»

كانت ينابيع خوفي قد بدأت تجفّ بين صاروخ وآخر.. وكان أملي بالفناء قد بدأ يتضاءل حدّ اعتناق الصلاة والتزام الأدعية، خالتي الطيبة تصوّرت تضرّعي طلباً للنجاة ولم تكن تعرف أنه استجداء آخر للموت.. يا لطيبة الخالات ونقائهن.. يتفانين بالدعاء لأجلنا حتى ولو كنّا في الطريق إلى الجحيم، أوكان الجحيم في طريقه إلينا..

الخوف.. ذلك الكائن السّاحر الذي استدعى جنوننا وتقوانا في آن واحد.. لم يكن قادراً على استدراجي للتديّن الذي انساق إليه الآخرون خوفاً.. لا يقيناً..

جارتنا التي كانت تستقبل الرجال في ليلها الموشّى بالعطر الرخيص ارتدت الحجاب أخيراً... والتصقت بخالتي لتحفظ منها أدعية كانت قد نسيتها منذ انتهاء حربنا الأولى..

وجارنا الآخر الذي كان يستفتح الصباحات بسكرته وشجاراته مع زوجته الغافية، حيث كان يرى فيها صورة البقرة النائمة عوضاً عن الأميرة النائمة وهي تشخر على سريره الذي كان قبل أن يدخل نابضاً بالخطاياً، هو اليوم لا يترك فرضاً في المسجد..

وينتابني الفضول لأعرف إن كان مثلهم قد قرّر ارتداء لباس الدين أخيراً والانصياع لتعاليم قطيع كان يصرّ على ألاّ يكون منه..

مراراً راودني الحلم لرؤية تلك القلعة. ها أنا أدخلها اليوم بخطوات واثقة لا مرتبكة.. حيث لا أحد يمكنه أن يرفع أسئلته وأسلحته في وجهي.. أدور مع السائق في أرجائها.. البيوت المترامية بإهمال على جوانب الشوارع تبدو مهجورة..

لا بدّ أن القصور التي سمعنا عنها طويلاً مختبئة في أماكن

أخرى.. ولا بدّ أن تكون هذه البيوت البسيطة المبنية بطريقة بدائية هي بيوت خدمكم.... يسألني السائق بتردّد:

- هل نستمر في الإيغال؟

أطمئنه:

- نوغل حيثما نشاء... لقد سقطت الأسوار

يصمت مؤيداً وأستمع لخوفه الداخلي باحترام. تستوقفنا سيطرة أمريكية ومعهم مترجم ملثّم:

- إلى أين وجهتكم؟

أرفع أمامه الهوية الخاصّة بالهلال الأحمر فيطمئن قليلاً.

- نريد أن نفتش السيارة

- ولكن لدينا تصريح دولي وحماية دولية لدخول المكان دون تفتيش؟

- يجب أن نفتش السيارة

السائق بخوف:

- دعيهم يفتشوها

وأصمت. يتجاهل الأمريكي حقدي وأتجاهل احتقاره. يصعد إلى السيارة بعد أن ينزل السائق ليفتح له الباب الخلفي، يتلمس إطارها الاحتياطي وحاويات الكاز الاحتياطية. يمرّر جهازه عليها، لا يجد شيئاً. ينزل وقبل أن نمضي يستوقفنا من جديد:

- أريد الحقائب والرسائل

أعطيه الحقيبة السوداء وهي تحمل علامة كبيرة للهلال الأحمر والصليب الأحمر. يفتشها ويخرج مظروف الرسائل الكبير، يقلّبها بتفحّص:

- ما هذه؟

- رسائل المعتقلين

- كم رسالة؟
- يمكنك أن تعدّها

يعيدها إلى المظروف ويطلب منّا هويّات الهلال الأحمر المعلّقة في رقباتنا. ننزعها ويقرّرالاحتفاظ بها لحين عودتنا كما يقول للمترجم الملثم، قبل أن نهمّ بالسير يسألني المترجم:

- هل أنت لبنانية؟

أستغرب سؤاله وأجيبه بالنفي. أطلب من السائق أن نمضي وصوت المترجم الملثّم يتفاقم في أذني.. بينما يردّد قلبي:

(أنا عراقية مثلك.. شربت من مياهك نفسها، ولجلدي رائحة تشبه رائحة جلدك فهي من طينة أرض واحدة أنجبت الصالح والطالح.. مثلك أنا لكنني لا أخفي وجهي عن الشمس والهواء.. فأرضي حرز تحميني من الرصاص الغادر، ولوجهك لثام لن يحميه من عتاب الوطن).

الرسائل بين أصابعي يزعجني ملمسها فقد كانت تحت قبضة الأمريكي قبل قليل.. يسألني السائق:

- لنستعين بأحدهم على العناوين، الرسائل كثيرة ولن يمكننا إيجاد أصحابها بسهولة
- لنسأل الصبي الواقف أمامنا

أمام نظراته المتفحّصة تقف السيارة، يتنبّه إلى علامة الصليب الأحمر فيبتسم.. فهي تعني الأمن والرسائل وأنفاس المعتقلين.. أحدّثه من النافذة:

- لدينا مجموعة رسائل نريد إيصالها إلى ذويها

يبتهج:

- أنا حاضر

أطلب منه أن يصعد معنا، فيصعد مبتهجاً، أقرأ أمامه الأسماء المدوّنة على البطاقات والرسائل فيجيبني:

– كلهم من عشيرة واحدة، سننزل في بيت واحد وكلهم سيحضرون لتسلّم رسائلهم

السائق يبدي ارتياحاً واضحاً للفكرة التي ستنقذه من الدوران تحت زخّات المطر الوشيكة، ولأنني كائن مطري حدّ النخاع رفضت الفكرة متجاهلة حقد السائق.. طالما قلت لرئيسي في الجمعية إنني لا أحتاج إلى رجل (بيتوتي) بل أحتاج إلى مغامر. لكنه وخوفاً على سيارة الجمعية التي تعدّ من أملاكه الخاصّة وفقاً لقانون السرقة المحلي، ألصق بي هذا البيتوتي.

للشوارع وهي تغتسل بالمطر حياة أخرى تخرج بها من أسوار الزمن وتطيح برائحة حيواتها السابقه.. نسيت وأنا أدور فوقها أنها شوارع القلعة المنيعة..! القلعة التي أخذتك مني.. وسرقتك من بين أصابعي ذات ليلة لا يضاهي سوادها إلا حزني الذي أصبح توأمي منذ أن وطئت أعتاب القلب..

سبعة أعوام لم تتمكن أصابع النسيان من تسلق أسوار ذاكرتي... حين يموت الحب تحلّق الذكريات فوق جثته.. وذكرياتنا ما زالت منذ ذلك البكاء تحوم حول جثتينا معاً.. أعرف أن روحك يابسة دون أمطاري.. وأني نخلة تكابر أمام موتها لتظل أنيقة حتى وهي تشهد تعفن أحلامها في الهواء الطلق.. كيف رفعت راية الغياب بوجهك وشطبتك مرة واحدة وإلى الأبد بصمت.. هكذا..!

لِمَ لا لأسأل الصبي عنك؟ ربما بيني وبينك حجر واحد؟ شارع واحد؟ شهقة واحدة؟ لا يمكن أن تكون مت في الحرب.. فقد بحثت في المقبرة الكبيرة.... عن شاهدة تحمل حروفك الباهية لكني لم أجدك حتى بين الموتى؟

لماذا تدهمني الحياة بكل هذه الخيبة، حتى وأنا أعبر القبور بحثاً عن جسدك لأعمّده ببقايا الدمع.. أخفق..! أنا التي مارست هربها منك بإتقان أعود اليوم مرغمة لأجدني أحوم داخل أسوار قلعتك الحصينة.. يا لشقائي وهزيمتي وأنا أنوء بعطرك تحت هذا المطر.

يباغتني الصبي:

- أنتم مع الأمريكان؟

نصعق لسؤاله وأجيبه بلا تفكير:

- وهل يحبكم الأمريكان إلى حد أن يجلبوا لكم رسائل معتقليكم؟

تنبّه السائق إلى انفعالي مستدركاً:

- يا ولدي ألم تسمع بالهلال الأحمر أو الصليب الأحمر؟ إننا جمعية إنسانية مستقلة، ويكمل إلقاء الهوية التعريفية التي حفّظوه إياها حال انتسابه إلى الجمعية

وأتذكر وهو يردّد (إنسانية مستقلة) كيف أن المواد الغذائية المقرّر توزيعها على العوائل المنكوبة كانت تتغير وجهتها لتذهب وتباع خفية إلى الأسواق السود؟

يصعد القيء إلى فمي فأطلب منه التوقف قليلاً لتنشّق بعضاً من المطر..! يشير الصبي إلى أحد البيوت الفخمة:

- هذا هو المنزل

تتوقف السيارة أمام البوابة الكبيرة المشرّعة بوجه المطر والأكياس والنفايات، فأسأل الصبي:

- يبدو المنزل مهجوراً

- كلا إنهم في الداخل سأنزل قبلكم

ينزل.. وأصلي في داخلي أن يطول مكوثه في الداخل ليمنحني لقاء أطول مع المطر. أنزل من السيارة، ينصحني السائق بالصعود لأني سأبتل، وأشكره على نصيحته الذهبية بإيماءة صغيرة من رأسي الذي يشهد تعمّده بالذكريات.. هذه أرضك إذاً؟ وهذا الإسفلت الذي يسابق عطش أقدامي للركض نحوك هو نفسه الذي احتضن خطواتك... لا بدّ من أن تكون قد أنجبت بعد كل تلك السنوات.. فهذا عرف آخر من أعراف القلعة. لا أصدق أنك تكاثرت في امرأة

غيري؟ وأنت الذي خيبتك الأسفار في البحث عن امرأة ماطرة لا وعاءً لمياه راكدة..

يخرج الصبي ومعه امرأة وفتاة، ترحبان بي بحرارة، وندخل معاً.. خطواتي تسير بآلية.. أتردد في الدخول خشية أن تكون هذه المرأة زوجتك. وقد أجدك في الداخل تحتضن أبناءك.. ربما يكون أحدهم صاعداً فوق ظهرك والآخر في حضنك والآخر فوق رأسك..! لن أدخل..! لا أضمن ردّة فعلي أمام الآخرين.. سأترك الرسائل وأمضي..!

تقودني المرأة إلى الداخل بفرح وهي تحييني. أرتبك أمام فرحها وأجدني داخل ممر صغير يفضي إلى غرفة الجلوس. أجلس ولا أقاوم فضولي في تفحص المكان وتفقد الصور المعلقه على الجدار والشهادات الكثيرة التي تغطيه بطريقه أنيقة.

تدخل علينا فتاة صغيرة تحمل لنا الشاي وتنهض المرأة لتقدمه لي معتذرة:

- الجو بارد والمولدة لا تقوى على تشغيل المدافئ والنفط شحيح كما تعرفين

بشبه ابتسامة أجيبها وأشرب الشاي.. أخرج حزمة الرسائل من الحقيبة التي تسمرت عينا المرأة عليها، أقلّبها وأخرج لها رسالة زوجها، أتأمل اسمه الذي كان مهيباً... تسري في جسدي قشعريرة خوف وأنا أقرأ اسمه بلا ألقاب:

- صعب هلال حاجم

- نعم نعم إنه هو

تتناول الرسالة من يدي بسرعة وتقرأها بلهفة لا تشفي غليلها:

(أنا بخير وبصحة جيدة وسلامي للأهل كافة).

تقلّب الرساله بأمل إيجاد تكملة لها في الجهه الاخرى، تسألني بإحباط:

- هذه كل الرسالة؟

أشفق على حزنها وهو إشفاق مهني علمونا إياه حين تطوعنا في الهلال الأحمر.. أن تشفق حتى على عدوك..

- لا تحزني، المهم في هذه الرسالة هو رقمه في السجن

- وما الذي يفيدنا هذا الرقم؟

أجيبها باقتضاب:

- يفيدكم في زيارته، لن تتعبوا في العثور عليه، عليكم فقط أن تعطوا رقمه للحاسوب وتحجزوا زيارة

لا أدري من أين نبت لي هذا القلب الداكن..! لم أعد أبكي.. لم أعد أحزن.. لم أعد أشفق..! أتذكر فقط؟ وبدلاً من الحنين أمتلئ بكل هذه القسوة..

تدخل علينا فتاة عشرينية بشرتها بيضاء وشعرها أحمر، تحييني بلهفة:

- هل أرسل لي بابا رسالة؟

تجيبها أمها بصوت منطفئ:

- المهم أنهم أعطونا رقماً

- سنهاتفه إذاً؟

تبتلع الأم خيبتها وتصمت. وأجيبها أنا:

- إنه رقمه في المعتقل، عموماً هذه الأوراق المخصصة للرسائل لمن يريد الكتابة إليه وأرجو الالتزام بهذا الورق لأن أي ورق آخر لن يعتمد ما دام لا يحمل علامة الصليب أو الهلال الأحمر

بآلية تمتد يد البنت لتأخذ الورق من يدي، لا تخافي أكتبي ما تشائين سأذهب لتسليم بقية الرسائل وكلها في المنطقة نفسها، وساعود لاحقاً لاستلام رسائلكم.

- لكن المطر شديد في الخارج وهو مصحوب برياح قوية

- لا يهم.. المطر جميل

- مع السلامة

أخرج مع حقيبتي السوداء ورسائلي ونشوتي وهي تتصاعد كلما اقتربت من باب الخروج، فمي يتذوّق بقايا المرارة وروحي ترتشف بلذّة لامتناهيه حبات المطر ورشقاته وهي تشاكس زجاج السياره وسأم السائق وضجره من الانتظار.

الصبي ما زال في السيارة مستمتع بمرافقتنا حتى بعدما طلبنا منه النزول خوفاً عليه من أن يشتد المطر، يبدو مستمتعاً بإحساسه بالتفرّد والتميّز بصعوده في سيارة ينتظرها الجميع..! أعجبني إصراره.. ربما كان يذكّرني بك..

كل شيء في القلعة يضرب الحجر على أبواب ذاكرتي الموصدة بعطرك..، كنت أريد أن أرى مدى صمودها أمام اجتياح ذكراك، وها أنا أوشك على ادعاء النصر لولا صوتي الذي يسأل الصبي سؤالاً ليس عابراً:

- هل عاد أهل القلعة كلهم من بغداد؟

يجيبني الصبي وهو منشغل بقراءة أسماء المعتقلين:

- كلهم.. تركوا بيوتهم ومزارعهم وجاؤوا في ليلة ظلماء

أضحك.. بصوت مرتفع متجاهلة استغراب السائق وتواطؤ الصبي مع ضحكي. نصل البيت، يطلب منّا التوقف فيما ينزل هو ليرى من في الداخل. امتد بنظري إلى الداخل، غرف قديمة تحيط بفناء داخلي، بناء يشبه البيوت السومرية القديمة.. يعود إلينا راكضاً مبتلاً بالمطر ويلوّح لنا بالنزول.

أنزل متأبطة حقيبتي السوداء، تلفحني موجة أمطار أواجهها بحقيبتي التي أضعها على رأسي وأنا أركض باتجاه الداخل، يطير الشريط الأسود من شعري وتتناثر خصلاته لتعانق المطر تحت العاصفة.. أتواطأ مع كل ما يحدث.. ثمة مؤامرة تقودها الطبيعه

للإطاحة بوجهي المستعار.. وبقلبي الاصطناعي..! لكنها أخفقت في التوقيت..، فقد وصلت إلى الداخل وأجلسني الصبي في المكان المخصص للجلوس حيث رحت أرتب شعري وأعيد بناءه بطريقة حلزونية تشبه القباب.

تدخل عليّ امرأة كبيرة في السن يساندها الصبي، أنهض وأساعدها على الجلوس. تحييني بلهاثها:

- أهلاً يا ابنتي أهلاً

- أرجو ألا يكون الوقت غير ملائم للزيارة

تلهث.. تنتابها نوبة سعال تمنعها من الكلام.

- لا تقولي شيئاً، سأقرأ لك رسالة رياض كامل الدهشان، أليس هو ابنك؟

بعينين دامعتين تومئ برأسها.

- يقول في الرسالة (السلام عليكم، أنا بخير وبصحة، ختمت القرآن أربع مرات وفي طريقي للختمة الخامسة، أدعوا لنا الله ليفرجها ونعود، قبلاتي للأولاد وسلامي لأمهم ولأمي التي أوصيها بالدعوات)

أغلق الرسالة وأتنبه إلى بكائها وهي تدثره بـ(فوطتها)، أرمي بالحقيبة وتتطاير الرسائل منها في زوايا الغرفة الرطبة؛ للجدات حضور خاص في داخلي، لبكائهن لعنة هزيمتي أمام النسيان..؛ أضم بكاءها إلى صدري.

- لا تبكي يا أمي

ما أعتى عطشي أمام شلال حنانها الهادر بكاءً لا حدود لمرارته وهو يجتاحني بكل هذه القسوة. الأمهات.. كائنات لا تنتمي لغيوم البكاء العابرة.. ولا لوجبات الحب السريع. لكل وجع تاريخه الممتد فوق بياض الشيب وغضون السنوات.. ولنا تقمّص هذا الميراث وحمله جيناً أصيلاً في سلالتنا الموشكة على الانقراض...

تجفّف دموعها وتعتذر.

- أنا التي تعتذر عن هذه الرسالة، لو كنت أعرف أنها ستحزنك إلى هذا الحد ما كنت سأجلبها لك

- لا أرجوك لا تفعلي ذلك، منذ أن اعتقله الأمريكان لم أعد أسمع أخباره. جاؤوا في الليل وجرّوه من السرير من بين أطفاله وزوجته، قلبوا البيت فوق رؤوسنا، كسروا كل شيء (يختنق صوتها.. بالعبرات فأستوقفها)

- مكتوب علينا أن نعيش كل هذا الخوف

- قلت لهم نحن نساء وليس لنا إلا هذا الرجل الذي لم يشارك في حرب أو يحصل على منصب، لكنهم لم يصدقوا

- سيتأكدون من براءته.. ويخرجونه، هكذا فعلوا مع الكثيرين

ترفع رأسها إلي وتمسكني من يدي بصوت متوسل:

- حقاً؟ تعرفين متى سيخرجونه؟ حتماً إنك تعرفين؟

أية قوانين يمكنها أن تقنعني باغتيال الأمل في عيون الأمهات؟ قالوا لنا وهم يعلّموننا تعاليم هذه المهنة الإنسانية، إعطاء الأمل ليس من شأننا وليس من مسؤولياتنا، بل يجب الحذر والابتعاد عن منح الوعود والعهود وتخطي الحدود..!

حتماً.. إن (هنري دونان) الذي اقترح هذا الكيان وسماه بالهلال الأحمر كان سيقترح حلولاً أخرى وقوانين أخرى أمام دموع الأمهات وهي تتشبث بأطراف الرمش كي لا يذهب البكاء بزهو الشيب.. وجدتني أقول لها وأنا أضغط على يدها ومحاولة إنقاذ ما يمكن إنقاذه من وجهي الاصطناعي وأخلاق المهنة:

- أقسم لك إنه بخير.. وإنهم يعتنون بهم في السجن وهذا أفضل وأكثر أمناً لهم مما لو كانوا هنا حيث يكونون عرضة للاغتيالات والخطف

- هل ينام جيداً؟ هل يعذبونه؟
- لا، فالقوانين تمنعهم من ذلك، ثم إنهم جاؤوا بالديمقراطية ولا يعقل أن يخترقوها ويخترقوا حقوق الإنسان التي ينادون بها دوماً، حتى الكلاب لديها حقوق عندهم فكيف الإنسان؟

ترفع دموعها نحو السماء، أنهض لأكمل توزيع الرسائل بعد أن أضع بين يديها ورقة الصليب الأحمر لتكتب له رسالة.

- على هذه الورقة يمكنكم أن تكتبوا ما تشاؤون، سأذهب لأكمل توزيع بقية الرسائل ثم أعود إليكم
- من يكتب الرسالة؟

أستدرك خواء المنزل وأنا أتلفت حولي بحثاً عن شخص ما يقوم بهذه المهمة.

- ألا تعرف زوجته الكتابة؟
- زوجته أخذت الأطفال وذهبت إلى أهلها خوفاً على أولادها من الاعتقال

أعود أدراجي وأستسلم لمقعدي الخشبي المهترئ محتضنة الورقة التي هربت من وجه بياضها..

- حسناً سنبدأها بالسلام عليكم
- تمسكني من كتفي وهي تملي علي الرسالة وكأنه يجلس أمامها (أنا بخير يا وليدي وأولادك ولا ينقصنا غير وجودك. نورية رزقت بولد أسمته على اسمك، وعلي نجح في الكلية هذا العام أيضاً وتخرج.. و.. ماذا أقول له أيضاً؟
- قولي له إنك بخير وقوية ولن يهزك غيابه
- نعم يا ابنتي قولي له هذا.. قوية ولا يهزني غيابك

وتجهش وهي تكمل (لم يهزني أبداً.. لم يرقدني في سرير المرض منذ تلك الليلة السوداء.. ولم....).

أكتب.. وأكاد أغرق بدموعها.. يرتبك حبري ويتعرج فوق

السطور وهو يخرج عن مساراتها المتوازية.. كيف سيواجه ابنها هذه الفوضى الحبرية وهي ترتسم أمامه على ورقة ترسم فشلي في إخفاء دمعة أمه..! أحمل أوراقي وأقبل رأسها ودموعها وهي تتدثر بفوطتها السوداء.. أسير بسرعة برغبة الهروب من لعنة دمعها.. وقبل أن تبتلعني بوابة المنزل تلاحقني لتسألني وهي تستند على باب الغرفة:

– لم تخبريني عن اسمك ومكانك لأحضر وآخذ الرسائل منك.

– حين تأتي رسالة لك سأحملها بنفسي فهذا واجبي، أرجو أن تعودي إلى الداخل، الهواء بارد والمطر يشتد

أستدرك قبل أن أصعد إلى السيارة (اسمي زُهرة).

أركب السياره كمن تهرب من كارثة وشيكة.. تلوح لي بيدها وأرقب عينيها المتدثرتين بفوطتها ونحن نمر لنستدير من أمام بيتها، يهز السائق رأسه بأسى وهو يرى وقوفها خلفنا تحت المطر.. أمطار دموعها أنستني المطر النبيل وهو يدق بأصابعه الغاضبة على نوافذ السيارة. يسألني السائق بعيداً عن فصل البكاء الذي ما زلت عالقة فيه:

– المطر شديد وأخشى أنه سيشتد أكثر، إنها عاصفة، الأجدر أن نعود ونكمل توزيع الرسائل في ما بعد

باستسلام.. بلا إرادة.. أوافقه، يأتيني صوت محتج من الخلف:

– لا بد من إكمال التوزيع، الأهالي ينتظرون الرسائل. خبر وجودكم انتشر في كل أرجاء القلعة وكلهم ينتظرون على أحرّ من الجمر

من أين أتى صوتك أيها الصبي ليفجر في دمي أنهار بكاء عبثاً يحاول اجتياح حواجز الزمان والمكان.. ومن أين أتت هذه الرسائل لتحطّ فوق أصابعي وتستنطقها للطيران في ملكوت الدمع..!

أستدير إلى الصبي بتواطؤ لم يعجب السائق:

– إذن.. لا بد أن نكمل التوزيع ولو كانت تمطر صواريخاً..ألم تكن تمطر صواريخاً من قبل؟

يبتسم الصبي وأبتسم له بملء رغبتي في البكاء، مثل أفعى صامتة يباغتني السائق باحتجاجه:

- أعتذر، الوقود الذي في السيارة لا يكفي

بغضب أستدير إلى الوراء حيث الحاويات التي يجلس قربها الصبي:

- وما هذا؟ ببسي كولا؟

بصوت مرتبك:

- هذا ليس تابعاً للجمعية، إنه ملك خاص

يعلو صوتي وأنا أطلب منه أن يتوقف، وحالما يتوقف أفتح باب السيارة وأنزل لأستدير إلى الخلف وأفتح الباب الخلفي، يساعدني الصبي من الداخل بتواطؤ وسعادة فشل في إخفائها، أمد يدي إلى الحاويات الممتلئة بالكاز، يساعدني الصبي في إنزالها، يهرع السائق من مكانه ويركض نحوي:

- ماذا تفعلين؟

لا أذكر أني كرهت صوتاً كما كرهت صوته.. صوت الرقيب المدسوس لمراقبة حتى أنفاس الأمهات وهن يتسلمن روائح أبنائهن... كنت أستمتع بوقوفه بجثته الضخمة تحت المطر.. كلما طال صمتي.. كبر ارتباكه.. ومكث أكثر تحت البرد والريح.. كان هنالك صوت في أعماقي يقول لي أطيلي صمتك ليطول وقوفه تحت سماء الغضب.. لعل صاعقة تعيد إليه إنسانيته ونقاء وجهه ونبض قلبه..

بعدما أنزلت آخر حاوية قلت له بهدوء فيما تضرب العاصفة وجوهنا بالأكياس الفارغة وأوراق الشجر وقصاصات الورق:

- ما دامت هذه السيارة لن تشرب حصتها الكاملة من الوقود المخصص لها في ميزانية الجمعية الشهرية فأجد من العدالة والإنصاف أن أريقها هنا تحت قدمي.. تحت المطر.. فذلك أجدى

من أن تذهب لمشاويركم الخاصة؟ هل تتصورني حمقاء لا أرى ولا أسمع؟ إن كنت لا أتحدث فهذا لا يعني أنني بلا لسان.. وإن كنت لا أخربش أحداً فذلك لا يعني أني بلا مخالب. كما أن هذا لا يعني أني أستخدم مخالبي الآن، الأسبوع القادم لدي اجتماع مع المنسق العام في بغداد وسيكون لي حديث مطوّل معه

يتحول فجأة إلى كائن آخر، يتوسلني أن أصعد بصوت لا يتلاءم مع ضخامة جسده المنطوي على مساحات هائله من الفراغ.

– اصعدي قبل أن يتجمع حولنا الناس، سنذهب حيثما تشائين

ألتفت إلى الصبي وأتواطأ مع ابتسامة لم يكن قادراً على إخفائها:

– لا أدري إن كان باستطاعتك إعادة (الحاويات) إلى السيارة؟

بابتسامة عريضة ينزل بسرعة لإعادتها بحركة سريعة لا تشبه ارتباك يدي وارتجافها حين كنت أنزلها.

أصعد.. وتسير بنا السيارة تحت سماء كانت تتطلع بصمت وحكمة إلى فوضانا الأرضية.

***

نتوقف أمام قصر أبيض منفصل عن بقية المنازل.. وكأنه متقوقع في بقعة منفصلة من أرجاء القلعة.. محاط بأشجار عالية كثيفة الخضرة.. بانبهار أدخل الممر الصقيل وأنا أتساءل عن اسم الحجر المبلط به.. وعن اليد السحرية التي زرعت الورود بهذه الدقة، وهذا النسق الذي لا تحيد الأغصان عنه.. دهشتي تفوق كل المشاعر، وأسقط سهواً في فخ السؤال: هل وطئ الاحتلال هذه الجنة الصغيرة؟ تواجهني عتبتان، أرتطم بالأولى لعدم تركيزي على خطواتي بل على الحجر الذي تعثرت بصقالته ولونه الزهري.. أرتقي العتبة الأولى والثانية حتى أجدني عند مدخل القصر.. فجأة يظهر أمامي الصبي وهو يرشدني إلى الطريق، وأصيح به:

- ما الذي جاء بك هنا؟

يندهش هو الآخر:

- ألم تريني؟ لقد دخلت قبلك؟

أداري ارتباكي وأسأله: نعم رأيتك لكنك كنت أسرع مما أتخيل، أين أصحاب المنزل؟

- تفضلي في انتظارك، أدخلي من هنا

وأجدني مرة أخرى أدور بين جدران قصر أول ما استقبلني فيه هو تلك الأضواء الباهرة التي يرتد ضياؤها ليجرح جدران الوحشة والصمت.. وسط صالة دائرية كل شيء فيها يغوص في البياض.. الستائر.. الأرائك.. حتى نباتات (اللبلاب) المتدلية من أعالي السقف تبدو بيضاء من خضرتها.. اكتمال الأشياء يفقدها المعنى.. ويقتل فيها الروح.. الروح النابعة من الفوضى.. فوضى الوجود.. منذ الصرخة الأولى.. والحرف الأول الذي ألثغونا إياه بما يتوافق وأخطاء المعنى..

يعود الصبي إليّ بعد أن يغيب دقائق ومعه سيدة أربعينية ذابلة البهاء، سيدة حمراء ببياض يميل للصفرة.. تتقدم نحوي وهي تحمل كيساً من الحلوى، تصافحني وتطلب مني الجلوس في قلب البياض، قبل أن أجلس تمتد يدها لتدسّ كيس الحلوى في يدي، أندهش وأحاول إعادته، لكنها تصرّ بما يشبه التوسل:

- أقسم عليك أن تقبليه مني، هذا كيس الفرح بعد أيام طويلة من المرارة

أستسلم لفرحها الوشيك.. آخذ الكيس من يدها وأشكرها عليه. أجلس ويتردد في أذني صوت رئيسي في العمل وهو ينبهني إلى عدم قبول أية هدية من الآخرين أثناء الواجب لأن ذلك يمسّ بمبادئ الجمعية التي ترفع شعار المجانية والإنسانية والمساواة، بينما يصدح صوته في الجانب الآخر من الذاكرة وهو يطلب مني على

انفراد أن أجمع ما يمكن جمعه من بيوت القلعة من ثياب مستعملة وقطع أثاث قديمة بغرض توزيعها على الفقراء، وحينها كان نظري ينصرف إلى جهة المخازن حيث صناديق (السلة الغذائية) والأغطية والفوانيس والقدور كلها قابعة بانتظار المجهول الذي تدور حوله حكايا المدينة... يأتيني صوتها الخائر وهي تتكئ على ذراع المقعد:

- أعتذر عن تأخري، فقد أجريت عملية قبل أيام، ولولا قدومك ما نهضت من الفراش
- أرجو منك أن تعذريني على زيارتي المفاجئة، في هذا الجو العاصف لكنه عملي الذي لا أمتلك حياله شيئاً ولا حتى مواعيد ثابتة حين تأتي الرسائل نطير بها
- هذا من دواعي سرورنا وحسن حظنا الذي تعثر في نهاية المطاف.

ثمة تواطؤ غريب يشدني إليها... تأخذني حمرة شعرها لسنواتي البعيدة الغارقة في قيعان الذاكرة.. هناك.. حيث صبغت جدتي شعري بالحناء وقتلت شقرته البكر بلون الدم بحجة أن ذلك يقوي الشعر ويطيله.. وحين استيقظت في ذلك الصباح من نومي ونظرت إلى وجهي في المرآة أخذت أبكي وأصرخ (أين شعري)..؟ وحين كبرت.. تنامت الخسارات.. وتصاعد النداء.. (أين صوتي؟... وسادتي؟.. رائحة أمي..؟).

يقاطع تواطئي صوتها مرة أخرى حيث تطلب من الصبي الجلوس وتناديه أحمد. حينها فقط أكتشف اسمه.. تبادرني:

- أحمد ابننا... ابن القلعة كلها.. ابن كل الأمهات

يجلس أحمد، ولأول مرة أرى في عينيه انكساراً كبيراً يفشل في إخفائه لا يلبث طويلاً حتى ينهض:

- سأذهب لأنتظرك في السيارة

لا أقاوم رغبته في الهرب، أومئ له بالموافقة.. يغادر بالانكسار ذاته. تفهم رغبتي بالإيغال في المعرفة.. في فضولي الذي يسابق خطواته.

- أحمد ابننا.. ابن الحرمان.. فقد والدته وهو في الثامنة.. كان حادثاً مؤلماً
- كيف؟
- والدته ماتت حرقاً!
- أحرقت نفسها؟

يرتبك صوتها:

- لا أدري بالضبط.. الحكايات كثيرة والثرثرة لا تنتهي، أرجوك لا تخبريه شيئاً
- لا طبعاً
- كانت أمه سيدة حقيقية.. اختارها والده من خارج القلعة.. قبل قوانين الحظر، أعني حظر الزواج من الغرباء.. كانت مفعمة بالحياة والعمل الذي منعت منه. عاماً تلو آخر كانت تزداد انطواءً على نفسها داخل بيتها الفخم المبني على طراز القلاع، حتى فاجأها زوجها ذات يوم بزواجه من إحدى القرويات..! قالوا إنها لم تحتمل الصدمة... فأحرقت نفسها.. وكان أحمد شاهداً على ذلك. حينها أصيب والده بما يشبه الجنون.. وأحمد الذي ترينه أغلى ما لديه في هذا العالم..

منذ متى شعرت بتواطؤ مع هذا الصبي؟ منذ أن عرفت حكاية أمه؟ أو منذ أن رأيت فرحه الخفي بمشاركتي هذا المشوار العجيب بشخوصه وطقوسه؟ ثمة ما يستصرخني لإعطائها الرسالة والمضي نحو أحمد.. طفل الجنون الذي تمخّض عن كل هذا الألم.. أفتح الحقيبة وأخرج البطاقة الخاصة بزوجها:

- نجمان خلف محمد؟

تنهض وهي تؤكد لي الاسم، تأخذ البطاقة والرسالة المرفقة.. تلتهم حروفها على عجالة، تسألني بصوت لم يرتوِ بعد:

- هذا فقط؟ ألا توجد رسالة أخرى؟ مضى عامٍ على اعتقاله ولم

نحصل لا على موعد لمقابلته في المعتقل أو حتى رسالة، باستثناء الأخبا ر التي كانت تردنا عنه من المعتقلين الذين صادف وجودهم معه قبل أن يخرجوا.

- المهم أنك تأكدت أنه بخير خصوصاً بعدما كتب لك بخط يده، ولو كتب شيئاً آخر كنت سأحضره لك، الرسائل تكون مقتضبة لأنها تكتب على عجالة وبشكل جماعي
- طيب ألا تعرفين في أي معتقل هو الآن؟
- نعم هذا مثبت في البطاقة، إنه في سجن (أبو غريب)

تنهار على المقعد.. دمعها يغرق في بياضه.. كما أغرق أنا في الصمت.. طالما تساءلت: هل أصلح حقاً لهذه المهنة؟ وربما وجدت الجواب على هذا التساؤل في ارتباكي أمام بكائها..

- هل هذا يعني أني لن أجلب لك الرسائل القادمة؟
- لا، لا، أرجوك... هي كل ما تبقى لدينا منه.. هي الأمل الوحيد بعدما تخلى الأصدقاء وحتى الأهل عنا
- لن نبكي إذن... ودعيني أذهب بسرعه لأتذوق هذه الحلوى مع أحمد والسائق وهو يوشك على الانتحار بسبب هذا المشوار العاصف

تضحك مغالبة حزنها..

- هذا ورق خاص لتكتبي له رداً على الرسالة، سأعود غداً لآخذ الرسائل وربما يأتي السائق مع أحد المتطوعين لتسلمها منكم فقد أكون منشغلة بتوزيع بقية الرسائل في مكان آخر.
- لك الشكرالجزيل.. نحن نتعبكم معنا.. أعطينا العنوان ونحن نأتي لتسلم الرسائل
- لا.. هذا واجبنا وليس مجهوداً شخصياً
- ليحفظكم الله

أعود لتلمس خطواتي فوق صقالة أرض وخضرة سجاد كأنه صنع للتو. قبل أن أخرج أستدير نحوها باستدراك:

- المطر يشتد في الخارج، أرجو ألا تخرجي، أعرف الطريق جيداً
- ولكن
- أرجوك، في أمان الله

أودعها وأعود لسيارة الجنون وهي تنجلد بزخات مطر لم يعد قادراً على التسرب إلى أعماقي الضاجة برعود الدمع.. كل شيء يناظر السماء بهطولها دمعاً يورق في الحناجر.. في الدعاء المتهدج في قلب المطر، فالسماء تشرع أبوابها بوجه البكاء..

في مسيري المتباطئ المتواطئ مع يد السماء وهي تغسلني بحنو أم لا أتذكر منها شيئاً سوى صورة بالأبيض والأسود.. أتلمس ملابسي المبللة بمياه الفرح الخفي.. وأخفق بالخوف على الرسائل من البلل! أخبئها تحت ذراعي وأسارع إلى السيارة..

يبادرني أحمد بانتظاره والسائق بصبره النافذ:

- انتهينا الآن

يسألني أحمد بخيبة كبيرة:

- انتهت كل الرسائل؟

وبخيبة أكبر يأتيه جوابي:

- تقريباً باستثناء البعض في الجانب المقابل للقلعة.. ولكن ستأتينا في الأيام القادمة رسائل أخرى وسأحتاج إلى مساعدتك
- أنا في الخدمة دوماً.. سأنزل هنا إذن
- لا؟ سنوصلك إلى باب البيت.. لا بدّ أن أهلك قلقون عليك الآن؟
- ليس هنالك من يقلق.. أنا دائم الخروج من البيت
- لا بدّ أن أعرف بيتك.. لأنك من سيجمع الرسائل من الأهالي
- حقا؟ سأجمعها الليلة
- لا.. لتنتهي العاصفة.. والصباح رباح، والآن دلنا على الطريق لبيتك
- إنه في نهاية الشارع عند المدخل

تسير السيارة وأكاد أستمع لسخط السائق الداخلي كلما أماط الصمت عن تنهيدة عابرة أو نظرة تسقط سهواً أمام شاشة وجودي.

– هنا، هذا هو البيت، لم لا تتفضلان عندنا على الأقل حتى انتهاء المطر؟

– أشكرك، لا بدّ أن أزورك يوماً، لا تنسَ الرسائل في الغد لأننا سنمر لأخذها، وإذا انشغلنا غداً سنؤجّل ذلك ليوم آخر

– جاهز وبانتظاركم في أي وقت، مع السلامة

ألوّح له من نافذة السيارة المضببة. يلتفت إليّ السائق مباشرة:

– سنعود الآن؟

– نعم، وغداً نكون في قرية (الزويّة)، لدينا مجموعة من الرسائل وهذا يتطلب حضورك باكراً

– إن شاء الله

نتوقف عند السيطرة الأمريكية التي أخذت هوياتنا، المترجم ذاته يقف أمامنا ويسلمنا إياها بصمت، قبل أن نغادر يبادرنا الأمريكي:

– ألم تجدوا سلاحاً عند أحدهم؟

وقبل أن يهم المترجم بترجمة لغته التي أتقنها جيداً بعد أربعة أعوام من دراستها أقول له:

– دموع الأمهات لم تمنحني فرصة السؤال!

يفتح الطريق أمامنا ويعيد إلينا الهويات.. ونمضي.. تقاطع مسيرنا المتعثر فوق إسفلت الشوارع الذي يشاركني فداحة التذكر حين كنا ننزلق فوقه دون أن تستوقفنا الأسئلة:

– هل هي سيطرة جديدة؟

– لا.. الطريق مقطوع لعبور الأرتال.. قد يطول الأمر ساعات. يقولها بلهجة الاتهام

– ساعات؟

كيف سأقول لخالتي الشاخصة بقلقها ومخاوفها بأن الطريق بيني وبينها مقطوع؟ شبكة الموبايل هي الأخرى مقطوعة؟ تتجمع

السيارات وتزدحم من كل صنف ولون.. سيارات لا أعرف اسمها أو حتى ألوانها الهجينة.. ملأت الشوارع والبيوت كأسراب من النمل.. قالوا إنها تحمل هوية واحدة مكتوب عليها (منيفيست).. إنه وطن المنيفيست إذن... الوطن المستورد بأمراضه وأدرانه..

الشارع يستطيل بضجر السيارات وهي تزداد كل لحظة.. يبدأ الجميع بإطفاء المحركات ترشيداً لاستهلاك الوقود... كذلك يفعل السائق. ألتفت إلى السيارة التي تقف لصقي، أنظر إليها من مقعدي العالي، ثمة امرأة في حضنها طفل رضيع وآخر يلعب في المقعد الخلفي بلعبة صغيرة.. أستمر بالتطلع إليهم بين الفينة والأخرى قتلاً لضجر انتظار.. انتظار أن نقتل أكبر قدر ممكن من الساعات في اللاّجدوى.. الرتل طويل.. شاحنات هائله تحمل كتابة ملونة ليست بالإنكليزية.. لا أعرف لغتها.. ربما كانت تركية.. أو عبرية ما الفرق؟ أبواب الوطن والبيوت والقلوب كلها مشرّعة بوجه اللصوص والسراق والقتلة والمنتفعين والوصوليين والمدعين والسماسرة.. ونحن لا نملك إلا أن نصمت ونحن نرى الزناة يسرقون أمهاتنا في وضح النهار.. تماماً كما تفعل هذه الشاحنات المريبة التي تخرج محملة بدماء الأرض وتعود لاهثة لتشفط المزيد..

ألتفت مرة أخرى إلى السيارة التي تلتصق بنا.. الطفل في المقعد الخلفي يتحول إلى حضن أبيه الذي خلع نظارته وراح يمسح العرق في مساء ممطر لا يصلح للتعرق.. الطفل يشاغب ضجر أبيه الذي ينهره بأصابع واضحة من النافذة... الأم تحاول إسكات رضيعها بإلقامه ثديها بعدما نفذت قنينة الحليب المرمية في المقعد الخلفي..

يضيقان ذرعاً بالبكاء.. الطفل يرفض صدر أمه الذي تعاود إلقامه إياه عنوة..

أتذكر كلام جدتي لجارتي التي ولدت حديثاً: (الطفل لا يبكي إلا إذا كان جائعاً أو متسخاً)؟.. وأتساءل كيف ستنظفه الآن وسط

حشود السيارات؟ لا يوجد ماء أوحتى مطعم او دار استراحة!

أدير وجهي إلى الناحية الأخرى حيث سيارة أجرة محملة بالركاب.. يفتح أحدهم النافذة متشبثاً بنسمات هواء لا يلوثها دخان السكائر الذي يحرق الرغبة في الموت والتسامي بعيداً عن هذه الأرض.. أتذكر (خالي) الجميل والوحيد والبعيد في أرض اغترابه في أوروبا، كان يردّد حين يزورنا أن السجائر تعيث الخراب في جسد الإنسان أكثر مما تفعله الحروب، والعراقيون يدمنون السجائر صغاراً وكباراً، وفي أول اتصال له بعد الحرب والخوف والقلق على مصيرنا قال: (لولا السجائر.. من يدري أية جريمة حمقاء كنت سأرتكب من الخوف والقلق عليكم وأنا أرى الصواريخ تدك أرضكم)؟ واكتشفت لحظتها أن للسجائر فائدة تفوق ما تسببه من تلف في خلايا الرئتين وأوردة القلب.. فهي تخدر رغبتنا في الموت وتؤجلها حتى سيجارة أخرى... وسكرة أخرى..

ألتفت من جديد للمرأة الملاصقة لضجري... الرجل يفتح الباب وينزل تحت المطر مخلفاً المراة مع الطفلين.. تمدّد أحدهما على المقعد الخلفي بعد أن تناوله قطعة شوكولا صغيرة، وتقلب الآخر على بطنه في حضنها بعد أن يزداد بكاؤه ويقترب لون وجهه من الزرقة احتقاناً من البكاء... يتسلل الضيق إلى صدري وأنا أرقب حيرتها المتفاقمة مع صراخ الطفل المتعالي.. أتطلع حولي في أرجاء السيارة.. حاوية الكاز الفارغة والممتلئة.. إطار معطوب.. العلبة الخاصة بأدوات التصليح.. لا شيء يمكنني أن أساعدها به..

أفتح حقيبتي الكبيرة.. وكمن يعثر على معجزة من السماء، أجد أكياساً صغيرة من الكلينكس المنظف المعطر بالصابون كنت قد احتفظت بها مع أدوات الإسعاف الاولي التي سلّمونا إياها. بسرعة أفتح باب السيارة مخلفة دهشة السائق وسأمه وضجره، متجهة صوب المرأة التي تتفاجأ بأصابعي وهي تطرق النافذة عليها... تفتح النافذة بصعوبة وسط صراخ الطفل واستغرابها..

- تفضلي سيساعدك ورق الكلينكس هذا في تنظيف الطفل
تأخذ الورق بسرعه بفيض من الامتنان.
- شكراً لك.. لا أعرف كيف أشكرك.. ملابسه مبتلة، لم نتصور أن الشارع سيغلق بهذه السرعة، نحن ننتظر منذ ساعتين

أتذكر حقيبة الإسعافات الأولية التي سلّمونا إياها في التدريبات.. ثمة قطع قماش بيضاء خاصة بإسعاف الكسور ومراهم حروق وسوائل تعقيم والكثير من الشاش والقطن.
- انتظري سأعود حالاً

أعود إلى السيارة وأستدرك حالما أدخل إليها أني أقطر مطراً... أحمل الحقيبة أمام فضول السائق وأعود إليها، أفتح الباب وأدخل الحقيبه داخل السيارة وأخرج لها قطع القماش والشاش والقطن.
- هل ينفعك هذا؟ إنها تشبه تلك التي يقمّطون بها الأطفال
- نعم إنها مناسبة جداً، كيف أشكرك؟
- بأن تستعجلي في التنظيف.. سأساعدك

تفتح القماط المربوط بطريقة متوارثة تتقنها كل نساء المدينة، فبدونها لا يصح جسد الطفل ولا يبارك بأدعية الجدات.. ولا تصبح الأم أمّاً إذا لم تتقنها.. أضع الملابس القديمة في كيس صغير تحت المقعد الخلفي.. يدخل زوجها إلى السيارة وهو ينظر إلينا باستغراب، يحييني ويجلس في مقعده ينفث الدخان معتذراً على إتعابي معهم، أضع الملابس المتسخة في جيب المقعد الخلفي فيكرران شكري، ويقول الزوج لي بعد أن يرمي بعقب سيكارته في الخارج بينما تفوح رائحة الورق المعطر في السيارة:
- لقد تبللت
- نعم.. لعلي أجد في حقيبتي السحرية ما أستبدل به ملابسي أيضاً.

يضحكان.. وأضحك معهما وأنا أفترش حضن المرأة بقطع القماش البيضاء، تضع الطفل بسرعة عليها وتبدأ تقمّطه.. أنتبه إلى الاحمرار الكبير في مقعد الطفل، أخرج لها مرهماً صغيراً خاصاً بالحروق.

- ضعيه على جسده كي لا يتسبب القماش بالحرقة.. (تبتسم).
- إنها حقاً حقيبة سحرية

تبدأ السيارات بالتحرك البطيء معلنة عن فتح السير، يغلق زوجها باب السيارة ويتأهب للمغادرة.. تبدأ بسرعه تقمّط الطفل الذي يكاد أن يغفو بين أصابعها مع بقايا احتجاج وأنين خافت لم يعد قادراً على مواصلته أمام التعب والإعياء.. أتسمّر أمام الطفل.. ربما كان عمره شهران.. لا أعرف بالضبط. لا أشعر بشيء حياله.. لماذا لم تعد رغبة الأمومة تتحرك في نسغي؟

تنتهي من ربط قدميه وتغطيته ببطانيته الصغيرة.. تتسلل رائحته الخاصة إلى صدري وأنا أحمل بقايا حقيبتي السحرية، رائحة بودرة ناعمة وبيضاء..

- لا نعلم كيف نشكرك حقاً... أين بيتك أو اسمك؟
- لا تشكراني بل اشكرا حقيبتي السحرية التي تمنيت لو أنها تحتوي على عقار خاص بالعقم كي تمتنعا عن الإنجاب على الأقل حتى ينتهي الاحتلال

أغلق الباب على ضحكاتهما المتصاعدة في السيارة وأمضي وسط تصاعد زعيق السيارات ومنبهاتها، أدخل السيارة فيبادرني السائق:

- أنت مبتلة تماماً
- نعم، لهذا سأستعجلك بالسير قبل أن ينقطع الطريق مرة أخرى

بصعوبة تمضي السيارة بين الحشود المزدحمة.. تتلقف الطريق أخيراً لتنزلق فوق إسفلته... البيوت تغتسل بالمطر والأشجار والشوارع والهواء الذي أخمده البارود طويلاً.. لن تكون سنة «محل»، هذا ما تقوله الأرض التي فتحت ثغرها للربيع أخيراً..

نتوقف عند الباب القديم لبيتنا المكتظ بالانتظار والأسئلة العقيمة وحبات مسبحة خالتي وهي تصطك ببعضها غضباً وقلقاً وانتظاراً.

في قلب الحجر

(الظلمة أقوى.. هذا ما يقوله الضوء
وهو يتلفّظ آخر قطرات النفط..
قبل أن يغيب في بيته الزجاجي).

تلوك قدمي الممر الصغير المكسو بورق (شجرة النبق) العريقة.. الباب الخارجي يتأرجح بصدى الريح وأنا أنتصب تحت سيول السماء نقطة سوداء عبثاً يغسل سوادها المطر، حاملة حقيبتي التي أحاول أن أجد المفتاح الصغير بداخلها.. لا يطول انتظاري حتى تتلقف أصابعي المفتاح بسلسلته الصدئة التي أهداني إياها خالي قبل أن يتأبط منفاه. أفتح الباب ورائحة موقد نفطي تداهم بردي وبللي.. أدخل غرفة خالتي، أدفع الباب الذي ترك مواربا ومنتظراً عودتي المتأخرة.

على بساطها المُحاك من الصوف أجدها مستلقية بين النوم واليقظة، أنسحب وأتركها لغفوتها. بي رغبة للنوم.. لو كنت في بغداد ما كنت لأضيع قطرة مطر واحدة دون ارتشافها، لكني في المدينة الساكنة التي تخشى المطر... وتغلق أبوابها ونوافذها في وجهه.. أغلق باب غرفتي بهدوء لئلا أوقظ عتاب خالتي وتأنيبها.. أزيح الستارة عن النافذة الصغيرة التي تصر على إغلاقها خوفاً من نظرات (سعد) ابن جيراننا المولع بتربية الحمائم.. تتنفس نباتات الظل المصطفة تحت النافذة بقايا الضوء المحتجب تحت الغيم.. وفي أوراقها عتب لتأخري في منحها وجبة الغذاء.. الشمس ترمي ببقايا ظلالها الداكنة على أهداب النافذة التي تغتسل بالمطر..

أشعر أني في سيارة تتجه بي صوب المجهول الذي أحلم... هنالك حيث سأجد أبي محمّلاً بالأجوبة على أسئلتي التي أرسمها فوق الوسادة كل ليلة... وسأجد أمي لتحكي لي كيف أنها ضمت جسدي داخل السيارة التي كانت تنطلق بهما نحو الآخرة..

هناك.. عند الخط السريع للموت.. كنت قطعة لحم لم تتجاوز الثلاثة أشهر، حين ارتطمت السيارة بأخرى يقودها سائق ثمل.. وسأعاتبها على غيابها الباكر جداً... ثلاثة أشهر عمر يصلح لإيجاد كل البدائل حتى الاسم الذي تحوّل منذ ذلك اليوم من زهرة إلى زوزو... كل شيء كان يكبر.. الجراح.. والجسد الذي تفلّت من بياض القماط.. والشَعر الذي ارتدى البياض.. والقلب الذي لم يعد بساطاً سحرياً تحلق فوقه الحمائم والأحلام...

كل شيء كان ينخرط في دورة الحياة والطبيعة.. إلاّ صوتي الذي بقي يندسّ كل ليلة يبحث في عتمة الوسادة عن ظلال.. وكف.. وصوت يهدهد بحكمته فوضى الأسئلة.. خطوات خالتي تقترب من الغرفة وتسبيحاتها تسبقها، أفتح الباب وأباغتها:

- تصورتك نائمة ولم أشأ إيقاظك

- وكيف يأتيني النوم وأنت في الخارج حتى هذا الوقت؟

أحاول التملص من وخزاتها.

- الجو بارد، سأملأ المدفأة بالنفط

- متى تتركين هذا العمل المتعب؟ لسنا بحاجة إليه.. لدينا ما يكفينا من إيجار المحل وما يرسله إلينا خالك بين فترة وأخرى وراتبي

(لطالما كان الخط مقطوعاً بيننا.. بيني وبينكِ أجيال.. وموتى.. وولادات.. ولا أملك إلا أن ألبّي كل ما تريد.. ولو كان ذلك على حساب قناعاتي وما تبقى من أحلامي).

- أنت تعلمين بأني لا أرفض لك طلباً.. وتذكرين اليوم الذي طلبت فيه مني ألا أكتب في الجرائد خوفاً من (الفضيحة)؟ تركت ذلك لأجلك.. ولم أعد حتى أقرأ الجرائد.. لكن هذه المرة أنا لا أقوم بما يمكنه أن يسيء لك ولاسم العائلة أو ما تبقى منها.. أنا أحمل الرسائل من المعتقلين وأضعها بين يدي أمهاتهم.. لو أنك ترين بكاءهم وفرحتهم ما كنت طلبت مني أن أترك هذا العمل؟

- أعرف أنك لا تقومين بعمل يغضب الله، لكن تذكري أن للناس ألسناً لا ترحم.. ونحن وحيدتان

بعد صمت قصير يخرج صوتي:

- ..... حاضر
- هل ستتركين هذا العمل؟

أجلس على السرير.. يسقط رأسي بين ذراعي..

- أنا مستسلمة لكل شيء... سأفعل ما تريدين لأجلك ولأجل رائحة أمي التي لا أذكر طعمها.. وثرثرة المدينة.. ونصائحك.. أنا طوع أمركم جميعاً، فبوصلتي لا تشير إلا للاتجاهات الخاطئة.

(تصمت.. تتطلع إليها بحنان يتواطأ مع انكسارها.. تتجه صوب السرير، تجلس قربها ويخرج صوتها حزيناً).

- لن أكون قيداً لك.. أنت ما تبقى لي.. أفتح عيني على ضحكتك.. وأنام على صوتك
- أعرف أننا وحيدتان في هذا الكون المليء بالذئاب.. لم تعد بي رغبة للقتال، لست إلا امتداداً آخر للخراب
- لا تقولي هذا.. أعرف بأني كنت قاسية معك.. لم أقصد إيذاءك.. اغفري لي، أعرف أني السبب في يأسك

(أكاد أسمع صوت دموعها يطرق قلبي).

- لا يا خالتي.. لست مسؤولة عن شيء.. لكنها الحياة التي لم تعد تغري إلا بالاستسلام.. سأترك العمل.. سأترك كل شيء وأجلس معك لأستمع لك.. طالما أحببت حكاياتك
- لا.. لن تتركي العمل..عيشي حياتك.. لن أطالبك بشيء سوى أن تشفي من هذا اليأس.. ما رأيك لو نلبي طلب خالك ونسافر إليه؟
- فكرت في ذلك من قبل.. لكن وضعه ليس مستقراً بعد.. سننتظر بعضاً من الوقت
- حسناً.. هل تغديت؟
- لا

تنهض..
- سأحضر لك الغداء، أم علي أرسلت لك طبقاً من الـ (الدولمة)
- حقاً؟ كم هي رائعة وحنونة، سأحضره أنا فيما تغيرين ملابسك، وقبل ذلك سأذهب لأملأ المدفأة بالنفط وأشعل الفانوس.. ها هو الليل يخيّم علينا والكهرباء ما تزال غائبة منذ الصباح الباكر
- هل تعلمين أني أحب ضوء الفانوس أكثر من الضوء الصناعي؟

تبتسم قبل أن تغلق الباب، أعرف ذلك.. وأعرف أنك كل ليلة تقرئين على ضوء الفانوس حتى حين تكون الكهرباء موجودة..، نسيت أن أخبرك أن (سروة) اتصلت وتسلم كثيراً وتطلب منك أن تتصلي بها.. عاتبتني كثيراً لغيابك.
- سأتصل بها، أنا مقصرة جداً بحقّها

تغيب في الممر المفضي إلى المطبخ.. وأذهب لاستبدال ملابسي.. يتسلل إلى قلبي فرح خفي حين تسقط نظراتي على مظروف الرسائل فوق المنضدة الملاصقة للنافذة.. سيؤنسون وحدتي هذه الليلة أيضاً..

صوت خالتي يأتيني من المطبخ تسبقة راحة (الدولمة).. وضوء الفانوس الخافت وهو يرتعش تحت أصابعي.. يستقر اللهب الناعس داخل البيت الزجاجي.. ويستقر تأرجحي في قلب الحجر..

***

لا تتسع المنضدة لأنفاسهم... لهذا.. أعلق الفانوس فوقها.. وأفترش الأرض والضوء.. وبياض الورق.. رسائل لقضاء (الدور) و(سامراء) و(الشرقاط) و(الزوية) أيضاً ولأول مرة.. ألصق ورقة صغيرة صفراء فوق كل مجموعة وأسجل عليها اسم القرية وعدد الرسائل وأسماء المعتقلين لكي تسهل علينا عملية البحث عن أصحابها.. أفتح الرسائل لقراءتها.. وفقاً للتعليمات.. أعبر الرسائل الواحدة تلو الأخرى التي تحمل المعنى ذاته الذي يقال بأكثر من طريقة: نحن بخير وبصحة جيدة.

لا شيء يثيرني هذا اليوم.. ليست هنالك حكاية تستوقفني وتستدرجني للدهشة.. أقيس حرارة الرسائل المرسلة من الأمهات والزوجات فأجد أنهن مصابات بحمى الشوق واللوعة والخوف.. ثمة رسالة تستوقفني بخطها المتعرّج الذي يشبه كثيراً خط طلاب الابتدائية..

(أمي الغالية.. أنا بخير، وكيف حال أبي.. قالوا إني سأخرج لا تخافوا عليّ، تعالجت من الجرح في صدري.. الأمريكان عالجوني وأنا الآن بصحة جيدة. لا تقلقوا عليّ، حاولت أن أكتب لكم لكن لم أستطع، لن يدعوني أخرج حتى يشفى الجرح تماماً.. أرجو رؤيتكم، أنا في سجن الصالحية للأحداث، سلامي إلى عمر والجميع).

ابنكم مسلم

إنها المرّة الأولى التي أتسلّم فيها رسالة من سجن للأحداث؟ ما دخل الأحداث بالمعتقلين؟ هل يمكن أن يعتقلو الصبيان أيضاً؟ ما الذي يمكن أن يرتكبه صبي بهذا العمر؟ وما هو الجرح الذي تحدث عنه؟ ولماذا يصرّ الأمريكان على علاجه؟

تتجمّع الأسئلة فوق أصابعي، وعبثاً أحاول إيجاد التفسير لها.. وأقرر أن أول رسالة أقوم بإيصالها هي رسالته حين نذهب إلى سامراء)، أستمر بقراءة بقية الرسائل وأصل إلى الأخيرة.

(أرجو إيصال الرسالة إلى أبي بأسرع وقت لأنه لا يعرف عني شيئاً).

أقلّب الرسالة.. وأجدها فارغة إلا من الحقول المخصصة للمعلومات الشخصية.

الاسم: شعيب زاهي فرج.

العمر: 26

تاريخ الاعتقال ومكان الاعتقال وعنوان المرسل إليه.

كل شيء مدوّن.. إلا محتوى الرسالة الذي يحتوي هذه

الجملة المقتضبة فقط؟ ماذا ساقول لأهله حين يسألونني عن محتوى الرسالة؟ أعيد قراءتها من جديد وأحاول أن أكوّن معلومات إضافية أقتطفها وأصيغها على شكل رسالة.. سأقول له إنهم حوّلوه الآن إلى معتقل (بوكا) بعدما كان في (أبو غريب)، هكذا يفعلون مع أكثر السجناء، ولا بدّ أنه حدث معه أيضاً خصوصاً أن فترة اعتقاله تتجاوز الستة أشهر.. وسأضيف لهم إنه بخير ويسلم عليهم جميعاً.. لكنني أخشى أن يسألوني: كيف عرفت ذلك والرسالة فارغة؟

تدخل خالتي تحمل لي القهوة التي جاءت في وقتها:

- شكراً جئت في وقتك

كنت أفكر في حل لمشكلة واجهتني في إحدى الرسائل فوصلت مع القهوة!

تبتسم وهي تجلس لصقي على الأرض:

- أية مشكلة؟
- إنها رسالة من أحد المعتقلين لم يكتب فيها شيئاً.. ويقول لي أرجو إيصال الرسالة بسرعة إلى أبي لأنه لا يعرف عني شيئاً منذ أكثر من ستة أشهر؟
- حقاً؟ ستة أشهر؟ أية أفكار سوداء راودت أهله خلال هذه الفترة؟ أي حزن أسود؟ لو يدري وجع الأمهات والآباء كان سيملأ الرسالة.. وكان سيكتب له حتى على ورق الكلينكس
- نعم الكثير من المعتقلين فعلوا ذلك.. منهم من كتب على ورق علب السجائر الفارغة، والبعض الآخر كتب على ورق الكلينكس.. لكن لم تخبريني ما الذي سأقوله لوالده؟
- إنها حيرة.. اسمعي.. ستقولين له الحقيقة.. عملك هو إيصال الرسائل وليس تأليفها
- فعلاً
- ستسلمينه الرسالة وتقولين له هذه رسالة من ابنك اقرأها واكتب له جواباً وتمضين

- معك حق.. هذا ما سأفعله

تنهض.. وقبل أن تخرج من الغرفة تقول لي وهي تتطلع إلى الرسائل المتناثرة:

- إذا بقيت هكذا مع كل رسالة فلن تنتهي حتى صباح الغد
- انتظري.. قولي لي بصراحة.. ألا تجدين الأب عريساً مناسباً لك؟

تنتابها نوبة عارمة من الضحك حتى يحمر وجهها الخمسيني ويرتوي بياضه بحمرة تداهمها عند كل انفعال. أنهض وأقول لها بصوت جاد:

- سأقايضه على الرسالة. ساقول له لن أمنحك الرسالة ما لم تخطب خالتي، وسأطمئنه بأن لديك راتب.. ما رايك؟ من الواضح أن أم المعتقل متوفية لأنه لم يسلم عليها ولم يعنون الرسالة باسمها

تمضي متعثرة بضحكتها التي لم تتمكن من كتمانها وهي تغلق الباب وراءها، وأسمع صوتها الذي يردّد بشيء من الخوف:

- ضحكة خير يا ربي

أضع الرسائل في المظروف الكبير، أطفئ المدفأة النفطية خوفاً من الاختناق برائحتها... لا أحلم بميتة انهزامية مثل هذه... طالما كنت أحلم بميتة احتفائية يشهد لها الكون.. شيء يشبه العرس.. يشبه الثورة.. يشبه الولادة.. ضوء الفانوس يشعرني بالدفء.. يؤنس وحشة الظلمة.. هكذا ملأت فراغ روحي بعد رحيلك.. اقترحت لنفسي طقوساً في النسيان.. ضوء فانوس وكتاب.. ومنفضة تجمع فيها رماد قلبك..

كان نيرودا صديقاً حميماً.. ومحرّضاً (ميت هو ذاك الذي يصبح عبداً لعاداته، مكرراً نفسه كل يوم. ذاك الذي لا يغيّر ماركة ملابسه ولا طريق ذهابه إلى العمل ولا لون نظاراته عند المغيب.

ميت هو ذاك الذي يفضّل الأسود والأبيض والنقاط على الحروف بدلاً من سرب غامض من الانفعالات الجارفة، تلك

التي تجعل العينين تبرقان، وتحوّل التثاؤب ابتسامة، وتعلّم القلب الخفقان أمام جنون المشاعر. ميت هو ذاك الذي لا يقلب الطاولة ولا يسمح لنفسه ولو لمرة واحدة في حياته بالهرب من النصائح المنطقية. ذاك الذي لا يسافر ولا يقرأ ولا يصغي إلى الموسيقى، ذاك الذي لا يقبل مساعدة أحد ويمضي نهاراته متذمراً من سوء حظه أو من استمرار هطول المطر. ميت هو من يتخلى عن مشروع قبل أن يهم به، ميت من يخشى أن يطرح الأسئلة حول المواضيع التي يجهلها، ومن لا يجيب عندما يُسأل عن أمر يعرفه. ميتٌ من يجتنب الشغف ولا يجازف باليقين في سبيل اللايقين من أجل أن يطارد أحد أحلامه).

كنت أعرف أنني إذا ما وضعت نفسي بمقياس نيرودا فسأكون ميتاً آخر في سجل الأحياء.. لذا كنت أضع كل ليلة تحريضه في فنجان صمتي.. وأرتشفه.. مع مرارة قهوتي دون أية زوابع تذكر.. هكذا... تتضامن القهوة مع سواد الليل.. يتواطآن معاً ضد بصيص الفانوس الناعس.. الظلمة أقوى.. هذا ما يقوله الضوء وهو يتلفظ آخر قطرات النفط.. قبل أن يغيب في بيته الزجاجي.. وأندسّ تحت ورود غطائي.. بانتظار الشمس.

صوت خالتي يأتي مباغتاً للصمت..

- يبدو أن الكهرباء لن تأتي حتى الغد

أغمض عيني تحت غطائي الملون بالورد.. الكثير من الورد.. أدسّ رأسي تحت دفئه وترف زرقته التي تشبه رائحة أمي... وصدر أمي.. وحبات المطر تطرق بأصابعها على نافذتي لتقول لي: (تصبحين على شمس) بصوت.. يشبه تماماً... صوت أمي.

عند خط الاستواء

«على قمة الجبل أقف..
عند حافة النسيان..
والذكرى..
متى أولد من جديد.. متى أنسى؟
تراني شفيت من ذكراه ولم أشف من إدماني
على التذكّر؟».

انقطع المطر... لكن الشمس ما تزال غافية في أحضان الغيم.. الروزنامة المعلقة فوق رأسي تنتظر أصابعي لتقتطف من صفحاتها يوماً آخر أضيفه لحسابي بنشوة انتصار لم تنالها كل الهزائم..

يوم آخر.. أتنفس فيه.. أصافح جسدي الذي صمد بوجه الزلازل.. زلازل الحب.. وزلازل الحرب.. اجتزت معه الكثير من الأمراض التي أهالتها علينا الحروب مع البارود..

خالتي تستيقظ مع آذان الفجر.. وتبقى مستيقظة حتى تحضر الإفطار وتهيئ للغداء قبل ذهابها إلى مدرستها التي تخرّج فيها مئات الطلبة الذين يحيطونها بمحبتهم واحترامهم حيثما رأوها...

أستيقظ أنا بعدها بساعة إن لم تلحّ على إيقاظي للصلاة أو نغفو معاً حتى توقظنا ساعتي النائمة قرب رأسي وهي تجانب صورتي أنا وأمي وأبي في الحديقة.. على الأرجوحة التي رمى بها الزمن فوق السطح.. مع الأشياء المهملة التي لا قيمة لها..

كنت أرى في إهمالها قتلاً آخر لذكرى أمي وأبي.. لكن خالتي كانت تصرّ على وجوب الابتعاد عن كل ما يمتّ للموتى بصلة.. لأن البقاء دوماً للحياة.. لهذا لم تبقِ شيئاً من أغراض أمي وملابسها وحتى عطورها.. لم تحتفظ بشيء سوى ببعض الحلي الذهبية التي تدخرها لمستقبلي الافتراضي..

كانت فلسفتها قاسية.. لكني اكتشفت أنني بها تمكنت من السير فوق الأرض.. تعلمت ألاّ أقف عند جثة.. أو موت..

- كم من الأحباب رحلوا عنا باكراً؟

سألتها ذات يأس.. وأنا أقلّب ألبوم الصور.

- لكننا ما زلنا أحياء.. وهنالك الكثيرون غيرنا.. لو أعدت قراءة التاريخ لوجدت أن الولادات كانت تفوق الوفيات في الحروب..، ألم تسمعي (د. ناهد) كيف كانت تتحدث باندهاش عن الولادات الحديثة في المستشفى التي تعمل فيها؟ قالت إن اكثرهم توائم وصبيان

يهمس صوتي في سري:

- نعم.. البقاء للحياة.. حتى وإن كانت ولاداتنا مشوّهة.. وصبياننا معاقين منذ الولادة

لم أشأ إفساد بهجتها وأخبرها عن آخر الإحصائيات التي تشير إلى الأعداد المتزايدة من الأطفال المعاقين بسبب الحروب ومستحضرات تجميلها. فنجان قهوة سريع أرتشفه ببقايا مرارة فنجان الليل.. تدخل خالتي:

- وصل السائق
- سأخرج إليه الآن، وأنتِ لِمَ لَمْ تستبدلي ثيابك؟ ستتأخرين عن المدرسة
- لن أذهب اليوم.. أخذت إجازة لأنظّف الثلاجة والمجمّدة فقد فسد الكثير من الطعام بسبب انقطاع الكهرباء.. تفتح المجمّدة وتخرج الأكياس بأسى. كل المؤونة التي جمعناها في الصيف.. السمك الذي تحبين.. وكبّة الموصل التي عملتها لك خصيصاً أم دعاء.. كل شيء فسد في هذا البلد.
- ألا يبدو لك ذلك شعراً؟

ترفع رأسها من المجمّدة التي فقدت كل برودتها:

- وهل تجدين ما نحن فيه شاعرياً؟

منبّه السيارة يعلو..

- سأذهب الآن ربما أتأخر قليلاً.. لا تقلقي
- يجب أن تعودي قبل مغيب الشمس
- حاضر

- قولي له ألاّ يستمر بالضغط على منبّه السيارة كثيراً، لدينا جيران لا نريد إفساد نومهم وإيقاظ ألسنتهم
- حاضر

أخرج للسائق.. السيارة مغطاة بالطين.. مطر البارحة كان غزيراً لدرجة أن المياه تجمّعت عن الفروع والمنعطفات التي بدأنا نجتازها بصعوبة.. مبنى الجمعية ما زال رطباً ومبتلاً من الخارج..علم الهلال الأحمر يرفرف بجانب العلم العراقي.. يتسرّب الكثير من الضوء إلى قلبي وأنا أراه يرفرف بنجماته الثلاث... حمرته تخيفني.. وسواده يعلّقني فوق نجماته ويدسّني في قلب البياض.. رائحة الشاي تداهم أنفي.. أحب أن أشم عطره وأكره أن أتذوق طعمه الحيادي.. غرفتي مسدلة الستائر.. الظلمة والبرد يغلّفان كل شيء.. أضع حقيبتي على المكتب وأمضي بسرعه لأفتح الستائر وأزيح الظلمة عن النوافذ..

يدخل معمّر المسؤول الإعلامي في الجمعية الملاصق لمكتبي والمقابل لمكتب أحمد مسؤول النازحين.

- طالما قلت إنك شاعرة

أستدير نحوه وأشير إلى أقداح الشاي المصفوفة على مكتبه وفيها بقايا من الشاي وبعض قطع الكعك المتناثرة حولها.

- وأنت أيضاً شاعر

ضحكته تتعالى وهو يحمل الأقداح ويذهب بها إلى المطبخ.

يرتفع صوته من المطبخ:

- متى يجدون عاملة خدمة تريحنا من هذا العناء؟

يدخل وهو ينشف يده بفوطة صغيرة يخرجها من أحد الأدراج:

- صباح الخير

أخرج الرسائل وأصفّها على المكتب.

- صباح الدموع
- رسائل جديدة؟

- كما ترى
- ستوزّعينها كلّها بنفسك؟ ألن يساعدك أحد المتطوعين؟
- حتماً.. سأضع في بريد كل قضاء ظرفاً فيه الرسائل، هكذا يصبح العمل أسرع، وقد أسلّمها بنفسي لأن البعض اعتذر عن المجيء هذا الأسبوع لظروف كثيرة، وكما تعلم لا يمكننا تأجيل الرسائل
- إذن ستخرجين هذا اليوم؟
- بالتأكيد.. لماذا تسأل؟
- كنت أريد أن استشيركِ في أمر
- تفضل
- لا.. ربما في وقت آخر
- معمّر؟
- حسناً.. لا تنظري إليّ بهذه الطريقة.. أتذكر المديرة التي كانت تتلذّذ في عقابي
- طيب
- كنت أريد أن تدلّيني على محل أشتري منه ملابس للأطفال بسعر ملائم. هجم الشتاء وزوجتي وضعت حديثاً كما تعلمين، في القرية لا توجد لدينا أسواق للملابس
- أعرف محلاً للألبسة المستعملة أسعاره مناسبة ويبيع بالتقسيط وبضاعته جيدة، كل جاراتنا تشتري منه، سأدلّك عليه
- ملابس مستعملة؟
- نعم إنها بضاعة رائجة في هذا الوقت
- كنت أتمنى لو نتسوّق معاً، أنا لا أفقه شيئاً في هذه المسائل

تشير إلى الرسائل:

- هذا ما يحول دون مرافقتي، لديّ الكثير من العمل هذا اليوم
- لدي فكرة أفضل، سأترك لك أمر التسوّق حين يسمح لك الوقت بذلك
- فكرة جيدة.. سأرتّب لك كل شيء، لكن بعد الرسائل إن شاء الله

يدخل أكرم مسؤول النازحين يحمل السجلات في يده ومعه ثلاثة رجال من البدو النازحين:

- تفضلوا (يقولها ويجلس أمام سجله الكبير)
- إننا عشرون عائلة تعيش في مركز الدروع وما زالت العوائل المهجّرة تتوافد.. معنا أطفال وجئنا لا نحمل شيئاً غير أرواحنا.. تهجّرنا من بيوتنا وسط الليل
- حسناً... غداً أزور مكانكم وأسجّل احتياجاتكم بعد عمل إحصائية، وهنالك سلة غذائية سنقوم بتوزيعها عليكم أيضاً فيها الكثير من المواد الغذائية حتى اللحم، غداً تصل الشاحنات من الإمارات

ينهض الرجلان بامتنان وهما يؤكدان على حضوره. يتنفس بصعوبة وهو يتنبه لوجودنا أمامه:

- عذراً.. صباح الخير
- صباح النور

يعود معمّر إلى مكتبه، يفتح درج مكتبه ويخرج ورقة يعطيها لأكرم:

- كتبت هذه القصيدة البارحة

يأخذها منه ويبدأ بقراءتها مع نفسه.. حالما ينتهي منها.. ينظر إلى زهرة المنشغلة بالرسائل ويعطيها إياها:

- إقرئيها... إنها موجعة

قبل أن تبدأ بقراءتها تدخل امرأة ومعها طفلان، تضع القصيدة في درج المكتب وتنهض لتحيّي المرأة:

- تفضلي.. أهلاً بك
- أشكرك.. أخبروني أني ربما أجد رسالة من زوجي لديكم.. قالوا إنكم تجلبون رسائل المعتقلين.. لم يبق باب إلا طرقته.. دفعت الكثير من الأموال للحصول على مقابلة ولم ننجح.. ها نحن

ندخل السنة الثالثة على اعتقاله.. ولا نعرف عنه شيئاً غير بعض الأخبار الواردة عن رفاق له في المعتقل..

يتجه الطفل نحوها.. مستغلاً انفعال أمه.. يعبث بأوراقها.. تسحبها منه بهدوء، يرتد قليلاً ثم يعاود اللعب بالأقلام... (تسأل أمه مقاطعة إياها):

- كم عمره؟

- خمسة أعوام

تمسكه من يده وتضعه على حجرها، بينما تحاول الأم أن تسحبه.. لكنها ترفض وتخرج له دفتراً صغيراً وقلماً أحمر، تقول له مداعبة:

- هيا.. هل تستطيع أن تكتب اسمك؟

يهزّ الصبي رأسه بالنفي. تبتسم وهي تقول لأمه:

- لا بدّ أنك تدلّلينه كثيراً؟

تهدأ أمه وهي تغيّر نبرة صوتها اليائسة:

- نعم... والده يحبه كثيراً..

- ثم إنه صبي؟

تبتسم الأم:

- نعم.. كلنا نحتفل بالصبيان أكثر من البنات، لكن أباه يحب شقيقته الكبرى أكثر.. هي الآن في المدرسة

يضيف الصبي:

- في الصف الأول

- وأنت.. متى تذهب إلى المدرسة؟

يبتسم ويختبئ خلف والدته..

- أرجو منك ألا تيأسي واستمعي لما سأقوله لك. ليس هنالك سبب لكل هذا الحزن.. اعتبري زوجك مسافراً وسيعود.. هكذا حدث للجميع.. يقضون فترة في المعتقل ثم يعودون. أما عن الرسائل

فكل الرسائل التي تردني أسلمها مباشرة إلى أصحابها.. لو كان زوجك قد أرسل رسالة كانت ستصلك حيثما تكونين دون أن تدفعي شيئاً.. وما دام لم يكتب لك فهذا يعني أن متطوعي الصليب لم يصلوا إليه لسبب أو لآخر، لكنهم سيصلونه حتماً.. تأملي خيراً..

- طيب هل يمكنني أن أكتب له رسالة الآن؟
- يمكنك.. ولكن هل تعرفين رقمه في المعتقل؟ وفي أي معتقل هو؟
- نعم إنه في معتقل (بادوش)
- لن أكذب عليك.. عمل الصليب والهلال الأحمر متلكئ هذه الأيام كثيراً. الرسائل التي ترسل تصل بعد أشهر.. لكنني أطمئنك إلى أن زوجك سيكون بخير...ثقي بي
- أنا أثق بك.. ويعلم الله أني ارتحت لك منذ أن رأيتك... أرجو أن نظل على تواصل.. هل تعطيني رقم هاتفك؟
- حتماً... يجب أن نبقى على تواصل

وتنهض المرأة بوجه مستبشر غير الذي دخلت به.. يصرّ الصبي على الاحتفاظ بالدفتر والقلم متجاهلاً تهديدات أمه له.. تفتح زهرة الدرج وتعطيه قطعة حلوى صغيرة..

- هذه لك.. وهذه لشقيقتك

يسارع الصبي لأخذها. تضحك المرأة.. يضحكان معاً.. وقبل أن يخرجا من الغرفة يضع الطفل الحلوى في فمه. يبادر معمّر:

- هل تصدّقين أني أوشكت على البكاء؟
- أنا، لا... ربما لأني اعتدت هذه المواقف، أصبح قلبي حجراً
- بل تحاولين أن تجعلي منه حجراً

ترفع رأسها نحوه بإصرار:

- لا!
- زهرة.. نحن نعمل معاً منذ أعوام.. أشعر أنك تتعمّدين أن تحيطي

نفسك بهالة من الغموض والجدية التي تمنع تواصل الآخرين معك وصدّهم إن حاولوا الاقتراب منك.. رأيتك كيف تعاملين الطفل بحنان.. ألا تحلمين بطفل مثله؟

يصعقني السؤال..! أية إجابة أسدّ بها الجرح الذي يحاول أن ينكأه دون أن يدري.. والسؤال رصاصة تطال قتيلها في كل الاتجاهات...

يخرج صوتي مرغماً:

- الطفل يحتاج إلى أرض ثابتة
- ونحن نحتاج إلى الطفل.. لنقاوم موتنا وفناءنا القادم وليكون استمراراً لنا
- لا تكن مثالياً يا معمّر، نحن سننتهي بموتنا.. ثم إن الطفل حياة كاملة.. وكيان يحتاج إلى الرعاية، ونحن هنا كما ترى لا نستطيع حماية أنفسنا.. ولا مقدساتنا ولا تأريخنا.. ولا حتى ذكرياتنا.. حتى موتانا نبشت قبورهم بعدما تحوّلت إلى ساحات معركة هي الأخرى.

يصمت متمعناً في كلماتها.. يشعر بالتواطؤ معها، لكنه لا يريدها أن تمضي في استسلامها :

- هل تتوقف الحياة إذن؟

تعاود تسجيل الأسماء في سجلاتها في محاولة منها لإنهاء الحديث:

- بل تستمر.. الزواج ليس كل شيء.. لم نسمع أن العوانس توقفت حياتهن
- لكنك لست عانس

تضحك وهي تضع السجل في الدرج وتحمل حقيبتها السوداء والمظروف الكبير متأهبة للخروج:

- أنا في الطريق إلى ذلك

يجيبها بابتسامته المعهودة:
- اعتني بنفسك
- في أمان الله

تخرج.. وفي يديها الرسائل.. وأنفاس المعتقلين.. وقلوب الأمهات المعلقة على حبل الانتظار.. وفي قلبها يحلّق صوت معمّر فوق أسئلته..... وجه طفل بلا ملامح يطاردها.. يصعد معها السيارة.. يعبث بالرسائل.. يدوس بقدميه الدقيقتين فوق أوراقها المرتبة... طفل يعلو صوته على أصوات السيارات.. ورائحة جسده البكر على رائحة الجثث المحترقة... تمتد يدها تحت سواد معطفها لتتلمس بطنها بحنان... تتحسّس نبض طفل يسخر من خواء رحمها.. يباغتها صوت السائق فيصمت الطفل في أعماق حلمها، تجرّ يدها بسرعة:
- يبدو أن الطريق مغلق.. سنسلك الجانب الآخر ولكنه ترابي وحتماً أصبح طينياً بعد أمطار البارحة
- ليس أمامنا حل آخر

التراب دوماً.. يدفن كل شيء.. الجسد والحلم. .وصوت طفل يوشك على البزوغ.. ساعة وأكثر كانت السيارة تعوم في التراب الذي تحوّل إلى طين بفعل الأمطار الغزيرة.. لولاها.. من يدري تحت أية غمامة رملية كانت ستلفّنا...

تستوقفنا نقطة تفتيش محاطة بالأكياس الرملية والأسلاك الشائكة بعد الانتهاء من الطريق الوعرة، لا يطول وقوفنا حتى يسمحوا لنا بالدخول دون أي سؤال.

تصعد السيارة جبلاً والتواءات ساحرة ونحن نطلّ على القرية الساكنة وسط الخضرة والمياه.. أسأل السائق باندهاش:
- يا لجمال هذا المكان.. هل أتيت إليه قبلاً؟
- نعم أتيت إليه مرة مع أصدقائي في رحلة صيد.. (الزويّه) من أجمل الأماكن وأهدئها

- سنسأل هؤلاء الشباب عن بعض الأسماء

يتوقف عند أحد المحال الصغيرة المبنية من قطع الخشب القديم وبعض قطع الكونكريت:

- مرحباً، لدينا رسائل لعدد من المعتقلين هنا

قبل أن يكمل يبادره أحد الشباب:

- يمكنني أن أصعد معكم وأدلّكم على أصحابها، أنا أعرف كل بيت في القرية

يرحب السائق به ويصعد الشاب خلفنا، تماماً في المكان الذي جلس فيه أحمد وربما بالنشوة ذاتها وهو يرسل ابتسامته إلى رفاقه الذين يرمقونه بإعجاب. أستعرض أمامه الأسماء فيدلّنا على الطريق الوعرة الممتدة بين بيوت الطين والبيوت الفارهة، أسأله عن سبب هذه الطفرة النوعية في الإعمار من بيوت طين إلى بيوت (دبل فاليوم)، فيجيبني بضحكة مكتومة:

- هنالك من باعوا بيوتهم في بغداد وجاؤوا بسبب خوفهم من أن يذهبوا ضحايا للطائفية، وآخرون استغلوا ما لديهم من ممتلكات الدولة من سيارات وأسلحة وقاموا ببيعها بحجة أن البلد تائه

أومئ له برأسي وينتهي الحديث أمام المنزل المنشود، ليس ثمة باب فعلي يمكننا أن نطرقه أو نستأذن للدخول إلى المنزل، فالمنزل عبارة عن فناء خارجي يقود إلى غرفة طويلة مفروشة بالسجاد اليدوي الذي اعتادت النساء القرويات على حياكته من بقايا القماش. تخرج إلينا امرأة مسنّة ملتفّة بالسواد، تطرد الدجاج من أمامنا وترحب بنا وهي تقودنا إلى الداخل. يخبرها الشاب عن مهمتنا فيسابق فرحها صوتها وهي تسألنا عن أبنائها الثلاثة:

- هل هم بخير؟ متى يخرجون؟ هل يمكنني زيارتهم؟

تربكني أسئلتها لأني أعرف أنني لا أمتلك جواباً ولا الحق في منحها أملاً قد يكون بعيداً.. أحاول أن أهدئ من بهجتها وأطلب منها أن نجلس في مكان ما. تعتذرعن ارتباكها الذي منعها من

القيام بواجب الضيافة، تقودنا وهي ترحب بنا بكلمات الترحيب التي يجيدها القرويون، ندخل غرفة طويلة بمفارش أرضية، أحمل حقيبتي وأجلس على الأرض. أخرج رسائل ولديها:

- مهدي كوان صبحي وسعدي كوان صبحي

أقرأ الأسماء أمامها فتفرح وهي تشدّ على يديّ وتؤكد أنهما ولديها وتقاطعني بلهفة:

- ونشمي أيضا؟ أين رسالته؟

- لم يرسل الرسالة بعد، لعلّها في الوجبة القادمة

- إبحثي من جديد، قد تكون وقعت هنا أو هناك أو اختلطت مع البقية

أعاود البحث بين الرسائل رغم تأكدي من عدم مرور هذا الاسم عليّ، ولكنني ألبّي لها رغبتها كي تتأكد بنفسها.

- كما ترين، بحثت في كل الأسماء الموجودة عندي ولا أثر لرسالته، ولكن كما قلت لك لا تيأسي، هنالك رسائل أخرى، وحال ورود رسالة نشمي سأجلبها لك، كوني مطمئنة

تبتلع خيبتها، تسألني عن محتوى الرسائل، يدخل إلينا رجل مسنّ ومعه شابان وامرأة تجر ثلاثة اطفال وآخر في حضنها، يسلّمون علينا ويبدأ أكبرهم بالحديث:

- نعتذر يا ابنتي عن تأخيرك ولكننا رأينا علم الهلال في السيارة وعرفنا أنكم تحملون رسائل المعتقلين، ووجدنا في مجيئكم فرصة للسؤال عن معتقلينا لعلّك تحملين رسائلهم، وهذه المرأة مع الأطفال جاءت تسأل عن زوجها وهو ابن عمي وهؤلاء أطفاله

تقاطعه المرأة التي جئت لأقرأ لها رسائل ولديها:

- دعها أولاً يا أبا حاتم تقرأ رسالتيّ سعدي ومهدي

- لا بأس، أعتذر عن المقاطعة، تفضلي يا ابنتي

وأبدأ لأقرأ لها الرسائل.. كلاهما بخير ويسلّمان على أمهما ويوصيانها بالدعاء والصلاة. أرفع رأسي وأنين أمهما اللحن الذي لا

مفرّ منه كلما قرأت رسالة ولد لأمه، حتى أكاد أجزم أنهن تعلمن هذا الأنين العراقي بالوراثة.. أحاول تهدئتها وكتابة رسالة لها:

- هيا سنكتب لهما رسالة، سأكتب كل ما تريدين قوله وسيصلٍ كلامك لهما، أعدك بهذا، قولي لهما من في العائلة ولدت صبياً، ومن ولدت أنثى، ومن تزوجت، ومن فاتها القطار

تضحك ويضحك الجميع.. أنتهي من كتابة الرسائل وأعود لأبحث عن رسائل أولاد أبا حاتم وزوج المرأة وشقيقيها ولا نجد سوى أحد أشقائها، أحاول طمأنتهم أنهم سيجدون من يريدون في الرسائل القادمة. وتبقى المرأة محبطة وهي تروي لي كيف أنهم اعتقلوا زوجها منذ أكثر من عامين:

- أخذوه في منتصف الليل بعدما كسروا الأبواب بقنابل صوتية كسرت الزجاج وأرعبتنا، رفسوا الباب كالثيران الهائجة في منتصف الليل وكنا نياماً، وحين صحوت وجدت الرشاش على رأسي والأضواء تتجه صوب عيني، لم أتمكن حتى من ارتداء حجابي.. انتزعوا زوجي من نومه ورموه على الأرض وكتفوه.. كان منظره مؤلماً وهم يضعون رأسه على الأرض ويصورونا بكاميراتهم

يقاطعها أبو حاتم محاولاً أن يوضح لها:

- المرأة ليست لها علاقة بالموضوع، وظيفتها جلب الرسائل من المعتقلين وإيصالها لهم فقط

- دعها أرجوك، فما تقوله مهم، والأطفال؟ هل رأوا ما حدث؟

- نعم، استيقظ الأطفال على أصوات القنابل الصوتية، ومن فرط ارتباكي لم أهرع لعبد الله حيث كان عمره شهراً واحداً، تركته يبكي في المهد

- ولماذا لم تذهبي إليه؟ هل منعك الأمريكان؟

- لا، بالعكس، كان أحدهم يصيح بي ويقول: (بيبي بيبي)، ولكني كنت خائفة منهم وتجمّدت في حينها..

- هل أخذوا منكم أموالاً أو عبثوا في البيت؟
- نعم.. أخذوا مبلغاً من المال كنا ندخره لشراء جرافه بمشاركة ابن عم لنا بعدما بعنا نصف قطعة أرض الحقل. كل شيء ذهب.. زوجي ومالي وإخوتي الذين كانوا يبيتون عندنا والجرافة أيضاً
- كل شيء سيعود إن شاء الله.. لا تيأسي
- مضت سنتان.. ولم يخرج أحد منهم.. وكلما سألنا الأمريكان يقولون سيخرج قريباً، وكلها أكاذيب
- وأين تجدون الأمريكان؟
- يأتون دائماً إلى منطقتنا.. يشترون من أرشد العباءات الإسلامية والكثير من الآيات القرآنية التي تعلق على الجدران، وينتهز الأقرباء فرصة وجودهم ليسألوهم عن المعتقلين، وكل مرة يكون الجواب نفسه
- ولماذا يشترون هذه الأشياء؟
- لا أدري.. هم يشترونها وأرشد سعيد لأنه يبيعها لهم بأضعاف الثمن، ربما يأخذونها هدايا لأهلهم

تقاطعنا المرأة العجوز:

- لو تدرين كيف دخلوا إلى بيتنا؟ لم يدخلوا من الباب بل قفزوا من سياج المنزل وسوروا المنزل، هبط قسم منهم من السطح ونزل إلى الداخل بعدما كسر القسم الآخر الأبواب.. (تبتسم بألم وهي تكمل) اعتقلوا أولادي وأخذوا من المطبخ أكبر قدر لدينا
- وماذا يصنعون به؟
- هذا ما نتساءل عنه دائماً، كانوا يضحكون بجنون وهم يحملونه، إنه قدر أعراسنا وعزاءاتنا. يا ابنتي هل يمكنك رؤية أولادي؟

أجيبها بابتسامة أحاول جعلها مطمئنة:

- زملائي في بغداد سيلتقون بهم حتماً، فهم يمرّون على كل المعتقلين وفي كل مكان ولا يهملوا أحداً أبداً.. كوني مطمئنة

تنهض المرأة والرجل وأنهض معهما.. كنت أتمنى أن يطول

الوقت لأعرف الوجه الآخر للأمريكي.. وهو بعيد عن أنظار العالم في قرية صغيرة.. نائية.. في بيت صغير يقتحم سكونه وسكينته بوحشيته المستترة تحت إنسانية زائفة. كنت أتمنى في تلك اللحظة أن تكون المرأة أمام محطة فضائية يسمعها العالم بأسره.. وليس أمام امرأة بلا حول ولا قوة.. امرأة لا تقدر أن تحرك حجراً.. أو توقف نزف جرح راعف.. أو تزرع الأمل في حدائق اليأس الشاسعة.

ننهض ونخرج مع الرجل وولديه بعد أن أطلب من أحد ولديه مرافقتنا ليدلنا إلى المنزل لأن الأول لا يستطيع إكمال المشوار معنا لارتباطه بموعد. ترافقنا المرأة إلى الخارج والعجوز وأكاد ألمح فتاتين تسترقّان النظر من الباب إلينا.. يلتف الأطفال حول سيارتنا وهم يهتفون: أمريكان أمريكان.. يصيح بنا أحدهم: مستر أريد كرة؟ يصيح الآخر: حلويات؟

تنقلب ابتسامتي إلى غضب وحزن، بينما توبخ العجوز الصبية وتطردهم من أمام سيارتنا وهي تهمّ بالخروج. أفكر في صياح الأطفال.. هم متعوّدون على الكرم الأمريكي في القرية..

رأيت مرة جندياً أمريكياً يرمي بكرات بيضاء إلى مجموعة من الأطفال كانوا يتجمعون على الرصيف... وأذكر أنهم زاروا الروضة المجاورة لمنزلنا ووزعوا الهدايا على الصغار. حينها كنت أنقل الخبر لخالتي بإعجاب.. ففاجأتني بغضبها الذي كاد أن يتحول إلى صراخ: أنت معجبة بالكرم الأمريكي إذن؟ أجّلي إعجابك قليلاً لتري ما الذي سيفعلونه بهؤلاء الأطفال حين يكبرون؟ أو إذهبي إلى المعتقلات التي تحملين الرسائل إليها وتدعين معرفتها واسألي السجناء عن معاملتهم لهم؟ عن احتقارهم للإنسان فينا وذكائهم في الوصول لكسره من الداخل والخارج أيضاً! لم أدافع عن رأيي حينها.. فقد كان الجدال عقيماً بيننا.. لم أكن معجبة بسخاء الأمريكان.. لكنني كنت أحكي لها تساؤلي الذي لم تفهمه لفرط غضبها...

***

كلما تقدمنا أكثر، توغلنا في الخضرة أكثر.. تلك الخضرة التي أحببتها ورأيتها في أحلامي.. تتآكلني الحسرة وأنا أكتشف هذه المساحات البكر من الجمال في الوقت الضائع! حيثما ذهبت يرافقنا الشاطئ في الجانب الآخر.. رائحة الحقول المغسولة بالمطر تبلل روحي المحشوة بغبار المدن وضجيجها الذي تعلم أن يخفت باكراً في زمن حظر التجوال..

الطريق أمامنا ما تزال طويلة... هذا ما يؤكده (حسن) الرجل الذي جاء يبحث عن ولده وأبناء أشقائه.. قال إن البيت في أعالي الجبل مما جعل السائق يتردد لولا إصراري.. نصف ساعة من الإيغال في الأزقة الطينية والبيوت الفارهة والسيارات الحديثة الطراز..

ألمح العديد من النساء يحملن المناجل متجهات نحو الحقول.. وأخريات يقدن البهائم ويسرن بها وسط الشارع مما يضطر السائق إلى الانتظار والاستدارة من جانب الرصيف الترابي ليجتازها.. النساء يرتدين النقاب.. ومن لم ترتدي نقابها الأسود تضع حجاباً ملوناً على أنفها وتجعل شكله كالنقاب.. ربما لأن شكلي كان مغايراً لم يعتادونه كنّ يرمقن سيارتنا بالكثير من التعجب ويشرن عليها علانية.. أقول للسائق:

- يخيفني جداً أن يظن بنا الآخرون أننا من الأمريكان أو معهم
- لا تخافي، لو كنا أمريكان لم نكن لنمشي في الشوارع بلا همرات ترافقنا أو سيارات تحرسنا أو حتى سلاح يحمينا.. إننا حتى لا نحمل معنا أي شيء للدفاع به عن أنفسنا، فكيف نكون من الأمريكان أو معهم
- نعم.. صحيح.. ولكنك رأيت إصرار الصبية
- إنهم مجرد أطفال وقد عوّدهم الأمريكان على هذا ليكسبوهم ويلمعوا صورتهم

إنها المرة الأولى التي أتفق فيها معه... نحن نختلف في أشياء كثيرة.. لكن حين تعلق الأمر بالأمريكان.. لا أدري.. ربما هي أمنيتي

في إيجاد شيء إيجابي فيه كلما رأيت تذمّره من أداء الواجب.. تصعد السيارة إلى جبل يخترقه شارع التوائي يصل إلى قمته الخضراء.. أتمنى أن يطول الطريق ولا نصل..

السيارة تمعن في الابتعاد عن بؤرة اليباس والذكرى والخيبة.. وأنا أمعن في الاقتراب من المجهول.. مجهول لا أعرف شكله.. لكنه يمنحني الكثير من البهجة.. ربما أنا أوشك على النسيان.. أنساه كلما ابتعدت أكثر عن مدينته وشوارعه وصورته التي أراها في كل وجه هناك.. كم أتمنى أن أسكن هنا.. أن أتخذ منزلاً صغيراً وأستبدل حياتي كلها.. الشارع ضيق ويزيد في ضيقه أنه شارع واحد للسيارات القادمة من الجبل والذاهبة إليه.. النسيان صعب.. النسيان ولادة أخرى بمخاض عسير.. لكني أشعر أني سأنجح.. سأتمكن من صناعة حياة أخرى أكثر هدوءاً وبساطة وأقل تعقيداً..

توغل السيارة في الخضرة الداكنة أكثر.... وأوغل أنا بالنسيان.. للحياة هنا طعم ولادة بكر وأيام لم تطأها رائحة الحريق.. والجثث المحترقة... سعادة كبيرة تتفجر في قلبي كلما ابتعدت عن بؤرة الذكرى.. هذه أمكنة تتبعثر فيها الذاكرة.. وتنطمر.. دون أن يلحظ تشظيك أحد.. يعلو صوت السائق وهو يتحدث مع حسن الذي رافقنا ليدلنا على البيت:

- إذا كانت الطريق طويلة يمكننا العودة لاحقاً بعد أن نوزع بقية الرسائل القريبة من هذه المنطقة

أقاطعه قبل أن يكمل:

- كل الرسائل ذمة في أعناقنا وينبغي تسليمها كلها اليوم لأننا غداً سنذهب إلى قضاء (الدور) وهناك لدينا الكثير من الرسائل المنتظرة ولا يعقل أننا سنجزيء العمل إلى يومين في مكان واحد

- نعم ولكننا تأخرنا، سيؤذن العصر بعد قليل والطريق في المساء لن تكون آمنة، ألا تخافين؟ أنا رجل وأخاف

تستفزني الطريقة التي يتحدث بها.. أتحول بنظري من خضرة الحقول نحو يباسه:

- المواقف هي التي تحدد من هو الرجل ومن هي المرأة.. نعم أنا أخاف مثلك لكنني أعرف أن هنالك واجباً وعلي أن أؤديه وكل ما سيحصل مقدّر من السماء سيطولك ولو كنت مختبئاً تحت إبط زوجتك

يرنّ الموبايل ويقطع الحديث، أعرف قبل أن أنظر إلى اسم المتصل أنها خالتي، تسألني أين وصلت، فأخبرها أنني ما زلت في الزوية).. لا تكف عن بث مخاوفها من كل شيء.. وأنا.. لا أكف عن النظر إلى الحقول والبيوت الصغيرة المترامية على جانب الطريق.. المكان مرتفع.. ونحن نزداد صعوداً شبكة الاتصالات تضعف والصوت يتقطع.. وضغطي بدأ ينخفض، أعرف هذا لأن سمعي بدأ يخفت.. يرتفع صوتي مقاطعاً مخاوف خالتي وأسئلتها التي لا تنتهي ووصايا الألف:

- سأبحث عن بيت للشراء هنا.. المكان رائع يا خالتي وسيعجبك.. لن تتعبي في إيجاد مدرسة، حتماً توجد هنا مدرسة

وأستدير بسؤالي نحو حسن:

- حتماً هنا مدرسة ثانوية

يؤكد لي بحرارة أن هنالك مدرستين ثانويتين إحداها للبنين والأخرى للبنات، ومدرستين ابتدائيتين أيضاً.. تسمع خالتي كلامه.. وأسألها:

- هل سمعتِ. هنالك مدرستان

تجيبني بضحكة لم تنجح في كتمانها:

- عن أي بيت وأية مدرسة تتحدثين؟

- خذي تكسي وتعالي.. إنه مكان خارج المكان.. خارج الزمن.. ثمة بحر..

(أستدرك سخرية السائق وربما حسن أيضاً) فأقول.. هنالك

نهر جميل وحقول خضراء.. وأناس بسطاء.. وعمل ونشاط وحيوية.. وأبقار أيضاً تزرع الألغام في الشوارع وتمشي غير آبهة..! لم أشك أبداً أن حسن والسائق لم يسمعا ضحكة خالتي الصائتة وهي تخترق المدى عبر الموبايل.. تسترد أنفاسها من الضحك الذي غاب عنها منذ زمن وتعود لتسألني:

- كفّي عن جنونك، متى تعودين؟ لقد تأخر الوقت كثيراً.. هل أنت في طريق العودة؟
- هنالك رسالة أخيرة ويجب أن نوصلها.. الأمكنة متباعدة وكل بيت في جهة بعيدة عن الأخرى.. هذا إضافة إلى أن الشارع الرئيسي كان مغلقاً واضطررنا لسلوك الشارع الترابي الذي تحول إلى مستنقع طيني هو الآخر مما ضاعف الوقت والمسافة.. نحن الآن في الطريق إلى بيت في أطراف الجبل.. لو ترين كم هي البيوت جميلة هنا.. خصوصاً تلك المطلة على الشاطئ
- زهرة كفّي عن التغزل بالبيوت، لقد تأخر الوقت كثيراً، وهنالك لغم انفجر في الشارع الرئيسي قبل قليل وبدأ الأمريكان كالعادة يطلقون النيران على الناس بشكل عشوائي وأغلق الطريق.. كيف ستدخلون؟
- لا أدري.. ولكن لا تقلقي سنسلك الترابي أيضاً.. لا بدّ من وجود ترابي في كل مكان
- لقد أغلقوا كل الطرق، عودي الآن قبل أن يحلّ المساء
- لا أستطيع، غداً لدينا رسائل في قضاء (الدور) ولن أعود إلى هنا، لا تقلقي.. الناس هنا طيبون جداً وسنجد حلاً لو تأخرنا..، أمامنا سيطرة الآن، سأغلق الهاتف وأتصل لاحقاً.. مع السلامة

في أعماقي.. أشكر السيطرة لأنها أنقذتني من إلحاح خالتي ومخاوفها ووصاياها.. تتوقف السيارة ويفتح السائق النافذة ليتحدث مع الضابط، الأسئلة ذاتها تتكرر:

- من أين جئتم؟ وإلى أين تذهبون؟

لا أدري حقاً موطن الذكاء والدهاء في هذين السؤالين؟ وما جدوى هذه الأسئلة أمام دهاء الدمار وهو يبتكر كل يوم طرقاً وأساليب تفوق حتى الخيال العلمي.. فمن السيارات المفخخة إلى البشر المفخخين والحيوانات المفخخة.. والأحزمة الناسفة..

نعبر السيطرة بسرعة.. بعد أن يمزح الضابط مع حسن.. وقبل أن نجتازها نشاهد إحدى اللافتات المخطوطة بخط اليد: احترم تحترم. تستوقفني غرابتها وسذاجتها ووقاحتها. من يجرؤ أن يتحدث عن الاحترام في بلد يُداس فيه الإنسان كل يوم وكل لحظة ولأتفه الأسباب! وجود السيطرة والشرطي بملابسه الزرقاء الهجينة يعكر صفو حلمي ويوشك على إيقاظي من نشوة حلمي الأخضر.. لولا أن الحقول ورائحة المطر أمسكت بحلمي وأبقته يدور في كوكبها الأخضر.. يشير حسن إلى أحد المنعطفات:

- من هذا الطريق.. سيلاقينا البيت

أشعر بالأسف لأننا لن نستمر في الإيغال أكثر.. ولن أحظى بفرصة اكتشاف المكان أكثر.. لا يطول سيرنا حتى يلاقينا البيت المتوحد على طرف الجبل.. بلا سياج.. أو جار.. بيت لا يحدّه عن النهر شيء.. فهو يلاصق حافة الجبل من الجانب الآخر. ورود النرجس التي أحبها تنتشر بشكل عشوائي في المدخل.. المطر توقف إلا عن رذاذ خفيف يغسل الهواء من شوائب حرب لم تضع أوزارها بعد..

يا إلهي.. كم أحب زهور النرجس هذه؟ بياضها يدهشني وصفرة قلبها تضعني في قلب شمس باردة تكوي ذاكرتي كل يوم بالغياب.. لو أنهم لم يزرعوا النرجس.. ربما كنت سأكون أكثر رسمية.. ربما كنت سأحافظ على وجهي وملامحي من السقوط..

تقودني خطواتي نحو الفناء الخلفي المطل على النهر.. أصاب بالغثيان وأنا أرى النهر من تحتي.. على قمة الجبل أقف.. عند حافة

النسيان.. والذكرى.. متى أحيا من جديد.. متى أنسى؟ تراني شفيت من ذكراه ولم أشف من إدماني على التذكّر؟ هل هي الساديّة التي تجعلني أنكأ ذاكرتي كلما اقتربت من النسيان..

كلما أوشكت على رمي وجهه ودفن صوته ونسيان كلماته التي أمطرها في سمائي.. وأمطرته بالغياب..! يلفحني الهواء البارد.. وخلفي تعلو أصوات الترحيب وصوت حسن وهو يتحدث لأصحاب البيت عنّا..

أنحني على زهور النرجس البيضاء.. أقطف واحدة وألثمها.. تسقط حبة ندى على راحتي.. ثمة تواطؤعجيب مع هذا النوع من الزهور..

كنت في صغري أسرقه من حديقة جارتنا أم صهيب.. أتسلل إلى حديقتهم.. وأقطف كل ما تقع عليه يدي من زهور النرجس.. وحينها كانت تستحي أن تشكوني لخالتي لأنها مدرّسة ابنتها.. فتكتفي بنصحي.. يا له من عطر قاس.. يتسلل إلى دهاليز الذاكرة.. ويوقظ أشباح موتاها وأحيائها.. أشباح أيام خاوية.. ووسائد بيضاء.. وتكات ساعة لم تخرج خارج متن رتابتها أو تحتج على دورانها المقيت في محيط زمن لم يعرف إلا لحناً واحداً.. هذا ما وشوشته زهرة النرجس.. وهي تلثم ذاكرتي وترقيها ضد النسيان..

أنهض وأنا أخبئ الزهرة في سواد حقيبتي.. تجرني خطواتي نحو الداخل.. أبو محمد السائق يستمر بجلوسه في السيارة، يحاول إشعاري بتأخر الوقت واستعجالي أيضاً.. يخرج حسن ليقودني إلى الداخل مع امرأتين وشاب يرحبون بي.. أدخل ومثل كل مرة.. الأسئلة ذاتها تنهال عليّ.

- (متى يخرج)؟
- (هل يعاملونه جيداً)؟
- (هل يمكننا أن نراه)؟
- هل.....

والأجوبة ذاتها تندرج أمامهم.. لكني أشعر بسعادة خفية.. أنا في مكان آخر.. وبين وجوه أخرى.. وأحزان أخرى.. الرجل هو زوج المرأتين.. والشاب ابن إحداهن.. أسأل زوجته الأولى:

- هل تتمنين خروجه حقاً؟

تجيبني بلهفة:

- وكيف لا؟ أنا أدعو الله ليلاً ونهاراً

- ولكنه تزوج أخرى

تبتسم.. وزوجته الثانية تبتسم أيضاً.. كلاهما في العمر نفسه تقريباً ولا أكاد أن أميّز بينهما.. إنها قريبتي أيضاً.. نحن من العشيرة نفسها.. ولا يهم إن تزوج بأخرى..

ثمة لوعة في صوتها لم تنجح في كتمانها.. طالما كنت أشعر بأن المرأة مظلومة.. في عطائها.. في حبها.. في كتمانها لأحزانها.. تسألني زوجته الأخرى:

- وأنت؟ لماذا لست متزوجة حتى الآن؟

أضحك.. لماذا أضحك؟ ربما لأني كلما أردت البكاء.. أضيع الدرب إليه فألجأ لفخ الضحك لأسقط الآخرين فيه.. لماذا لم أتزوج؟ لم أسأل نفسي يوماً هذا السؤال.. لكن خالتي كانت تسألني إياه دوماً كلما رفضت عريساً حتى قبل أن ألقاه.. لا أعرف الجواب.. لا أدري.. هذه هي المرة الثانية التي يضع أحدهم إبهامه فوق الجرح..! وقبلها سألني معمّر.. عمّا إذا كنت أحلم بطفل.. والآن تسألني هذه المرأة عما إذا كنت أحلم برجل؟ لماذا لا يصدقون أني لم أعد أعرف كيف أحلم؟ أتعلق بالإجابات الخاوية المعلبة وأجيبها:

- النصيب لم يحكم بعد

تتواطأ المرأتان مع عبارتي التي تحمل بين حروفها أكثر من معنى للخيبة والانتظار العقيم.. انتظار لم أقف في محطاته ذات يوم..

- لا تيأسي أنت جميلة وما زلت صغيرة.. لو تظلين هنا بعض الوقت سيخطبك الكَثير، صدقيني..

تقول هذا وتدير وجهها نحو ضرّتها أم هيلان:

- ألم تتزوج الست هدى من ياسر البو سعدي؟ رغم أنها كانت ترفضه وتقسو عليه لكنه في النهاية أحضرالشيخ إلى والدها، وكما تعرفين شيخ حمد له كلمته مما أجبر والدها وأجبرها على القبول بياسر رغم أنه لم يتخرج من الابتدائية وهي مدرّسة في الثانوية..!

هكذا إذن... يشتري الشيوخ مصائر النساء.. وتقلب الموازين رأساً على عقب على يد من يدّعون الحكمة ويتحكمون بالمصائر.. مصائر لن تغيرها الشهادات ولا الكتب بل ستزيد أصحابها تعاسة وخيبة..

مصائر يقرّها مجلس الجهلاء.. لبيع المرأة بصكوك موت مؤجل يحمل عنوان الزواج.. معها حق خالتي.. إنه ليس زمن الكتب والشعر.. إنه زمن مضبب بالخرافة.. إنه زمن المال الذي يشتري كل شيء حتى المصائر.. سأشكرها لأنها أخرجت فولكنر وتولستوي ونيرودا من رأسي ورمت بهم في تنور الجيران ذات صباح أرادته بداية لحياة جديدة... أصدقها الآن.. بأني كنت سـأنكسر لو استسلمت للشعر وكلام الكتب وهراء الفلاسفة..

يصرخ طفل أم سبهان فتضعه في حضنها وهي تكمل حديثها وتلقمه صدرها بلا مبالاة بوجودي.. أراها كيف تخرج ثديها وتضعه في فم طفلها.. وتعاود الحديث معي:

- كم عمرك؟

هذه المرّة.. أضحك من قلبي..

- لماذا هل ستبحثين عن عريس لي؟

تضحكان معاً.. وتقطع ضحكها ضرّتها أم هيلان وهي تطلب منها أن تتركني وشأني لأني جئت لأمر الرسائل فقط بينما تصر أم سبهان على أن تقدم خدماتها المجانية:

- والله أنتِ دخلتِ قلبي منذ اللحظة الأولى.. وأتمنى لو تكوني هنا معنا في القرية.. ستحبين العيش فيها.. الكثير من (الحضريات) تزوجن هنا وأحببن العيش هنا
- طيب أليس لياسر البو سعدي أخ؟

تنفجران بالضحك.. وأضحك أيضاً..

الرسائل في الحقيبة تناديني لأنهض وأنهي فصل الضحك الجميل الذي أزاح الكثير من الصدأ عن قلبي.... أسمع صوت أبو محمد السائق وقد نزل من السيارة وهو يتحدث مع حسن والشاب الذي استقبلنا عند المدخل ويقول لهما إن الطريق طويل وليس آمناً وإن الشارع الرئيسي مغلق.. والتفاصيل ذاتها التي يتداولها الجميع حيثما حلّوا..

أكتب رداً لرسالة حسن الهيلان، المعتقل الذي جلست مع نسائه أدوّن له اشتياقهما له وتفاصيلهما التي لا تصلح لأن تدوّن على ورقة تحمل علامة الهلال الأحمر.. لكن.. مع الشوق.. كل شيء ممكن.. وهذه تجاوزات أعتبرها من صميم العمل الإنساني إن لم تكن العمل الإنساني الرئيسي في العمل..

ترافقني المرأتان إلى الخارج.. وأتملص من إلحاحهما بالمبيت والغداء لديهما بصعوبة.. وقبل أن أركب في السيارة تلاحقني أم سبهان بشقرتها القروية المختبئة خلف النقاب:
- يا رب تجدون الطريق مغلقاً وتعودون للمبيت هنا

فأجيبها وأنا أصعد السيارة:
- من أين يطير دعاؤك نحو السماء وأنت تتلفلفين بهذا السواد؟

تعود ضحكتها لتخترق السواد.. أودّعها وأودّع حسن الذي لم يأتِ معنا لأن بيته قريب من المكان الذي ننشد، فهو يقع في الجهة المقابلة.. أودّعهم وتمضي السيارة.. لا أشعر بوجود أبو محمد.. ربما لأني اعتدت أن اتجاهله حد إعدامه من شاشة الوجود..

واعتباره جزءاً من أجزاء السيارة..! أعرف بأني لا أروقه أبداً.. وربما كان يكرهني أيضاً.. ويعتبرني منفلتة لأمارس هذا العمل.. ولأصعد مع رجل غريب مهما كانت مسميات هذا الصعود.. إنه فرد آخر من القطيع.. ربما لهذا.. عبرت خمسة وعشرون عاماً من عمري دون أن أفكر بشكل حقيقي وجاد بالزواج..

أعرف أني موهومة.. مهما حاولت ادعاء الصحو.. أعرف أني أطارد خياله في كل رجل يضعه القدر أمامي.. أحاول أن أصنع من الآخرين ظلاً له.. وأتشبث بكل صوت يحمل تلك اللهجة القروية.. لكنته الخاصة.. ولون جلده.. وقامته التي لم يصلها أحد.. كما أعرف تماماً.. أنه الفشل بعينه..

نصل البيت بسرعة.. ولا نحتاج لسؤال أحد، فهو مميّز لوجود سيارة نقل بيضاء.. إضافة إلى أنه غير مسيّج.. تستقبلنا عند المدخل لافتة خشبية صغيرة مكتوبة بخط يد بدائي: د. عبد الله. إنه طبيب القرية.. هكذا أخبرنا حسن حين قرأنا له اسم شقيقه المعتقل.. قال إنه شقيق طبيب القرية الذي يعرفه الجميع.

كنت متشوّقة لأدخل منزل طبيب.. من القرية.. استقبلنا شابان بملامح متشابهة.. ننزل من السيارة... يسلّمان علينا.. ويقوداننا إلى الداخل.. لا شيء يختلف عن المنازل التي زرتها قبلاً.. الدجاج والأفراخ يجولون في الحديقة وأمام المدخل.. ثمة إلفة دافئة تتسلل إلى روحي وتمنحني الشعور بالأمان.. والسكينة.. وفي الجانب الأيمن من الفناء الخلفي أشاهد امرأة تشجر الحطب في تنّور الطين..

تمسك بيديها خشبة تحرك بها الحطب نصف المحترق داخل التنّور.. وتغمرني الرائحة بمزيد من الدفء والطمأنينة.. إنها العروق التي تحنّ إلى رائحة الأرض.. إنه النسغ الذي عاد ليرتوي من منبعه الأصلي... ويرمي بقشوره مسترداً لون جلده... وصوته النقي الخالي من حشرجة الحروب.. ودمارها المتغلغل في العروق..

تلتفت المرأة إلينا.. تنفض يدها وتأتي وهي تفك الحزام

الذي تشدّه على خصرها.. أكثر نساء القرية يفعلن هذا.. تفكّ اللثام عن وجهها وترحب بنا.. يطلّ وجهها ببياض ناصع.. وعينين بلون العشب.. أندهش لجمالها المختبئ خلف ملابس العمل والحذاء البلاستيكي.. ورائحة الدخان التي تفوح منها.. يركض نحوها طفلها ويتعثر بالأرض فيسقط قبل أن يصلها.. تحتضنه وتحمله مستمرة بالترحيب بنا.. أفكر لو كانت في المدينة.. كانت ستبهر الجميع.. كانت ستكون شيئاً آخر.. ربما.. طبيبة.. أو معلمة.. أو رسامة.. أو شيئاً آخر.. لكنها حتماً.. لن تكون بهذا الدفء.. والطيبة.. والنقاء الذي يغسل صوتها وملامحها..

ندخل إلى غرفة الضيوف والتي يسمونها (الربعة).. يجلس أمامي طفلان بعمرين متقاربين وكأنهما توأمين.. بالكاد يتخطيان خطواتهما الأولى.. العيون الزرقاء ذاتها.. الشقرة والبشرة البيضاء... لا يستغربان وجودنا الغريب في بيتهم.. يقترب أحدهما مني وبالكاد يمشي.. يسقط من جديد.. وبحركة لا إرادية أجدني أهرع إليه وأحمله من الأرض.. يسارع أبوه لأخذه مني وإخراجه من الغرفة.. ولكني أتمسك به.. أتمسك كثيراً بجسده الغضّ وهو يلتصق بأحضاني.. ينشغل الأب مع السائق بتفاصيل الطريق المتعب.. وأنشغل بزرقة عينيه وهي تذرف الدمع.. عيناه تزدادان زرقة كلما أمعن في البكاء.. وأرتبك..! أحاول أن أجد شيئاً أسكته به.. أفتح حقيبتي السوداء بأمل إيجاد شيء أسكت به بكاءه.. وأشهق بالفرح وأنا أجد علبة الحلويات التي أعطتني إياها زوجة أحد المعتقلين. أخرجها إليه وأفتحها وأعطيه منها.. يكفّ عن البكاء.. ويتطلع إليّ باستغراب.. يترك يدي ويمد يده إلى العلبة كلها.. أضحك.. فينبّهه والده ويحاول من جديد أخذه مني.. وألحّ عليه بتركه معي.. يلعب بالحلوى.. أفتح له أحدها.. يضعها في فمه ويبتسم لي.. تسقط الدمعة المعلقة في عينيه فوق ضحكته الملائكية..

يا إلهي.. لماذا أنا سعيدة إلى هذا الحد بضحكته.. وبوجوده

في حضني..؟ ثمة إلفة مدهشة تسري في عروقي وأنا أتلمس وجهه.. وأشاكس أصابعه الصغيرة بيدي.. أسأل والده عن اسمه فيجيبني:
- بكر

وأداعبه: بكوري.. بكوري.. لا يأبه لي.. ويستمر باللعب بعلبة الحلويات.. حتى يحملها وينهض من حضني.. كنت أرغب ببقائه أكثر.. بالتشبث به.. لكنه انفلت من بين أصابعي.. كالفرح.. كالحب.. ككل الأشياء التي تمنيت أن تدوم.. ورحلت.. أستدرك حزني وأخرج الرسالة التي جئت لأجلها.. أعطيها لوالد بكر د. عبد الله. يقرأها.. والأسئلة ذاتها يكررها.. هل التقيتموه؟ هل تحدث معكم؟ وهل.... والأجوبة ذاتها أيضاً..

أعطيه الأوراق الخاصة ليملأها ويكتب له رسالة. أتركه يكتب الرسالة.. تدخل علينا امرأة خمسينية.. تحمل العيون ذاتها.. تحيينا بابتسامة أشعرتني بإلفة وراحة نفسية كبيرة.. وكأنني أعرفها.. وكأنني التقيتها قبلاً.. تجد ملامحها الإلفة في نفسي كثيراً.. تجلس بجانبي وتسألني عن ابنها راشد.. أحاول طمأنتها.. ترتاح لحديثي.. وأرتاح لملامحها وصوتها أكثر..

يدخل إلينا صبيان يحملان (صينية) كبيرة يتقابلان عليها من الجهتين وصبي ثالث يسبقهما لفرش غطاء على الأرض خاص بالطعام، أندهش.. ويعقد لساني أنا والسائق الذي يحاول أن يقنعهما بأننا يجب أن نغادر مبكراً للوصول لأن الطريق طويل وليس آمناً.. ولكن عبثاً نحاول التملص منهما وقد وضعا الطعام أمامنا.. تطلب مني المرأة أن أذهب معها للغداء مع النساء في الغرفة الأخرى.. لا أقاوم طلبها ورائحة طعامهم الشهي.. أسير معها إلى داخل المنزل من الجهة الأخرى.. إنه الوجه الحقيقي له.. أرى بكر يسبقني إلى المائدة المفروشة والمهيأة لاستقبالنا.. صحنان كبيران من الثريد وفوقهما الكثير من اللحم.. أعرف هذه الأكلة.. إنها (الهبيط) وهي الأكلة الخاصة بالترحيب بالضيوف.. خالتي أيضاً ماهرة في طبخها لكنها تعمل الرز بدل الثريد..

قبل أن أجلس أطلب منها أن تنادي الجميع لنتغدى معاً... تفرح لطلبي وتدعوني للجلوس أولاً.. تأتي أم بكر تحمل إبريق ماء ومنشفة على كتفيها ومغسلة يدوية لأغسل يدي. أشعر بالضيق وأنا أسبّب لهم كل هذا التعب. أهمس لفرحة التي عرفت اسمها حين نادتها أم بكر:

- لقد أتعبناكم؟ لو كنت أعرف هذا كنت سأرسل الرسالة مع أحد أبناء القرية بدلاً من مجيئنا الذي سبّب لكم كل هذا التعب

تقاطعني بانفعال:

- ماذا تقولين؟ هذا واجبنا تجاه كل من يأتي إلى القرية.. وأنتم ضيوفنا.. هذا الكلام عيب، استريحي وسمّي باسم الله

أغسل يديّ.. وقبل أن نبدأ أذكّرها برغبتي برؤية الجميع. تناديهم بلهجتها القروية الجميلة.. فتأتي أم بكر وقد بدّلت ثيابها وازدادت جمالاً وسحراً... تدخل معها فتاتان بنفس عمرها العشريني تقريباً إحداهما بيضاء البشرة وتشبه أم بكر والأخرى بسمرة داكنة لا تشبههما. نبدأ بالأكل وتبدأ فرحة تعرّفني عليهن:

- هذه زوجة ابني د. عبد الله والأخرى زوجة ابني رمضان وهذه (السمرة) هي ابنتي.... هي تشبه والدها رحمه الله

نضحك جميعاً على فروحة وهي تشاكس ابنتها ليلى بسمرتها.. أقول لهن:

- أعانكنّ الله على مثل هذه العمّة

فيضحكن باستحياء. تقول فروحة وهي تضع اللحم أمامي وتحاول إطعامي مثل طفلة:

- والله إسألي القرية كلها، لا توجد عمّة مثلي.. أنا أعتبرهن بناتي وهن فعلاً بناتي

يقطع حديثها بكر وهو يمشي فوق الغطاء المفروش تحت الصحون ويعبر الصحون ليصل إليّ.. يصيح به الجميع وأحضنه قبل أن تصل إليه يد إحداهن.. يجلس في حضني مرة أخرى.. بكر..

يجمع الفرح ويضعه في قلبي من جديد.. أقبّله وأقبّل يديه.. فأجده يمد يده إلى حقيبتي مرة أخرى.. وأضحك وأنا أراه يبحث عن حلوى أخرى.. أهمس له:

- سأشتري لك واحدة أخرى.. لا تهتم

يضحك.. وتضحك زرقة عينيه.. تضحك الدنيا في صوته وكلماته المبهمة.. فمه ملطخ ببقايا الطعام يزيد من جماله.. تباغتني فرحة بسؤالها:

- كم طفلاً لديك؟

فأقول لها إني غير متزوجة. تندهش..:

- معقولة؟ أنتِ بهذا الجمال كله ولا تتزوجين لحد الآن؟ في عمرك هنا لديهن ثلاثَ أو أربع أطفال بل خمسة

يجيبها صوتي المنهمك بمداعبة بكوري:

- ألم تسمعي بالعوانس؟ أنا إحداهن

فينفجر الجميع بالضحك مرة أخرى.. تحاول أن ترفع روحي المعنوية:

- لا تيأسي.. أنتِ جميلة وصغيرة لكننا هنا نزوج فتياتنا بسرعة.. على عكس الحضريات فهن يدرسن ويعملن ويتزوجن بعد ذلك.. يا ابنتي الزواج المبكر مهم للفتاة لكي تتمكن من الإنجاب والتربية بعمر صغير قبل أن تكبر وتهرم.. عليك أن تتزوجي قبل أن يفوتك القطار.. وحرام أن يفوتك

تضيف ليلى:

- لا تضجري من حديث أمي.. إنها هكذا تريد أن تزوّج كل النساء، فهي تحمل همّهن جميعاً

أجيبها وأنا مستمرة بإطعام بكر:

- نعم.. من الواضح أن قلبها كبير، لهذا تحمل همّ تزويجي، وكان أجدر بها أن تهيئ لي عريساً حاضراً بعد هذه المحاضرة

يضحك الجميع... وتبتسم هي.. يأتيني صوتها مضرجاً بحزن دفين:

- وحده الله يعرف ما في القلب من همّ.. المهم.. أتركي بكر وكلي قبل أن يبرد طعامك

تنادي أمه لتأخذه مني وأستوقفها بإلحاح:

- لن آكل إذا أخذتم بكر مني.. سنأكل معاً.

لقمة في فمي... ونصفها في فمه... أمضغها له قبل أن أدسّ بها في فمه البريء.. لا أدري إن كانت أمه ترضى بأن أضع في فمه لقمة ممزوجة بلعابي.. أو أن أجلسه في حجري كل هذا الوقت.. لكنني أعرف أنه سعيد معي، كما أنه يمنحني هذا الطعم المدهش من الفرح.. لم أشعر بتآلف مع طفل بهذا الشكل الغريب من قبل..! بل على العكس تماماً.. كانت خالتي توبّخني دوماً لأنني كنت أنهر الأطفال أمام أهلهم حين يزورونا وحين كانت يد عبثهم تمتد إلى مقدساتي المنزلية من كتب وإصص نباتات ظلية.. لكن الأمر مختلف مع بكر... أتمنى ألا يترك حضني أبداً.. يا إلهي... هل يمكنني حقاً أن أحتوي مثل هذا الكائن الخرافي في رحمي..؟ هل يمكنني الإنجاب كبقية النساء...؟ هل يمكنني الزواج؟

صوت آلة موسيقية يعلو في الأجواء.. وضجيج أخذ يقترب شيئاً فشيئاً.. أسألهم:

- ما هذا الضجيج؟

تجيبني فروحة وهي تضع المزيد من اللحم أمامي:

- لا عليك، لن يتزوج أحد منا.. إنه أحمد ابن جارنا حجاب، سيتزوج هذا اليوم

- ولماذا لا تذهبون إلى العرس؟

يتطلعن إلى فروحة ينتظرن منها إجابة مقنعة فتبادر:

- لن يطير العرس.. سيقوم أولادي باللازم

- وجودنا هو السبب؟

- كيف تقولين هذا؟ أنتم ضيوفنا وهذا واجب والكل يقدر ذلك

في هذه الأثناء تتصل خالتي وأحتار كيف أردّ عليها ويدي مغمسة بالثريد، والأخرى تمسك ببكر الذي تمتد إليه يد فروحة بسرعة لاختطافه من حضني لأردّ على هاتف خالتي. كان صوتها قلقاً جداً وغاضباً وهي تسألني عن مكاني:

- أين أنتم الآن؟
- أنا في أحد بيوت أهالي القرية حيث قدموا لنا الغداء
- الطريق ما زال مسدوداً عن مدخل المدينة، كيف ستأتون؟
- يقول أبو محمد عن طريق الترابي
- أي ترابي؟ لقد خرّف هذا الرجل؟ أقول لك إن الشارع الرئيسي بما فيه الترابي مغلق ولا يسمحون للسيارات بالذهاب أو العودة
- قلت لك أنا لا أطيق هذا الرجل
- ومن أتى به سوى هذا العمل الذي لا يليق بامرأة؟ الوقت ليس للّوم الآن، قد تضطرين للبقاء في هذا المنزل هذه الليلة.. أريد أن أكلم أي شخص من المنزل الذي أنتِ فيه، أي امرأة قربك
- حاضر

وأعطي الهاتف لفروحة:

- هذه خالتي تريد أن تسلم عليكِ

تتحدث فروحة بالهاتف الذي تجيد استعماله على عكس توقعاتي.. إجاباتها مكررة:

- نعم إنها في عيوننا
- إنها إحدى بناتي لا تقلقي أبداً
- اطمئني.. قلت لك إنها واحدة من البنات ويشهد الله على ذلك
- أهلا بك.. مع ألف سلامة

وتعود لتناولني الهاتف:

- أهلاً خالتي
- اسمعي، مكوثك في القرية آمن من القدوم في هذا الوقت المتأخر،

قد تجدين سيطرات أخرى على الطريق وهذا سيزيد من القلق والتأخير. اسمعي، لن توزعي الرسائل الآن، هذا وقت لا تخرج فيه النساء في القرية، لا تكوني نشازاً وضعي غطاءً على رأسك وارتدي ملابس منهم حتى يفرجها الله في الغد، وحين تعودين سيكون لنا كلام آخر

- حاضر
- مع السلامة
- مع السلامة

تنهي خالتي وصاياها الألف... ينقبض قلبي من نبرة صوتها التي تحوّل زهوي وسعادتي الافتراضية إلى شعور متفاقم بالذنب... هكذا هي دوماً.. تفسد فرحي بمخاوفها الزائدة.. أعرف أنها تعدّ لي جلسة أخرى تحاول أن تقنعني فيها بترك هذا العمل والاشتغال في التدريس معها.. في مدرستها نفسها.. فهي الوظيفة الأسلم من وجهة نظرها.. أحاول إنقاذ ملامحي أمام فروحة وأم بكر وليلى.. وأعاود الأكل محاولة تغيير الحديث:

- إنها خالتي وهي قلقة عليّ بسبب الظروف كما تعلمون

تجيبني فروحة بإعجاب:

- والله إني ارتحت لها كما ارتحت لك كثيراً.. إنها قلقة عليك جداً.. وكأنها أمك
- إنها أمي فعلاً.. فقد ربّتني منذ أن كان عمري شهوراً قليلة.. فقد توفيت أمي وأبي في حادث وأصبحت تربيتي من نصيبها.. حتى إنها لم تتزوج لأجلي

لا أعرف لماذا أحدثهم بكل هذه التفاصيل التي قلبت أجواء البهجة إلى حزن يطفو فوق الوجوه والنظرات التي تقول أكثر مما تقوله الشفاه الصامتة. ترفع فروحة رأسها إليّ وقد التمعت في عسل عينيها الدموع:

- الحمد لله على قدره. الحمد لله على مصائبه.. المصائب تكفر ذنوبنا يا ابنتي.. ربما لهذا أحببناك منذ أن رأيناك.. سبحان الله
- أشكرك كثيراً.. أعتذر لأني أزعجكم بحكاياتي

لنعد إلى العرس الآن.. لماذا لا نذهب إلى العرس؟ لم أحضر أعراساً في القرية من قبل وأتوق لرؤيته جداً؟ يبتهج الجميع، تنهض ليلى وتتبعها أم بكر، تسألني فروحة:

- هل تذهبين بملابسك هذه؟

أفهم من كلامها أنها لا تريد أن أكون نشازاً عن نساء القرية.. وربما أوصتها خالتي بهذا كما أوصتني..

- أعتقد أن ملابس أم بكر ستلائمني، فنحن متقاربتان في الطول والحجم أيضاً

ترحب أم بكر بالفكرة كثيراً وتقودني إلى غرفتها.. بعد أن تصب لي الماء لأغسل يدي في الصحن الدائري الذي يشتهر القريون باستعماله للضيوف.. ندخل غرفتها.. غرفة نوم كسائر الغرف التي في المدينة... ستائرها غارقة في الأرجواني مما يسبّب الظلمة... تسرع أم بكر لفتحها، وتدخل ليلى في هذه الأثناء بابتسامتها وقامتها الطويلة:

- ماذا ستلبس الحضرية؟

ونضحك...

تفتح أم بكر خزانتها وتبدأ بنبش الكثير من الملابس... لتستقر على ثوب أحمر مطرّز بورود سوداء لامعة.

- ما رأيك بهذا؟ سيلائم بشرتك البيضاء كثيراً

أحمل الثوب وأضعه على جسدي وأنا أقف أمام المرآة الطويلة.. أقيس طوله وأمد أكمامه على ذراعي فتصيح ليلى:

- وكأنه خُصّص لك!

كان الثوب بمقاساتي نفسها فعلاً... ولكني لم أخبرهما أني لا أحب هذه الألوان المبالغة في بهجتها... الألوان الرماية تستهويني

دائماً.. قالت لي صديقتي سروة في إحدى المرّات وهي ترى خزانتي:
- لا أصدق أن ملابسك كلها بهذه الألوان؟ هنالك ألوان أخرى في الكون غير الأسود والأبيض والرمادي

وبدأت تعدّدها لي وتحاول إقناعي بما يلائم بشرتي... حينها لم أجد ما يمكنني أن أقنعها به لأني أيضاً كنت أجهل سبب تعلقي بهذه الألوان.. وفي كل مرة أتسوّق فيها وأقرر أني سأختار شيئاً جديداً أجدني أنقاد إلى الألوان نفسها... لكنني مجبرة اللحظة على لبس لون جديد.. لا يشبهني أبداً...

ليت سروة كانت هنا لتشاهدني وأنا أرتدي هذا الثوب... كانت ستفرح حتماً.. على الأرجح كانت ستشمت بي وأنا أنقاد باستسلام لهذه الألوان بعدما فشلت في إقناعي بارتداء ألوان أكثر قتامة من هذه... تخرج أم بكر شالاً أسود للرأس:
- سيلائمك هذا أيضاً
- شكراً لك.. يبدو ملائماً فعلاً. هل أستبدل ملابسي الآن؟
- نعم.. تستدرك ليلى وتنهض مع أم بكر:
- سنغير ملابسنا أيضاً وننتظرك
- طيب

يخرجان ويغلقان الباب، يأتي صوت أم بكر من الخارج:
- المفتاح موجود في الباب اقفليه من عندك
- حاضر

أقفل الباب، أجلس على السرير المرتب... أمسك بالثوب وأتطلع لوروده الكبيرة اللامعة.. هل سأرتديه حقاً وأخرج به أمام الآخرين؟

ماذا سيقول السائق إن رآني؟ ماذا سيقول الآخرون؟... قد يرمقني السائق بنظرة تؤكد أن حقيقتي تكمن في هذا الثوب وأن عليّ أن أنصاع أخيراً لأحكامه... وأن... لا... لن أرتديه... لن... يأتيني صوت أم بكر فيه:

- افتحي الأزرار الجانبية فهي مخفية

أتلعثم أمام الثوب المرمي على الأرض... وصوت انتظارهما لي.. وأنا بين احتراقين.. وانتظارين... يخرج صوتي أخيراً ليسألهما:

- ماذا عن السائق؟ هل سيذهب إلى العرس أيضاً؟

- لا تقلقي إنه مع أبي بكر وسيظلان في (الربعة)

أنهض وأحمل الثوب بسرعة:

- دقائق وأكون جاهزة

جوابها يزيح عني هماً كبيراً وهي تخبرني أن السائق لن يأتي.. أرتدي الثوب بسرعة.. أقف برهة أمام المرآة.. لم أرتدِ مثل هذا الثوب من قبل.... أحمل الشال الأسود وأضعه على رأسي فأتنبه للأكمام العريضة التي تبدأ تضيق وصولاً للكتف.. أما بقية أجزائه فلا يكاد يعرف منها شيئ لاتساعها باستثناء منطقة الرقبة والصدر التي تختفي تحت سواد الشال العريض أيضاً... أشعر وكأنني أرتدي بدلة عرس فتصميمه يدل على هذا... أدخل خصلة شعري التي تشاكس الشال وأحكم شدّه جيداً على رقبتي.. أفتح الباب على صوت فروحة وهي تسألهم عني.. تبادرني ليلى وأم بكر وفروحة بإعجاب أخجلني.. ويعلو صوت أم بكر باندهاش أكبر:

- ما شاء الله تبدين جميلة.. وكأنك لست التي كانت تجلس معنا قبل قليل

أشعر بخجل كبير، ولأول مرة تتلعثم الكلمات على لساني.. أحاول استجماع الكلمات لأخرج من خجلي ونظراتهن المحدقة بي:

- الفضل لكِ فقد استحوذت على ملابسكِ

يأتي صوت ليلى:

- والله أم بكر كانت تضيع في هذا الثوب حتى إننا لا نجدها فيه لهذا لم ترتديه إلا نادراً

يأتي صوت أم بكر مغالباً الضحك:

- هذا الثوب لكِ.. وأقسم عليكِ ألا تعيدينه لي

- أنتم تحرجونني بكرمكم.. لا أعرف ماذا أقول حقاً

تقترب مني فروحة وتمسك بيدي وهي تعيد إدخال الخصلة المشاغبة من شعري وتحكم الشال الذي أوشك على الانفلات من جديد.

- لنذهب الآن... لنشاهد العروس

وقبل أن نخرج إلى الفناء الخارجي، تضع ليلى وأم بكر النقاب على وجهيهما، فيما تبقي فروحة وجهها مكشوفاً، فتتسلل الراحة إلى نفسي وأنا أشعر بأن ثمة من تشاركني عراء الوجه...

توشك الشمس على المغيب.. صوت غناء يعلو... أصوات إطلاقات نارية ترعبني، صخب أطفال وصبيان يتجمعون حول البيت الذي يقام فيه العرس والملاصق لبيت فروحه، ندخل المنزل المكتظ بالنساء والأطفال ويعلو صوت مغن قروي ليتشابك مع ضربات طبل تهتز معه الأرجل التي تعلو وتهبط معاً في حركة متناسقة لترسم صورة (الدبكة)... الرقصة الاحتفائية التي لا يصحّ بدونها الفرح...

نجتاز الصخب لندخل إلى العروس المحاطة بالنساء والأطفال.. تنحني فروحة لتقبلها وتباركها وتتبعها ليلى وأم بكر... وأنا أيضاً.. صوت المغني يعلو بانفعال ولا أكاد أعي كلماته وسط الصخب... أبحث عن فروحة لأجلس معها فأجدها منهمكة بالحديث مع النساء وهي تشرح لهن سبب مجيئي... تمسكني ليلى من يدي وتجلسني بقربها وقرب أم بكر التي تهمس في أذني حال جلوسي:

- الكل يسأل عنك

وأهمس لها كمن يندسّ سراً:

- أعجبهم ثوبكِ

تضحك.. وليلى معها..

الأطفال يلتفون حول العروس المصبوغة بالأبيض الفاقع... عيناها صغيرتان لكنهم رسموها بالكحل حتى ضاعت حدودها وملامحها الأصلية.. لا أكاد أميّز شيئاً من وجهها.. لكنني حين اقتربت منها رأيتها تحمل ملامحها التائهة الحائرة خلف هذا الكم الهائل من الألوان الصناعية..

أشاهد المغني من فتحة الباب الجانبية، فهم لا يسمحون للنساء بالاختلاط مع الرجال رغم رغبتي الشديدة بمشاهدته عن قرب.. إذ لم يحدث أني شاهدت مغنياً من قبل.. ولو كان مغنياً من الدرجة العاشرة.. أسأل ليلى:

- ما اسم المغني؟

تهمس في مسامعي وتضع يدها على فمها:

- سعيد خاشوكه

ورغماً عني.. أنفجر بالضحك.. تعلو ضحكتي وسط الضجيج.. تضحك ليلى وتخفي ضحكتها بيدها، تنتبه إلى ضحكنا أم بكر فتسأل بإصرار:

- لماذا تضحكان؟

تحاول ليلى أن تخبرها ولا تستطيع جراء نوبة الضحك التي لم أتخلص منها إلا على صوت المغني وهو يغني بحماس (جميلة وحاطة الأخضر هين وهين.. لا ترضى بحب لا ترضى بصداقة لو ترضى بحب أشريها بدرّاسة.. سوبر صالون.. ويه كرونه ماوييييي)...

أضمّ وجهي بين يديّ وأغصّ بالضحك.. ضحك مجنون يسيطر عليّ ويستحوذ على كل حواسي ويشلّ قدرتي على الصحو.. تنخرط ليلى وأم بكر مع ضحكي، لكنهما تضحكان باتزان أضعته أمام صوت (سعيد خاشوكة) الذي غسلني بضحك أزاح عن قلبي يبابه وقتامة دمائه وفتح النوافذ أمام الفرح ليدخل أخيراً.. من أوسع الأبواب....

أشعر برغبة في الإنصات إليه أكثر.. صوته شجي.. وأغنياته تدخل القلب لأنها بسيطة وصادقة وعفوية.. والأكثر من هذا كله.. أنها دخلت قلبي واستدرجتني لكل هذا الفرح والضحك.. تدمع عيناي بغزارة..أمسحهما وأحاول التقاط أنفاسي.. أسأل ليلى:

- ماذا يعني بالدرّاسة؟

فتجيبني وهي تقترب مني وترفع صوتها وسط صوت الموسيقى المنبعثة من آلة المطبك كما أسمتها:

- (الدرّاسة) هي آلة الحصاد، وهي باهظة الثمن وكبيرة

يغيّر سعيد خاشوكة أغنيته ويتغيّر معها اللحن ليصبح خاصاً بالدبكة التي تكبر حلقتها لتضم عدداً أكبر من الرجال والشبان، وأخيراً تنضم إليهم امرأة متوسطة في العمر بزيّها القروي، فأسأل ليلى أيضاً:

- كيف سمحوا لها بالرقص معهم وهي امرأة؟

- لأنها أم العريس، ومن يرقص معها أخوتها وأبناؤها وأحفادها

أسألها باندهاش:

- لكن عمرها ليس كبيراً لدرجة أن تكون جدة

- أكثر نساء القرية مثلها لأنهن يتزوجن باكراً وليس مثل الحضريات

يعود إليّ الضحك:

- طبعاً لو فعلت الحضريات مثلكن فستنقرض العوانس على وجه الأرض، لهذا نحن نحافظ على هذا النسل

تضحك أيضاً مع أم بكر التي تطالبنا بالكف عن الضحك لأن الجميع يتطلّع إلينا. تأتي إلينا امرأة تحمل طفلاً ويتبعها أربعة أطفال، تنهض ليلى أمامها قبل أن تصل، وتتبعها أم بكر وأنا أيضاً، تقبّلنا المرأة الواحدة تلو الأخرى بالحميمية ذاتها وتبدأ تسأل ليلى عن أمها، فتدلّها ليلى إليها وهي تجالس بعض النساء قرب العروس الوحيدة الجالسة على كرسي وحيد محاط بالأطفال والنساء والضجيج..

تسأل المرأة ليلى عن شقيقها د . عبد الله، وعما إذا كان موجوداً في المنزل، فتجيبها بأنه موجود، وتقول لها إنها ستذهب إليهم بعد صلاة العشاء لأن ابنها عبد السلام يشكو من حكة واحمرار في عينيه وأن طبيب المدينة لم ينفعه بشيء ولم يتبق أمامها سوى د. عبد الله حيث وصفته: (يده فيها الشفاء للأطفال). تذهب ونعاود الجلوس على الأرض.. تهمس ليلى لي بعد أن تتاكد من جلوس المرأة بجانب أمها:

- هذه المرأة زوجة أحد وجوه العشيرة هنا.. وكانت علاقتهم مقطوعة مع أصحاب هذا المنزل حتى تصالحا بعد السقوط

- ولماذا هذه القطيعة؟

- إنها حكاية طويلة بين العشيرتين.. أحد أفراد عشيرة هذا البيت كان يمتلك فرساً أصيلة وجميلة تدعى حربة.. وكانت حربة سريعة ولا تلحقها فرس أخرى.. طبعاً كان هذا منذ عشرات السنين.. وفي يوم من الأيام تسابقت الحربة كما جرت العادة مع فرس أخرى لعشيرة هذه المرأة اسمها الفرس(الشكرة)، وحدث أن الفرس (الشكرة) فازت على (الحربة)، فما كان من صاحب الفرس (الحربة) إلا أن تسلّل في الليل إلى المزرعة التي توجد فيها الفرس (الشكرة) وقام بذبحها، فانكشفت الحكاية في صباح اليوم التالي وأصبحت هذه العشيرة مطلوبة للثأر. وتشرد القاتل ولم يسمعوا عنه شيئاً حتى هذا اليوم، البعض يقول هرب إلى قرية أخرى والبعض الآخر يقول إنه ذهب إلى بغداد بعدما أخذ كل ما يمتلك وأقاويل كثيرة، المهم أن العداوة التي دامت أعواماً طويلة انتهت بعد الاحتلال وعاد الجميع أخوة

- ولماذا انتهت بعد الاحتلال وليس قبل ذلك؟

تقرب رأسها وتهمس لي بصوت لا أكاد أسمعه:

- ذات يوم مرّ رتل أمريكي فتعرّض لانفجار، فبدأوا يطلقون النار في كل الاتجاهات على المدنيين، وكان أبناء أحد العشيرتين عائداً

لبيته فأصيب واستشهد، وكان ابن العشيرة الأخرى موجوداً في المكان نفسه، أخذه بنفسه للمستشفى مجازفاً بحياته وبجراحه.. وفي المستشفى تبرع بدمه للمصاب، لكن الله أراده شهيداً فأعاد جثمانه لأهله الذين يطلبونه ثأراً.. لكن والد الشهيد استقبله وأمام الجميع بالأحضان وظل يبكي ويصيح حيّوا البطل الذي يحمل البطل.. تصاعد النواح والهلاهل في الوقت نفسه.. ومجلس عزاء الشهيد أقامته العشيرتان..

سكاكين الحزن تنغرس في قلبي.. ورغبة مجنونة في البكاء تستيقظ في روحي المنتشية بفرح قرية تصورت أنه منيع ولن يخترقه الدمع.. تلحظ ليلى عينيّ اللتين تدمعان وصمتي الذي أقابلها به فترتبك وهي تسألني:

- ماذا بك؟

يرن الموبايل لينقذني من جواب لا أعرف كيف أصوغ ملامحه وسط الفرح.. أفتح الحقيبة وأجدها خالتي.. أتردد في محادثتها، فهي لا تحمل سوى العتاب واللوم دوماً.. تحاسبني على فرحي وحزني أيضاً.. تريدني قالباً آخر في مدرستها.. في فلكها المنظم.. في زمنها الذي لم يرتبك أو يتغير.. الموبايل يدق بإصرار وكأني أسمع صوتها وتوبيخها وعصبيتها التي تجعل بشرتها تزداد احمراراً وعينيها أيضاً..

أشعر أن المسافة التي بيني وبين الجهاز بعيدة وشاسعة كالمسافة التي بيني وبينها.. أهمس لنداء الجهاز: أحرام أن أفرح يا خالتي ولو لليلة واحدة سأدفع ثمنها باهظاً..؟

أغلق الحقيبة على نداء خالتي الذي يتكرر لعدة مرات... تسألني ليلى:

- لماذا لا تجيبين؟

فيجيبها صوتي الخارج عن القانون:

- إنها صديقتي والوقت ليس ملائماً للكلام

تشاكسني وهي تتوجه إلى أم بكر بالكلام:
- انظري إلى الحضريات يحملن الموبايلات حيثما ذهبن كالرجال..

وأضحك معهن.. يضحك وجهي وفي داخلي تضحك السخرية بملء شدقيها وهي تعكس رغبتي المجنونة برمي الجهاز والركض عارية من هذه الأثقال والزوائد..

وتستيقظ الأسئلة في داخلي فجأة: لماذا أحمل الموبايل؟ صديقاتي لا يستغنين عنه لأن كل واحدة منهن لديها حبيب وزوج وأهل تتواصل معهم، أما أنا فليس لي أحد سوى خالتي وسروة ومدير الجمعية والسائق؟ أربعة أسماء لا غير، وأضيف إليها اسمي لأني لا أعرف حفظ الأرقام؟ أربعة أسماء في جهازي تشكل عالماً متكاملاً من الخيبة..

خالتي بعالمها الذي تحاول أن تحنطني به ورغماً عن إرادتها كي لا أصبح لحناً شاذاً في العائلة والمدينة.. وسروة التي تشتكي من إهمال زوجها لها وقسوته في معاملتها وتأخرها في الحمل الذي استمر أربع سنوات ومحاولاتها لإقناعه بإجراء عملية أطفال الأنابيب في سوريا.. والسائق بكل ما يحمله من خواء وأكاذيب وحجج كي لا يقوم بواجبه.. ومدير الجمعية المنشغل بتوزيع الحصص الغذائية على أحبائه.. ها أنا اللحظة أكتشف حجم حماقتي في احتفاظي بهذا الجهاز!

تقترب أصوات الطبول منا.. وتمتزج بأهازيج قروية وشعبية.. (بنت الشيخ لابن الشيخ جبناها.. هيه الرادها وهيه التمناها.. الفلوس متفيدكم.. أخذنه شمعة بيتكم). ينهض الجميع وننهض..

تدخل الأهازيج والعريس محاط بالشباب.. يقترب من العروس فتنهض العروس من مكانها وتستمر الأهازيج.. أبحث بين الوجوه عن سعيد خاشوكة.. فلا أجده.. ربما كان موجوداً لكني لم أميّزه..

يقتاد العريس عروسه نحو إحدى الغرف المقابلة لنا... تخرج النساء تباعاً وتهمّ فروحة بالخروج مغالبة إلحاح إحدى النساء بالبقاء.. تأتي إلينا لتقودنا حيث جئنا.. حيث بيتها الملاصق لبيت العريس.. نعبر دبكة صغيرة قام الصبية في حديقة المنزل بعدما انفضت الدبكة الكبيرة.. أعبر الفناء وعيناي تبقيا معلقتين فوق الوجوه تبحثان عن سعيد خاشوكة.. عن ذلك الصوت الشجي الذي اخترق نسغ ذاكرتي لتتفجر فيها صور كالحة وقديمة... صور بالأسود والأبيض أذكر أني كنت أحد شخوصها في زمن بعيد.. في قرية بعيدة.. في فرح قديم.. وغناء يشبه هذا الشجن.. ندخل المنزل من الفناء الخلفي.. نجلس معاً.. تسألني فروحة وهي تمسك بيدي:

– هل أعجبك عرس العرب؟

– جداً

– أسعدتينا بوجودك والله.. الكثير من النساء سألتني عنك

– إذن هنالك أمل في الحصول على عريس

يضحكن جميعاً.. تضيف فروحة:

– سيأتي العريس ونفرح بك

لا تزعجني نبرة المواساة التي أسمعها في صوتها.. إنهم أناس بسطاء يريحني أن أعترف ببؤسي أمامهم.. أن أشعر بشفقتهم وحنانهم الذي لا يعرف الزيف.. ذلك الزيف الذي تتقنه المدن الكبيرة وتعلمه لأبنائها.. لا بأس أن يقول المرء: أنا بائس.. أنا حزين.. أنا مهزوم... أنا...

طرقات خفيفة على باب المطبخ تتناهى إلى مسامعنا، تنهض ليلى بسرعة وتقول: لا بدّ أنها وضحة العطا الله. تعود بعد قليل مع امرأة عجوز رسم الزمن ما رسمه على وجهها من غضون.. تلف رأسها بعصبة سوداء وترتدي السواد.. الكثير من السواد يغطيها.. إنها امرأة تغصّ بالسواد.. وثمة حزن خفي يتسرب من صوتها وعينيها الغائرتين في حفر سحيقة من جسد الزمن.. تسلّم علينا وتجلس قرب فروحة..

تسألها فروحه عن صحتها وحالها.. فتجيبها:
- على الله

وتردف فروحة:
- كلنا على الله

تبدأ فروحة بالاستدارة من خلف المرأة والجلوس خلفها والإمساك برأسها وتبدأ بقراءة القرآن... تقرأ الآيات القصيرة وتعيد قراءة المعوذتين.. تكرر قراءتها كثيراً.. تهمس لي ليلى:
- العمة وضحة أصابتها كآبة منذ سنوات ولا ترتاح إلا بقراءة القرآن
- وأمك تقرأ لها القرآن منذ سنوات؟
- نعم، مع نساء أخريات لكنها لا ترتاح إلا لأمي.. لا تذهب لأحد ولا تزور أحد، فقط تأتي إلينا أو ترسل إلينا لزيارتها حين تمرض.. تعيش وحدها مع ابنتها فوزية ولديها ابنة أخرى تدعى نورية لكنها متزوجة
- ولماذا تعاني من الكآبة؟
- منذ أربعة أعوام غرق ابنها في النهر حين كان يسبح مع رفاقه وكان عمره ثمانية عشر عاماً، وكان جميلاً لدرجة أن القرية تضرب بحسنه المثل.. وقبل عامٍ غرق ابنها الثاني الذي تبقى لها وكان عمره أيضا ثمانية عشر عاماً.. فأوشكت على الجنون وعجز الأطباء عن علاجها.. أصبحت عدائية لا ترغب برؤية أحد عدا والدتي التي أخرجتها عنوة من عزلتها وجاءت بها إلينا حتى اعتادت أن تأتي إلينا ليلاً كي لا ترى أحداً، إنها مسكينة وتقضي يومها بالجلوس في فناء الدار تبكي وتنعى ولديها

وجهي الذي جئت به إلى القرية يعاود الظهور من جديد.. يسترد ملامحه المطفأة وهو يشهد هذه الحكايا الحزينة التي تغرس سوادها في القلب.. أظل أتطلع لوضحة العطا الله... أتمنى لو أني أستطيع أن أكلمها.. أن أخفف عنها.. أن أقول لها إن أولادها

ينتظرونها في مكان ما ليلتقوا بها ذات زمن.. سيلمّنا معاً.. أريد أن أسألها إن كانت رأتهم في أحلامها.. فالأحلام هي حبل الوصل بين الموتى والأحياء.. هي الهضبة التي نلقاهم فوقها بلا حواجز.. فينقلون لنا أخبارهم وننقل لهم بؤسنا الذي تركونا به... يعاتبونا على أحزاننا.. ونعاتبهم على رحيلهم الباكر..

أذكر أني رأيت أمي أكثر من مرة وهي تعاتبني لأني أغضب خالتي.. وكنت أشكو لها خالتي ولكنها كانت تمضي بصمت وتدعني وحدي معلقة بالأسئلة..

أتطلع لوضحة العطا الله في محاولة مني لبدء حوار لا أعرف شكله بعد. تمسك فروحة بأكتافها وتفركها لها وتستمر بقراءة القرآن.. تجلس بعدها وتدير لها الماء الذي جلبته ليلى من المطبخ، وهو ماء مقروء عليه كما تخبرني ليلى التي تعلمت أن تشرح لي كل شيء قبل أن أسألها لكثرة ما أتعبتها بفضولي.. تشرب الماء وتشكر فروحة وتعاود اللجوء لصمتها.. تقول لها فروحة:

– صلّي.. وسبّحي كثيراً.. لا جدوى من البكاء.. استغفري الله كثيراً فالاستغفار أحد أبواب الفرج

تهز وضحة رأسها ونظراتها تتجه صوب الأرض.. تقوم فروحة لأداء صلاة العشاء وتستأذن منا.. أم بكر تنادي ليلى لتمسك ببكر حتى تنتهي من الصلاة خوفاً من أن يذهب للمدفأة.. تذهب ليلى لتأخذه.. وأبقى أنا وهي.. أشعر أننا في مناظرة خفية من الحزن.. تستمر بنظرها إلى الأرض وكأنها تحدق في عالم آخر.. وأستمر بالتحديق بها.. يخرج صوتي في محاولة لمدّ جسر من الحوار بيننا..

– كيف حالك يا حاجة وضحة؟

بارتياب ترمقني بنظرة عابرة وترد عليّ التحية باقتضاب.

– أرجو أنك شعرت بارتياح من قراءة القرآن؟

– الحمد لله

تعاود النظر إلى الأرض.. الدخول إلى الملكوت الذي تعيش

فيه.. ولا تسمح لأحد بالاقتراب منه.. تزداد رغبتي في اختراقه والدخول إليه.. فيها سرّ يدفعني لأكون فضولية إلى حدّ سؤالها:
- ألم يزورك ولداك في المنام؟

تتبدل ملامحها لترتدي انكساراً كتوماً ونظرة تلتمع فيها الفجيعة من جديد تستدرجها لصمت لا يطول:
- يزورانني دائماً
- تذكري يا حاجة أن الغريق شهيد كما أخبرنا النبي عليه الصلاة والسلام.. والشهداء لا حزن عليهم

تنظر إلي ببقايا نزف طري في عينيها المتحجرتين وتقول لي كأنها تهمس سراً:
- في العزاء.. كنت أبكي مع النساء.. ولم أترك فرضاً من الصلاة.. وكانت فوزية ابنتي في الغرفة الأخرى تقرأ القرآن.. فغفت على القرآن فزارها في الحلم وقال لها انهضي وقولي لأمي ألاّ تبكي فأنا سعيد.. ولتستمر بالصلاة لأني فخور بها

أعرف أنها صادقة.. وفوزية صادقة... وكلام الغريق أصدق.. لكني لن أصدق تلبيتها الوصية.. عيناها وصوتها المرتجف يفضحانها.. كما تفضحني عيناي وأنا أحاول أن أقول عكس ما تذرفانه من دمع متحجر نزل أخيراً أمامها.. ها أنا أبكي بحرقتها.. فقد عرفت لوعة الفراق والموت.. الموت المتكرر حتى مع الأحياء الذين يغادروننا بلا عناوين أو أمل يلوح بالأفق.. لم يعد بكاؤنا صامتاً.. راحت عيناي تختبئان بكفي لتنشّف الدمع.. وراح نشيجها يعبر الحقول الغافية ليوقظ العصافير النائمة على نداء أم أكل الماء عشّها وعلّقها بين الموت والموت.. انفجرت سيول البكاء بيننا بلا هوادة.. تخرج الكلمات من بين شفتيها مختنقة بالنشيج ورأسها يلوح يميناً وشمالاً، ويدها التي ترتفع وتهبط بأسى على حجرها الفارغ:
- كانا أجمل شباب القرية.. اسألي عنهما.. العيون الخضراء.. الطول الفارع.. كلها أصبحت من نصيب السمك.. أكلها السمك.. غدر

به الشاطئ المشؤوم.. وأخذ جثته بعيداً.. إنها لحظة الغفلة... غافله الماء فسرقه.. كانت القرية كلها تشهد بمهارته في السباحة والغوص.. لكن الماء غادر.. حتى جثته لم يعطينا إياها إلا في اليوم السابع.. خرجت عند المغرب ووقفت في الماء حتى منتصف جسدي.. خلعت عصابتي وكشفت صدري للسماء وأقسمت على الماء أن يعيد جثته الينا

وفي اليوم التالي جاؤوا يحملونه صباحاً حين وجدوه يطفو عند الجسر البعيد.. جاؤوا يحملونه وكأنهم يحملون شقيقه الذي غدره الماء قبله.. كانت بطنه منتفخة.. ووجهه مشوهاً.. التهمه السمك.. والتهم عيناه.. حسبي الله ونعم الوكيل.. حسبي الله ونعم الوكيل...

يرتعد جسدها وروحها كسعفة في عراء رياح مجنونة.. يعلو نشيجها، وأنهض إليها متعثرة بدموعي والنصال.. أحضنها وأقبّل رأسها.. تحضنني بشدة... تقبض على كتفي وتنشج بصوتي.. أشم رائحة أمي ودمع أمي حين أخذتها الملائكة وتركتني وحيدة في حضنها البارد... الآن فقط عرفت رائحة أمي.. رائحة البكاء حين يخرج من قلب محترق.. رائحة الجسد وهو ينضح بكل هذا الوجع الذي لا تهذبه كلمات الرب الشاخص نحو موتها الماثل في كل شهيق وزفير..

تأتي فروحة وليلى على صوت نشيجنا تركضان.. تندهشان لمنظر عناقنا والبكاء الذي يعصف بجسدينا معاً.. تحاول فروحة أن تجر وضحة العطا الله مني وليلى تسحبني بيدها القوية بعيداً.. وقلبي يصرخ.. أتركوني أتنشق دمع أمي قليلاً... فما زال الوقت باكراً للرحيل..

نجحت ليلى وأمها بفصلنا عن بعضنا، لكن بكاؤنا ظل يعانق الآخر باللوعة ذاتها.. تتطلع ليلى باندهاش وحزن إلى دموعي.. تعتذر لأنها تركتني لوحدي معها.. كأنها تخاف عليّ منها.. تبقى

عيناي معلقتين على فروحه وهي تمسك وضحة العطا الله من كتفيها وتصيح بوجهها بعصبية لإنقاذها من بكائها الهستيري:
- وحّدي الله.. وحّدي الله.. قولي لا إله إلا الله.. قولي لا إله إلا الله

لكن وضحة لا تراها.. لا ترى سوى عيني ولديها وهما تتحولان طعاماً للأسماك.. تعوي مثل ذئب جريح في العراء.. لا يصلها صوت فروحة.. وصوت ليلى وهو يواسيني يتلاشى قبل أن يصلني... عيناي معلقتان على وضحة وهي تستسلم لملكوتها الأسود.. يئن بكاؤها:
- أكلهم الماء.. غدر بهم الماء

تعاود فروحة الصياح أكثر بوجهها بعصبية يشوبها شيء من الانكسار والحرقة:
- وحّدي الله يا وضحة.. كلنا دفنا أولادنا بيدينا لكنه أمر الله.. هل تعترضين عليه؟ هل تعترضين على الله؟.. قولي؟.. أجيبيني؟

تبقى وضحة غائرة في نحيبها الذي عبثاً يحاول صياح فروحة أن يخترقه.. صوتها يهذي:
- الماء غادر.. غدرهم الماء وأكلهم السمك

وفروحة تصيح ببقايا وجع خفي يرتسم على ملامحها لأول مرة:
- أنت امرأة بلا إيمان.. أنت لا تؤمنين بالله حقاً.. لقد ابتلعت الأرض ابني أيضاً.. ألا تذكرينه؟ هل نسيت محمد يا وضحة؟ (يعلو صوتها وهي تهزها من كتفيها وتنشج معها). هل نسيتِ أن عرسه كان الخميس وأن خبر استشهاده جاءنا في ليلة الحناء؟ هل نسيتِ العرس الذي تحول إلى عزاء؟ الغناء الذي تحوّل إلى بكاء؟ عروسه التي مزقت ثوب العرس وتلبسها الجن حتى هذا اليوم؟ هل نسيتِ محمد يا وضحة؟ كان يناديك أمي.. كان يحمل إليك

الحصة التموينية إلى البيت.. هل نسيته؟ هل أولادك بشر وأولادنا من حجر؟

(صوتها يتحول إلى نحيب آخر.. وسؤالها نصل آخر ينغرس في صدري.. حتى هذه المرأة التي تصورتها منذورة للفرح والعمل والعطاء.. تكشف عراء جرحها اللحظة.. تتحول من ضحكتها التي استقبلتني بها طوال اليوم إلى بكاء أسود..

وضحة العطا الله يتحول بكاؤها من جثتي ولديها المغدورتين إلى جثة محمد وتنشج باسمه... بينما تستمر فروحة بالصياح والإمساك بها وكأنها لا تراها.. وكأنها تمسك بالزمن من خاصرته لكي يكف عن التذكر..).

- السمك أرحم من الطائرات.. السمك رحيم لأنه ترك لك بضعة جسده.. وأنا حتى اللحظة لم أحصل على إصبع منه.. قبر ابني مليء بالتراب والفراغ.. قبره فارغ أيتها العجوز.. وقبر ولديك عامر بجسديهما.. لم نغسّله.. ولم نلبسه الكفن... كفنه ما يزال في غرفتي.. إجلبيه يا ليلى لكي تراه.. إجلبي الكفن لتعرف أنه قابل ربه عار من الكفن، عار من يدي، عار من كل شيء.. لم يجلبوا لي حتى ملابسه.. حتى جزمته.. حتى إصبعه.. قبر ابني فارغ يا وضحة.. الطائرات أكثر غدراً من الماء.. قصفته وساوت به الأرض.. التراب غادر.. التراب أكثر غدراً.. رفاقه غادرون.. كان بإمكانهم أن يحفروا أكثر ليخرجوا جثته.. لكنهم لم يفعلوا.. كانوا يكذبون.. كلهم يكذبون.. كلهم..

(تدير رأسها نحو ليلى وتصرخ بها):

- إجلبي الكفن لتراه.. لتصدق أنه عار من الكفن

(جسد ليلى يرتعد بكاء.. تدخل أم بكر ووجهها مغطى بالدموع.. تحتضن فروحة وتقبّلها.. تبكيان معاً.. تلتحق ليلى بهما لتشترك معهما في حلقة بكاء بدأت تتسع لتغمر القرية كلها.. لتغرق

الحقول وتجرف رائحة الماء والياسمين... تنهض قدماي المرتجفتان وتسوقانني نحو حلقة الدمع... كانت دبكة أخرى.. رقصة من طراز آخر.. بحميمية عميقة تحتضنني فروحة.. وأقبّل ليلى فيتبلّل وجهي بدمعها الحار الذي يغطي وجنتيها.. اختلط الدمع.. أشعر أن هنالك حلقة أخرى من الدمع تحيط بنا... تلتف حولنا وترمقنا بأسى أكبر..

يصرخون بأن نكف عن إغراق العالم بالحزن.. أن نلتفت إلى بهاء حضورهم المغسول بأضواء السماء..

كان محمد قد استعاد قيافته العسكرية.. وكان أبناء وضحة قد استردا خضرة عينيهما من بطن السمك.. أما أمي... فكانت ترتب لي القماط لتعيدني إليه.. وحين رأت نزفي يسيح من تحت قدميها الفضيتين... حملت القماط ووضعته على قلبي.. فوجدت نزفي يتفجر من قلوبهن... من رقصة البكاء التي لم تنفضّ حلقتها حتى ساعة متأخرة من الحزن..

فجر أخضر

«الدِّيَكَة ليست اللّسان الناطق للفجر..
إنها أكذوبة أخرى».

لفجر القرى رائحة أخرى.. وصوت آخر.. حتى الشمس تبدو أكثر إلفة ونشاطاً وهي تطلع على الحقول الآهلة بحيوات لا تعرف النوم..

كان نومي متأرجحاً بين البكاء وصورة نساء متشحات بالنحيب رافقنني على امتداد ليل لم يكن رحيماً بتعبي وحزني الذي تفجر أنهاراً مجنونة جرفت معها وجهي وقلبي الاصطناعي.. وراحت تستلّ الحكايا العتيقة من صناديق الذاكرة المختومة بنسيان وشيك..

كان صوت الدِّيكة يعلو حتى في منتصف الليل.. ليؤكّد أن الديكة ليست اللسان الناطق للفجر.. إنها أكذوبة أخرى.. خرافة أخرى صارحت بها خالتي مرّة وأنا أسمع ديك الجيران يعلو في كل وقت وكان جوابها إن الديكه تصيح أيضاً حين ترى الملائكة.. وحينها تمنيت لو أني أجيد التصويب لكي أقتل ديك «علاّوي» الطفل المدلل الذي ولد بعد خمسة بنات مما منحه صلاحية شرب لبن العصفور.. أو شراء ديك يلعب على السياج الفاصل بيننا ويتأرجح على حبال حقدي وأنا أرى فضلاته في الفناء الخلفي لبيتنا.. لكن خالتي كانت تحول دوماً بيني وبين المصادمات مع الجيران حتى تصورني الجيران خرساء لفترة من الزمن..

الديكة هنا تصيح من بيت لآخر بصوت متناغم ثمة من يسأل وثمة من يجيب.. هكذا يتوالى صياحهم في رأسي الممدد بين النوم والصحو.. كانت أصوات الدجاج أول ما طرق سمعي وأيقظ نومي العميق.. كان نوماً لذيذاً.. التهم جسدي الفراش والأرض بتعب

سنوات طوال.. نمت برغبة فقدان الوعي.. ربما كان هذا هو سبب راحتي.

أشعر بالدفء يسري في أوصالي.. تلك الشمس التي لم تتمكن الستائر الأرجوانية من حجبها تتسلل إلى دفئي الوثير وعبثاً تحاول جرّي من الفراش.. لماذا استرددت وعيي بهذه السرعة؟

تبدأ الوجوه تتزاحم في رأسي الملقى برغبة فقدان الذاكرة على الوسادة.. وجه خالتي المعاتب.. وجه السائق الحاقد.. وجه مدير الجمعية القلق على السيارة لا علينا.. أستدير بجسدي إلى الجهة الأخرى في محاولة لنسيان كل ذلك ولو لدقائق أخرى أغور بها في قلب الحقول.. يرتسم أمامي وجه فروحة وصوتها الدافئ.. وجه وضحة العطا الله وأنينها الخافت.. وجه ليلى بطيبته.. أم بكر ببياضها.. وأخيراً... بكر.. بكل ما يحمله من حيوية تسخر من شيخوختي المبكرة وخوائي..

أستمع لهمهمات فروحة في الخارج. أستدير وأنتبه لفراش ليلى المرتب بقربي.. لا أدري متى استيقظت؟ أنا التي كنت أدّعي أن همس الجيران كفيل بإيقاظي.. لا مفر من الاستيقاظ والنظر إلى الساعة..

بصعوبة أرفع جسدي من دفء الفراش وأتجه صوب حقيبتي السوداء لأرى الوقت. أخرج «الموبايل» من الحقيبة وأجد سبع مكالمات لم يُرد عليها فقد جعلته صامتاً منذ ليلة البارحة! أفتح القائمة فأجد ست مكالمات من خالتي وواحدة من رقم مجهول.. تتسمّر عيني على الرقم المجهول فهو يمنحني فرصة أن أبني عليه أوهامي.. رغم أني أعرف أن التقنية لم تأتِ في وقتها المحدّد للحب.. فقد ضاع كل شيء.. وبقي ذلك الزمن الوديع بتقنيته المتواضعة المتمثلة بالهاتف ذو القرص الدائري الأجمل من كل هذه الثورات التقنية المجنونة.. لهذا ما زلت أحتفظ بهاتفي الأحمر في درجي السري

في خزانتي.. الهاتف الذي نقل لي صوت حقده لآخر مرة.. ويتمي ومكابرتي لآخر مرة أيضاً..

تتعلق عيوني على الأرقام الغريبة وأحلّق على بساط التأويل السحري.. إنه اتصال خارجي.. خيط فرح يتسلل إلى قلبي بهذا الاتصال المجهول.. ربما كان هو! من يفكر بالاتصال بامرأة متدثرة بالنسيان والصمت؟ وهل يمكن أن يتجشم (هذا المجهول) عناء الاتصال بامرأة لا يعرفها؟ ليتني لم أخرس الموبايل.. ربما كنت سأحظى بصوته وأدعي أمامه البرود الذي أتقنه لفرط تعاستي.. يا لحظّي العاثر حتى في النوم..

أتصل بخالتي لأمتص بعض قلقها وغضبها، هي الآن في المدرسة ولن تتمكن من إظهار غضبها بالكامل، أحاول الاتصال لكن الشبكة ضعيفة ولا توجد تغطية، أغيّر مكاني قرب النافذة فتتقوى الشبكة وأنجح في الاتصال..

الهاتف يدق ولا من مجيب.. يبزغ القلق في قلبي هذه المرة كأن السماء تعاتبني على عدم اكتراثي بقلقها.. أكرر الاتصال.. فيدقّ الهاتف في قلبي ورأسي وأشعر أن دقاته تتفاقم في مسامعي لشدة القلق، أتوسل لخالتي أن تجيب وللمرة الأولى لا يخيب توسلي فيأتيني صوتها الحانق، بالكاد ترد التحية.. هذا ما توقعته، أسألها عن سبب تأخرها في الإجابة فلا تجيبني وتسألني عن سبب عدم ردّي على الهاتف. أخبرها أن الشبكة ضعيفة وأن... تقاطعني:

– لم يكن مغلقاً كان يدق ولم تكوني تجيبي

– لأني كنت أعرف أنكِ لن تتمكني من سماعي فلم أشأ أن تخسري رصيدك في الهاتف و..

تقاطعني بعصبيتها المكبوتة التي بدأت تظهر شيئاً فشيئاً:

– لقد خسرنا أشياء كثيرة فلا داعي للخوف

لا أملك إلا أن اصمت أمام مشاعرها السلبية. يأتيني صوتها الحاد:

- أين أنتِ الآن بالضبط؟

مثل الجنود المهزومين يجيبها صوتي:

- في القرية؟

- حتى هذا الوقت؟؟

- استيقظت الآن فقد تعبنا البارحة وسنأتي للمدينة

- هل تأكدتم من أن الطرق مفتوحة؟

- لا أدري بعد

- وماذا تدرين إذن؟

- لا أدري

- استعجلي بالعودة ولا تأتي للبيت إلا ظهراً لكي لا يجذب قدومك الباكر فضول الجيران

- حاضر

وتنتهي المكالمة.. لكن صوتها يظلّ يحوم حولي وهو يتلو عتابه المقدس.. عتاب أم لم تكنها ذات يوم.. لابنة لن أكونها ذات يوم أيضاً..

تطرق فروحة الباب قبل أن تدخل، فأحييها من خلف الباب، وتدخل وهي تحمل (صينية) كبيرة، فأنهض لمساعدتها في حملها لكنها ترفض وتضعها أمامي. أتفاجأ وأنا أنظر إليها! كل أصناف الفطور مجموعة أمامي في تنسيق ساحر وشهي.. البيض والجبن والحليب والزبد والعسل والشاي المعطر بالهال!

تدخل ليلى وتحييني وهي تحمل أرغفة الخبز الحار، وأصيح لفرط إعجابي بشكل الخبز المخبوز بشكله الدائري الشهي ورائحته

التي تسبقه وهي تحمل معها عبق التنّور الطيني. كم أحب خبز التنانير.. تجيبني ليلى بابتسامتها الرؤوم (ألف عافية).

تجلس فروحة أمامي وتطلب من ليلى أن تجلس، فتذهب ليلى لغسل يديها وتبديل ثيابها الملطخة بعجيين الخبز..

- وأنتِ إبدأي فطورك قبل أن يبرد الطعام والخبز

- هل تصدقين أني لا أفطر أبداً حتى حين كنت طالبة؟

- ومن أين أتى هذا اللحم إذن؟

أكتم ضحكتي وأنا أمسك بالرغيف الحار وأشمّه قبل أن أبدأ به.

- جارتنا تخبز أيضاً لكن خبزها لا يشبه هذا الخبز أبداً.. لهذا الرغيف رائحة مميزة

- هذا صحيح لأن جارتكم يا ابنتي تخبزعلى التنّور الحديدي وهذا يفقد الخبز طعمه ونكهته، نحن لا نحب الحديدي بل الطّيني وهو أكثر بركة أيضاً.. نحن نشجره من الحطب المتوفر لدينا في الحقول، أما الحديدي فيحتاج إلى الغاز وهذا صعب في أزمة الغاز كما تعرفين، فالغاز بالكاد يكفي الطبخ وأحياناً كثيرة حين يأتينا ضيوف نطبخ على الحطب أيضاً..

تصب الشاي لي وتكمل:

- هنا تعلمنا أن نقتصد كثيراً في النفط والغاز والوقود أيضاً لأننا بعيدين عن المدينة كما تعلمين

تكمل كلامها وهي تضع أمامي قدحاً كبيراً من الشاي الذي تنبعث سحابته البيضاء رائحة الهيل.

- شكراً، لكنني لا أشرب الشاي صدقيني

- لا تفطرين ولا تشربين الشاي، كيف تعيشين إذن؟

يا له من سؤال؟ كيف أعيش؟ تنقذني ابتسامتي وحبال الكلمات مرة أخرى فأقول لها وأنا أشرب الشاي بنهم واشتهاء:

– أنا أشرب القهوة لكنني اليوم سأشرب الشاي إكراماً ليديك الكريمتين التي أعدته لي

– (عافيات) ولا تشربي القهوة مرّة أخرى فهي لا تشرب إلاّ في العزاءات ولا أطيب من الشاي في الصباح، عديني ألاّ تشربي القهوة مرّة أخرى

– إن شاء الله

تضع العسل أمامي وتقرّب صحن البيض والقيمر وكأنني طفلة.

– كلها قريبة لا تتعبي نفسك يا خالتي، عذراً لساني متعوّد على هذه الكلمة

– لا بأس أنا مثل خالتك فعلاً، أنا مثل أمك يا ابنتي، لقد وضع الله محبتك في قلوبنا جميعاً

تخنقني هذه المشاعر.. سأغادرهم بعد قليل وسيبقى قلبي معلقاً بهم.. أنا لا أصلح لهذه المهنة.. خالتي محقّة.. الكل محقّون.. يجب ألاّ أتعلق بهم هكذا.. إنه شعور غير منطقي..

– حتى بيضكم يختلف عن بيضنا.. لونه أصفر وطعمه لذيذ.. أما بيضنا فشاحب وبلا طعم

– ذلك لأن دجاجنا يسرح ويمرح في الحقول فيتنوّع غذاؤه ويظهر ذلك في طعم بيضه أيضاً

– حتى ألوانه جميلة.. ذلك الديك الذي استقبلنا في مدخل بيتكم كان ريشه ملوناً وذيله طويل يشبه ريش الببغاء، أما دجاج المدن فكلّه أبيض.. وكأنه يرتدي الكفن

تضحك فروحة وليلى ضحكة طويلة.. وأضحك معهما.. ونغيب في شقرة صباح مضمخ برائحة الهيل.. والخبز الحار.

***

بعد ليلة من الغياب أعود لأرى السائق بوجه غير الذي توقعته.. لم تكن ملامحه حاقدة كما تصوّرت.. يريبني ذلك وكأنه يدبّر لي مكيدة ما.. أسأله وهو محاط بالدكتور عبد الله وأشقائه: هل تأكدت من أن الطريق مفتوحة؟ يجيبني بابتسامة غير معهودة:

- نعم تأكدت من ذلك

- لنذهب قبل أن يغلق من جديد

صوته أحبطني.. كنت أتمنى لو أنه يقول إن الطريق لا يزال مغلقاً.. لكنه خذلني.. ابتسامته خذلتني.. أكره لحظات الوداع.. من يدري قد لا أعود إليهم مجدداً حتى رسالة أخرى.. قد يخرج ابنهم من المعتقل وينتفي سبب زيارتي لهم.. قد يموت أحدنا.. قد...

أستدير لفروحة التي تقف قربي وتنتظر توديعي.. لأحضنها بقوة وهي أيضاً.. ألتصق بها.. برائحة السعد التي تفوح من ثنايا سوادها..

يهمس قلبي لعناقنا المعلق بين الرحيل والرحيل: لا تدعيني أفلت من هذا العطر.. لا تطلقيني للريح والأعاصير من جديد.. لكن حبال عناقنا تتقطع الواحد تلو الآخر لتطلقني لصدر الريح وضجيج المدن الكبيرة.. أهمس لها:

- كوني بخير، حافظي على نفسك وسلّمي لي على وضحة العطا الله وليلى.. أين هي كانت تقف هنا قبل قليل مع أم بكر؟

- ستأتين الآن.. سأوصل سلامك يا ابنتي والسلام أمانة وها أنا أحمّلك أمانة أن تعودي لزيارتنا وتسلّمي لنا على خالتك. الآن أصبح بيننا (زاد وملح) وليس رسائل معتقلين فقط.. أستحلفك بالله أن تأتي إلينا مع خالتك.. هذا بيتك أيضاً

أي فرح زرعته في صدري هذه الفرحة الخارجة من تلافيف القرى المجهولة!

تأتي ليلى وأم بكر يحملان في يديهما أشياء لا أميزها وخلفهما

صبي يحمل ديكاً!! صياح الديك العالي المحتج يسبق خطواتهما نحو السيارة التي يسرع السائق لفتح الباب الخلفي لها ببهجة لم يتمكن من إخفائها، فأستوقفه وأنا أتفحص ما بيدي ليلى وأم بكر، كيس أسود لا أميّز محتواه مع قدر ملفوف بكيس وكيس آخر كبير، وأم بكر تحمل كيساً ملوناً لا أميّز محتواه أيضاً، أطلب منهما أن يعيدا كل شيء حيث مكانه لأننا لا نأخذ مقابلاً أمام ما نقوم به. فيجيبني صوت فروحة الغاضب:

- هذا ليس ثمناً، كيف تتصورين ذلك؟ لكن هذا واجب الضيافة، ألست ابنة (عرب) وتعرفين تقاليدنا؟ حتى النبي عليه الصلاة والسلام قبل الهدية

- أرجو أن تعذروني، لكن في عملنا تعرض علينا أحياناً مثل هذه الأمور ونخشى أن تؤول و..

يقطع كلامي صبي آخر وهو يحمل كيسين كبيرين يضعهما بسرعة في السيارة، وتتبعه ليلى وأم بكر ليضعوا بقية الأكياس. يقول الصبي للسائق وهو يضع الكيسين:

- هذه لك والبقية للست

يبتسم السائق فأعرف سرّ بهجته الصباحية وأطمئن. يهمّ الصبي الآخر بوضع الديك الذي رأيته عند دخولنا للمنزل وحدثت فروحة عنه، لكنه هذه المرّة مكبّل القدمين ويصيح ويستغيث بصوت عال، أسأل فروحة باندهاش:

- وما هذا؟

تأخذ الديك من الصبي وتضعه في السيارة وتغلق الباب بإحكام:

- هذا لك، اعتني به واشتري له دجاجة لتحصلي على بيض محسّن، سيذكرك بنا وهو ديك شجاع

- لكن أنا لا أعرف كيف أربي الحيوانات وهو سيشتاق إلى عائلته

عندكم وأجوائه و...

يقطع كلامي ضحك فروحة والجميع:

- هل تسمين هذا الديك حيواناً؟ يا ابنتي إنه يشبه الحمام، يشبه الطيور، والعناية به سهلة، أعطيه بقايا طعامكم وستجدينه قنوعاً

- يطمئنني كلام فروحة قليلاً، لكن فكرة أن ديكاً مكبلاً في السيارة سيرافقنا توجع قلبي

يغلق السائق الباب الخلفي للسيارة بعد أن يفتحه ويغلقه من جديد ليتأكد من إحكامه ويصعد بعد أن يودع الجميع، حان دوري للوداع، أقبّل ليلى التي أميّزها من خلف نقابها، فهي فارعة الطول، وأقبّل أم بكر التي أميّزها لامتلاء جسدها، ولا يمنع النقاب عطر المحبة الذي يفوح منهما، أهرب من مشاعري إلى السيارة ويدي تلوّح لهم.. لوجهي الذي بقي عالقاً على النافذة وهو يرقب ملامحه التي تأبى أن ترافقه.. وأنطلق.. رصاصة هاربة في قلب الريح..

رصاصة في قلب الريح

(.. سأعبّئ حقيبتي بالرماد وأمضي..
فقد انفجرت القنابل الموقوتة في قلوبنا
وأسفرت عن كل هذه الحرائق التي تأكلنا
بصمت..
وهذا الرماد الذي أعبّئ به حقيبتي السوداء..
ليس إلا ما أتت عليه النيران..
ينتابني الخوف وأنا أغلق الحقيبة على آخر
قطعة سواد..
البدايات أكثر ما تخيفني..
أما النهايات فتأتي بسهولة وسرعة مباغتة).

تنطلق السيارة بنا.. ننزلق فوق المنعطفات التي صعدناها بلهفة الاكتشاف وسحره... وتنزلق وجوههم من أمامي كشريط تعرضه نافذة السيارة المبللة بالندى.. صوت الديك يعلو ويرافق مسيرنا الذي يشبه الدبيب فوق الشوارع الناعمة..

يبادرني السائق:

– لن تتمكني من الاعتناء بهذا الديك، سيسبّب لكم المشاكل مع الجيران فأجنحته طويلة وسيهرب من بيت لآخر

– حقاً؟

– نعم لدينا «قنّ» للدجاج ونعاني ما نعانيه من مشاكل الدجاج.. يجب أن نقص أجنحتهم بين حين وآخر وأن لا ندعها تخرج من الباب الخارجي للمنزل لكي لا تهرب بعيداً، إضافة لحيرتنا في تجميع الطعام لها، زوجتي تجمع الخبز اليابس وتبلّله بالماء ليكون غذاءً ملائماً

– هذا عمل متعب فعلاً

– إذا أحببت أريحك من تعبه وأضمه للدجاج الذي عندي

– بودّي ذلك، لكنه هدية كما تعلم

– كما تشائين

ويرتفع صوت الديك العالي في السيارة فيقرصني قلبي.. ماذا لو أنزلته في أي مكان في هذه الحقول المترامية على جانبي الطريق؟ أخشى أن يموت.. أو ربما يعود إلى فروحة وتعرف أني فرطت في الهدية! لا لن أتخلى عنه..

يعاود صياحه كأنه يستنجد بي أن أعيده حيث مملكته الخضراء

وهيبته ودجاجاته الحمر.. أدير رأسي نحوه وأقسم له بصَمتي أني لن أخلع عنه تاج ذكورته في بيتنا، بل سيكون الملك الوحيد فيه.. فبيتنا لم يشهد ذكراً على مرّ تاريخه وسيكون هو رجلنا الوحيد.. وأنيس صمتنا وخوائنا..

السيارة تمضي.. والديك يواصل احتجاجه في رأسي.. من يدري لولا هذا الديك أي حزن كان سيكبّلني وأنا أسيرة ذلك الحلم الأخضر..

تتباطأ حركة السيارة في الزحام وهي تعبر القرية لتواصل سيرها في الشارع العام..

– أخشى أنهم أغلقوا الطريق مرّة أخرى

– لا، لكن السيارات تسير ببطء، أتصوّر أن هنالك رتلاً

– يا إلهي لن نصل حتى الليل إذا بقي الرتل أمامنا

– لا أعتقد، فالقاعدة الأمريكية قريبة من هنا حتماً، إنه متجه إليها، هذا الطريق مليء بالأرتال

أحاول رؤية العائق الذي أمامنا والرتل لكن الشاحنات التي أمامنا تحجب رؤية بقية الشارع.. ينفرج الزحام تدريجياً حتى نصل النقطة التي تتجمع فيها السيارات، نقطة تفتيش لم تكن موجودة حين أتينا، يسألنا الضابط:

– من أين أتيتم؟

– من قرية الزويّة

– ماذا لديكم هناك؟

– نحمل رسائل المعتقلين

– إلى أين تذهبون؟

– عائدين إلى المدينة

– من أين أتيتم، أنا هنا منذ الصباح ولم أشاهدكم؟

– أتينا من المدينة البارحة، وبسبب انقطاع الطريق اضطررنا للبقاء في القرية

يحمل جهازاً صغيراً يدور به حول السيارة ببطء. يضيق صدري بشكوكه وريبته، فيما يجلس القتلة في المصفحات الأمريكية بقربه..

يعلو صوت الديك فيمد الضابط رأسه من النافذة باستغراب:

- ما هذا، رسالة معتقلين؟

- بل رسالة مفخخة

يرمينا بشبه ابتسامة مرتابة ويدعنا نمضي.. ننطلق في قلب الشارع الذي أتأمل إسفلته وهو يتلاشى تحت عجلات سيارتنا المسرعة نحو الضوضاء.. الضجيج.. الأفواه التي تتحدث ولا تقول شيئاً.. لأحمل همّاً كبيراً في صدري كلما تذكرت خالتي وعتابها.. مدير الجمعية الذي أسأل عنه السائق ولأول مرة منذ ذهابنا للقرية.

- لا أدري لماذا لم يتصل المدير ليطمئن على السيارة.. أعني علينا

- لقد اتصلت به وأخبرته أننا مضطرين للمبيت في القرية وأعطيته اسم وعنوان البيت الذي استضافنا

- جيد لكي يعرف بإحداثياتنا على الأقل

تنطلق السيارة بسرعة خوفاً من أن يغلق الطريق مرة أخرى، وهذه المرة لا قرى تحتضننا ولا حقول، فقط الشارع ومساحات هائلة من الفراغ والأرض اليابسة التي تحيط بنا.. لا يطول سيرنا حتى نجد أنفسنا أمام سيطرة المدخل للمدينة. هذه المرة لا يسألنا أحد بل يجعلنا نمرّ بسرعة ولا يسألنا الضابط كما يفعل مع الجميع. يعلق السائق منتشياً:

- يظننا أمريكان، لهذا جعلنا ندخل بسرعة

- والذي قبله، ماذا تصوّرنا لكي يحقّق معنا؟

- عرف أننا لسنا أمريكان

أردت أن أنفجر ضحكاً.. يأساً.. سخرية.. لكن صوتي خذلني. ذلك لأنني تعلمت أن أكون.. بلا صوت.

* * *

أمام الباب المتأرجح أبداً بذيول الرياح والعواصف، تقف السيارة وأنزل منها محتشدة الذاكرة والأكياس.. أكياس لا أميّزها، وحده الديك يصيح بفصاحة غربة وشيكة انتقلت مني إليه..

أدخل الأغراض إلى البيت وكمن يدخل الممنوعات يحمل السائق الديك ويضعه في الحديقة.. يوجعني ريشه وهو يتمرغ بأرضية حديقتنا المهملة وهو مقيد إلا من صياحه الذي بدأ يعلو.. أطلب من السائق أن يفك قيده ويدعه ينطلق، ورغم تردده في ذلك لأن جناحه طويل إلا إني أصرّ على منحه الحرية وليطير حيثما يشاء.. يفكّ السائق قدمه ويدعه ينطلق في الحديقة.. ذهاباً وإياباً في حركة ذكورية اكتشافية لم تطأ حديقتنا من قبل!

يذهب السائق وأبقى أنا والديك لوحدنا في عراء الحديقة.. هو يستكشف المكان وأنا أعيد اكتشاف ألوان ريشه الملون.. كيف كنت أكره دجاجة علاوي وأهدد بذبحها! ربما لأنها كانت دجاجة.. ولأنه ديك.. ألوان ريشه تتبدل مع ما ترسله أشعة الشمس الناعسة كلما خاتلت الغيوم المتجمعة في قلب السماء.. وأتذكر المطر.. إن أمطرت أين سيذهب هذا الديك الوحيد المسكين؟ لا يمكن إدخاله البيت. ولا يبيعون بيوتاً للديكة! هل أودعه عند بيت أم علاوي مع دجاجاتهم؟ لا.. سينتقمون منه كما كنت أنتقم من تلك الدجاجة المزعجة وأطردها من بيتنا بكل ما تسطو عليه يدي من أحذية وأدوات تنظيف.. لن أدعهم يذلّونه بسببي، يكفي إذلال الغربة.. ورائحة الحقول التي سيفتقدها طويلاً في هذه الحديقة الجرداء.. سأبني له بيتاً.. ولتذهب مرة أخرى دجاجة علاوي العانس إلى الجحيم.

***

أستبدل ملابسي بسرعة وآخذ الأكياس للمطبخ لاكتشاف محتواها. الكيس الكبير ملفوف بعناية وبقطعة قماش مربوطة حوله وهو كيس لخبز تفوح رائحته في أنف ذاكرتي وهي تسترد طعم ذلك الإفطار الذي سيظل يلاحق جوعي بلا هوادة..

إنه خبز (عرب)، خبز القرى الذي اشتركت فيه كل مكونات الطبيعة من أشجار وماء ودقيق ويد عجنته بملحها المقدس لتمنحه هذا الطعم الشهي.. وكيس آخر فيه قدر صغير ملفوف ايضاً بقطعة قماش أفتحه لأرى اللبن بتلك الطبقة الشقراء التي تعلوه بطعم القشطة.. يا لكرم هؤلاء الناس الطيبين..

يبقى الكيس الأخير وأجد فيه قطعة قماش أخرجها لأتبيّن ملامحها.. فيأخذني ورده الأحمر بألوانه الذهبية على أجنحة ذلك العرس البهيج.. حيث سعد خاشوكة والدبكة وبنت الشيخ.. يا لذاكرتي التي تسرّب ما تشاء وذاكرتهم التي لا تنسى!

أحمل الفستان وأعلّقه في درجي.. لم أشعر بأني أنثى وجميلة إلا حين ارتديت ألوانه الزاهية.. في ذلك الحلم.. العرس.. يبدو لونه مغايراً ومميزاً، فكل ملابسي بالأبيض والأسود. كأنها فيلم قديم.

تدق ساعة غرفة الضيوف الكبيرة التي تشعرني أنني أجلس عند أبواب أحد المراقد الدينية لصوتها العالي الذي يشبه دقات أجراس الكنائس.. لكن دقاتها هذه المرة فيها وقع مضاعف.. إنها منتصف الظهر، وهو موعد عودة خالتي من المدرسة.. عودة العتاب والزعل والشجار أيضاً.. عودة الكلام الذي يسير في الاتجاه المعاكس.. أشعر بالضّيق فأهرب إلى الجانب المعاكس من الذاكرة فيبزغ فرحي حين أتذكر الديك والمنزل الذي سأشيّده له بكل ما أوتيت من جهل..

أسمع صوت الباب الخارجي.. يخفق قلبي... لماذا أنا خائفة؟ ما هو أقصى شيء ممكن أن يحدث مع خالتي؟ إنها لم تضربني يوماً ولن تصل الأمور إلى هذا الحد.. وعليّ أن أتصرّف بكل هدوء ونضج.. تفتح الباب وتدخل لتجدني أمامها، أهمّ بالخروج.. تحمل صمتها وتدخل إلى غرفتها.. ياه.. كم كان صمتها فادحاً! تعرف تماماً كيف تسدّد لي عقابها الذي لن يشبه أبداً عقاب الأمهات..

أخرج للحديقة.. أهرب إليها.. إلى أشجارها العارية.. ثمة كائن يشاركني الحياة هنا.. يحمل لي ذكرى وحيوات ما تزال

تسكنني.. أبحث عن الديك في المكان الذي تركته فلا أجده. أصاب بالهلع.. أجوب الحديقة مثل أم أضاعت ابنها.. يا لحزن الأمهات.. أحمد الله أني لست أمّاً لكي أنوء تحت هذا الحمل الهائل من اللوعة والخوف.. كان الله مع حزن الأمهات المنكوبات..

أين ذهب ديكي؟ هل يمكن أن يكون طار إلى الجيران كما حذّرني السائق؟ أستدير إلى الفناء الخلفي للمنزل لأصعد الجدار الفاصل بيننا وبين الجيران وأفاجأ بوقوفه على السور.. يتمشى مثل ملك وبخطوات واثقة.. مطلقاً العنان لصياحه المنظم وكأنه ينشد أنشودة جديدة يتباهى بها أمام الجيران..

***

المنزل.. سجن مؤبّد لصوتي.. لأجنحتي التي تتطلع بحسد إنساني كبير لأجنحة الديك.. حسد يرافق خطواتي المتباطئة نحو الداخل ويجعلني أتمنى أن أكون دجاجة تشاطر الديك وقوفه المهيب فوق السياج لا تحته. لا تزال خالتي في غرفتها تبدّل ملابسها، أنتظرها في المطبخ حيث أبدأ بترتيب الأطعمة التي جلبتها معي من القرية.. أسمع خطواتها تتجه صوب المطبخ قبل ذهابها للحمام.. أعرف أنها حانقة وتريد أن تنفجر بوجهي، فلتنفجر، أنا أيضاً أحتاج لأن أنفجر بكل الخوف.. القلق... الهواجس، الشعور القاتل بذنب مجهول.. تقف عند باب المطبخ ولا تدخل.. تراقبني وأنا أرتّب أرغفة الخبز لأضعها في البراد. وأخيراً ينطلق صوتها.. رصاصها المغلف بالكلمات:

– لأجل رغيف الخبز الرخيص هذا تضحين بسمعتنا ومستقبلك؟

يخترق رصاصها قلبي.. وصوت أولئك الطيبين البسطاء الذين حمّلوني سلاماً قتله رصاصها.. لا أعرف بماذا أجيبها.. أتطلع إليها بذهولي.. ملامحها كلها متغيّرة، يبدو أنها لم تأكل منذ البارحة.. ألوذ بالصمت وأتشاغل عنها بترتيب الخبز.. يعلو صياحها.. كأنها ترى في صمتي انتقاماً لا أجيده..

تقترب مني وصياحها يعلو.. لأول مرة أراها غاضبة إلى هذا الحدّ.. كان فرحي كبيراً في تلك الليلة، ولا بدّ أن يكون عقابي أكبر.. تأخذ الخبز من يدي وترمي به على المنضدة القريبة، يذهلني تصرفها فيخرج صوتي بكل خيبته وغضبه:

- ما الذي تفعلينه؟

- جعلتيني أخرج من جلدي وعقلي.. لا أعرف كيف أواجه الناس والجيران والكون حين يعرفون أنك نمت في بيت غريب في مكان بعيد لوحدك؟ هل تعرفين معنى هذا الكلام حين يقال عن امراة؟ هل تعرفين الوصمة التي ستوصمين بها وكل عشيرتنا؟ هل فكرت وأنت تمارسين هذا الاستهتار المقنع بعواقب ذلك عليك؟

- خالتي

- كل يوم أقول لنفسي.. تحمّليها إنها أمانة في عنقك.. إنها ابنة شقيقتك التي لم تكوني تشبهينها مطلقاً، كل يوم أحلم بأنك ستكبرين وتعيشين مثل البقية، لكنك بقيتِ أسيرة عنادك والتفاهات التي تملئين بها رأسك، ترفضين الزواج وترفضين العمل المحترم وترفضين كل ما أريده لكِ

- يكفي أرجوكِ

- لقد متّ مرّات ومرّات بسببك والذنب ذنبي لأني أفسدتك بالدلال الزائد، وها أنا أحصد ما زرعت.. سمعة سيئة على آخر عمري، حسبي الله ونعم الوكيل

تستمر بتوكيل الله عليّ.. ويستمر دويّها.. بينما تستمر قدماي بالركض نحو غرفتي.. ملاذي الأخير.. صوتها يلاحقني.. رصاصها يتبعني.. لم أعد أفهم ما تقول.. لا أريد أن أسمع.. أتمنى أن أصاب بالصمم.. أقفل الباب خلفي خوفاً من أن يدخل طوفانها ويستحوذ على آخر أنفاسي.. أدفن رأسي تحت الوسادة.. يرتفع نشيجي.. الذي يشبه أنين حيوان جريح.. تسيل الوجوه مع ينابيع الدمع المتفجرة منذ صمت طويل مجدب إلا من الأكاذيب.. الكثير من

الأكاذيب التي كنّا أنا وهي نعلّل بها إقامتنا االجبرية معاً في زنزانة تحمل عنوان بيت.. يؤلمني صوتي وهو يستردّ بكاءه القديم.. بكاء طفلة اكتشفت أني لم أكبرها بعد.. يطعنني اليتمٍ في كل مسامة من مساماتي وألوذ بملوحة الدمع لعلها تطفئ شيئاً من الحريق الذي أشعلته تلك المرأة التي تصورتها لفرط حرماني أنها خلفاً لأمي.. الظلمة تكتسحني من كل جانب ولا أسمع سوى صدى البكاء يرتدّ بين شقوق الجدران القديمة..

***

لا أعرف كم من الساعات قضيتها تحت الوسادة في بكائي الذي استيقظت على جفاف ملوحته فوق وجهي.. الغرفة مظلمة.. أزيح الستارة لأتنفس الهواء... الشمس تغيب في الأفق البعيد مثل أحلام كثيرة.. فجأة.. ينتصب الديك أمام حزني ويتمي ولا يتحرك.. كأنّنا في مناظرة حزن صامتة.. يبزغ شيء في قلبي.. أتذكر أني لم أطعمه منذ أن جلبته لهذا المعتقل.. لا أستطيع الخروج إليه لكي لا أتلقى المزيد من الرصاص.. أتذكر أني أضع بعضاً من البسكويت في حقيبتي.. أحضره له وأكسره إلى قطع صغيرة.. أرمي له ببقاياه من الشباك.. ينقر بعضها.. ويكتفي.. أتذكر كلام فروحه حين قالت إنه قنوع.. أو ربما لم يعجبه الطعام.. وإن الضيافة لم تكن بمستوى ظنه.. لكنه يشاطرني يتمي.. كلانا بلا أهل.. بلا حبيب يهمس لنا ولو كاذباً إننا عالمه وكونه.. وإننا معنى الحياة وهواؤها الذي لا تصحّ بدونه..

لا أحد ينتظرعودتنا وينتظر صوتنا.. لا أحد يهمّه موتنا وحياتنا فكلا الأمرين لا يعنيان أحداً سوانا.. يغادرني الديك وأنا أتلمس عيني المنتفختين من البكاء.. أغلق النافذة.. يسقط جسدي على سريري المبعثر.. وأستسلم للبكاء الهادر من جديد.

يومان مع الغربة تحت سقف واحد! يومان كأنهما دهر بساعاته الثقيلة ولياليه الخاوية وصباحاته الخرساء من الآخرين.. لم أذهب فيها للعمل بل بقيت عالقة في فراشي متدثرة بحزن كثيف، تحججت

بأني مريضة وأخذت إجازة، خفت أن يأتي السائق فتستقبله خالتي بغضبها وربما تطرده فيبث ذلك في الجمعية بل يوصله إلى المركز العام وبإخراج وسيناريو يجعله خبر الموسم.

لا أدري متى تنتهي الإجازة.. في أية لحظة سيتّصل المدير أو يرسل من يتّصل بي للعودة للعمل.. لا أدري كيف سأتصرف.. وأنا أسيرة غرفتي وسخط خالتي.. لهذا الوقت بالذات نحتاج إلى صديق.. الآن فقط أكتشف أهمية الصداقة وضرورتها ليتيمة مثلي.. يتيمة تماماً.. وحدي في هذا المنزل الذي بدأت غربته تأكلني.. أشعر برغبة في الهرب منه.. في الركض.. أريد أن أركض.. لماذا حتى الركض محرّم عليّ فوق هذه الأرض؟ لن أحتمل وجودي معها تحت سقف واحد بعد اليوم.. لكن لا مأوى لي.. لا أعرف أين أذهب، أريد أن أخرج.. أن أتنفس.. أن أرى وجوهاً لا أعرفها ولا تعرف ملامح بؤسي..

لا يزال الوقت مبكراً على عودتها من موتها اليومي.. تلك المدرسة التي ماتت مدرساتها على الرحلة وهنّ يعانقن رتابتهن حتى الشهيق الأخير.. أنهض وأرتدي معطفي الأسود وأشعر بارتياح وأنا أتدثر بسواده.. أية حماقة جعلتني أفكر بتغيير لونه! أحمل حقيبتي وأخرج.. أخرج، أهرب من نظرات الديك مثل أم تغافل طفلها لكي لا يلحق بها..

أنا أشعر بأمومتي لهذا الديك... لكنني أم سيئة لم تستكن في بيتها لأجله ولأجل مستقبله كما تفعل الأمهات الدجاجات حين يُضربن على يد أزواجهن ويذقن المهانة ويرتضينها لأجل أطفالهن ومستقبلهن.. خطواتي متلعثمة لا تعرف كيف تتهجى شارع لم تمر عليه إلا نادراً ومنذ سنوات بعيدة قبل أن تصاب بداء الأنوثة.. كنت أسير عليه في صغري وبعدها جاء قرار خالتي الذي لم أكن أفهمه حين قالت (لن تخرجي بعد اليوم مشياً، سنذهب بسيارة ونرجع بسيارة من الباب إلى المحراب).

وكان السائق.. سجن آخر.. جارنا مؤيد لم يكن لديه شاغل سوى إيصالنا للطبيب والسوق وبعض الزيارات في المناسبات.. حرمني العم مؤيد من التصاقي بهذا الإسفلت الذي يبادلني غربته هو الآخر..

الشارع قديم.. قديم جداً.. ووجهه محفر بالذكريات.. هل يتذكر خطواتي الصغيرة عليه؟ لعبي وأنا أقفز فوق خشونة جلده وألعب الحبل.. كنت أقفز.. وأقفز وجدائلي تقفز خلفي.. ياه.. لا أدري أين ذهب ذلك الحبل.. ربما رمته خالتي مع قطع الذكريات القديمة تحت القرميد.. هناك تجتمع تفاصيل ذكرياتنا وموتانا.. حيث يعانقها العنكبوت.

تقودني قدماي مجتازة فضول الجيران وهم يرمقونني من الأبواب وبعيون أطفالهم الذين يملؤون الشارع بضجيجهم.. لا بدّ أن إحداهن ستتبرع وتخبر خالتي أنها رأتني أسير وعلى غير العادة لوحدي في الشارع عارية من أصفاد العم مؤيد.

لا أرفع رأسي إلا وأنا عند الشارع العام حيث تمرّ السيارات الكبيرة والصغيرة من أمامي.. ترتسم أمامي صورة طفلين بعيدين.. طفلين كانا يشاركانني اللعب.. سعاد وحسن.. يطلّ وجهاهما الآن وأنا أتطلع لإسفلت الشارع وعجلات السيارات وهي تعبرهما بلامبالاة..

يخيفني صوتها المسرع.. أغور في خوفي الذي يتعدى زعيقها المسرع ليقودني نحو دهاليز ذاكرتي الموقوتة.. (هذا ليس وقتكِ)!

لكنها لا تسمع ندائي وتستمر بجرّي نحو ذلك اليوم الرمضاني حين كان حسن وسعاد يحملان الطعام إلى الجيران في الجانب الآخر من هذا الشارع.. وفجأة.. سقطت الصحون من يديهما وتناثر كل شيء.. الرز.. وحسن الذي دحرجته السيارة بعيداً عن صحنه الذي كان يحمله.. وأضحى نثاراً يلتمع تحت شمس الغياب التي غيبته معها..

نهضت سعاد تلملم بقاياها وتصيح بنثار حسن الملقى فوق الرز تناديه وتعاتبه (لقد سقط الرز يا حسن).. لكن حسن ظل صامتاً.. كما الرز.. كما وجهي الذي أقفل شاشته الذاهلة على ذلك المغيب..

تمر السيارات. لماذا لا أعبر..؟ لماذا تتسمّر قدماي الآن.. أريد أن أهرب لكن قدماي تخذلاني.. ربما كانتا تفكران مثلي.. إلاّ سبب يستدعيني لانتظار عبور السيارات.. ليس ثمة من يقلق عليّ ويعاتبني فيما لو قرّرت أن أتناثر مثل حسن.. سيقولون قضاءً وقدراً.. وهي ميتة لا تجلب العار في كل الأحوال.. سيقول المحبون: ربما كانت ذاهبة للطبيب أو لخالتها. وسيقول الثرثارون: لم تكن يوماً فتاة سويّة.. وكان طبيعياً أن تموت هذه الميتة المشينة بعد هربها من البيت ومغافلة خالتها المسكينة حيث كانت في المدرسة. وسيبتكر الآخرون قصصاً أخرى أكثر إنصافاً أو ظلماً.. لكن في كل الأحوال لن يكون هنالك من يقلق.. أو يعمّد موتي ببقايا الدمع والنحيب..

ثمة شاحنة تقترب من الشارع الذي بدا فارغاً وصالحاً للعبور. تقترب بسرعة.. لا تزال أمامي فرصة العبور ممكنة.. لكن بسلام! أمعن في الانتظار... أنتظرها تصل.. لماذا أخافها إلى هذا الحد؟ قد تكون الحد الفاصل بيني وبين عودتي لحضن أمي لأشكو لها غربتي.. قد تكون النقطة الأخيرة على السطر الأخير في حكاية لم يقدر لها أن تقول شيئاً وكان عليها أن تنتهي بهذه السرعة الفادحة!

الشاحنة تقترب.. تكاد تصل.. يلفحني هواؤها المحمل برائحة الكاز... تتحرك قدماي أخيراً.. صورة أمي تبتسم في الأفق.. أبي أيضاً.. خالتي في الخلف بكامل غضبها وسخطها.. لا أدير رأسي نحوها.. أشعر بيديها تدفعاني للشاحنة لتتخلص مني.. نبتة غريبة في حديقتها جاء الوقت لاقتلاعها.. النبتة تخلع جذورها.. تخلع جلدها ووجهها.. تتحرك..

أضع قدميّ على الشارع.. لحظات بيني وبين شاحنة الموت.. الانعتاق.. أعبر.. وصوت الشاحنة الغاضب يخترق أذنيّ.. أغمض

عينيّ بانتظار الموت.. الطائرة التي ستقلني لحضن دافئ طالما حلمت به.. لا أدري كم بقي بيني وبينها.. وبينه..!

يعلو صوت الشاحنة مقروناً بأصوات بشرية.. ربما هي أصوات الموتى الذي غادروني باكراً.. ربما عاد حسن أخيراً ليصطحبني معه ونلمّ الرز المتناثر معاً نكاية بسعاد التي تزوّجت وظلّت تطبخ الرز بين جدران مطبخ عتيق.. لا أشعر بشيء.. الخدر يتسلل إلى كل أعضائي.. ثمة صوت يخترقني... أطرافي متجمدة.. صياح وأصوات منبّهات تعلو في رأسي.. أفتح عينيّ على وجه صاحب الشاحنة وهو يهيل شتائمه عليّ.. وخلفه السيارات ترمقني غضباً وذهولاً.. أطالع جسدي المسمّر وسط الشارع وبيني وبين الشاحنة شهقة واحدة ! حتى في الموت حظي عاثر؟ أهرب إلى الجانب الآخر للشارع.. وتظل نظراتي متسمّرة على السيارات والشاحنة التي خذلتني هي الأخرى.. تعبر السيارات وتستمر بمرورها غير آبهة.. الكل يطالعني باستغراب وفضول.. لا أحد ينثر شعره في المدينة إلا المجانين.. وقد طار شالي الأسود تحت عجلات السيارات.. تتوقف أمامي سيارة تكسي.. يسألني: إلى السوق؟

فأجيبه دون تفكير: إلى المقبرة؟

فيوميء برأسه موافقاً.. وأصعد.. يمعن في استنشاق سيكارته بإدمان.. هل التدخين مريح إلى هذا الحد؟ لماذا لا أدخن؟ لماذا لا أشعل رئتيّ التي شبعت من رائحة البارود؟ يبدو مرتاحاً في إدمانه هذا... مستأنساً بحلقات الدخان المتطايرة في سيارته المتعبة مثله..

تختلط رائحة لفافته مع رائحة الدخان التي تخرجها سيارته وأكاد أختنق.. يرنّ موبايله وأسمعه يدمم بكلمات قليلة :

- نعم
- لن أنسى
- حسناً

ويغلق الهاتف بلا سلام أو كلام.. بالتأكيد إنها زوجته على

الطرف الآخر، فالزوجات وحدهن من يحظين بهذا الحوار الحميم. يقترب من المقبرة.. ندخلها من بوابتها الكبيرة التي سأدخلها ذات يوم.. لم أدخلها ميتة لكني سأدخلها حية.. وبإرادتي. سأتوسد الموتى وترابهم.. ندور بين المقابر. يسألني:

– هنا؟

– إلى الأمام قليلاً

ولا يطول انتظارنا حتى نصل.. لا أميّز قبر أمي وأبي لكثرة القبور الجديدة حولهما. أعطي السائق أجره مضاعفاً فيشكرني بضعفين ويعرض علي أن ينتظرني ليعيدني للمنزل لأني لن أجد في هذا الوقت سيارة أجرة في المقبرة. يبدو عرضه نبيلاً إذ لم يكن يحلم بأجرة مضاعفة في العودة أيضاً.. لا بأس فوراءه زوجه متطلبة، من الواضح أنها سبب في صلعه المبكر. أنزل للمقبرة.. وأترك السائق خلفي يمعن في لفافته بإدمان وانتشاء..

أتجوّل بين القبور.. أقرأ دعاء الموتى وأتلعثم.. أنساه.. ولا أتذكر سوى (أنتم السابقون ونحن اللاحقون). أشعر بأنهم يومئون بجماجمهم ويؤيدونني.. أصل قبر أمي.. وأبي. أجلس بينهما.. مكاني وملاذي الأخير.. أنحني على قدم أمي وأقبّل ترابها وأنشج..

لم أكن أجرؤ على ذلك أمام خالتي. الآن انفتح صمبور الدمع وليس من أحد قادر على غلقه.. يخرج صوتي:

– كنت أريد أن أزوركما في ملكوتكما الأبيض لكن الشاحنة كانت جبانة.. خافت هي الأخرى أن تتورّط بي.. هل رأيتما الآن كم أنا وحيدة في غيابكما؟

أكاد أسمع صوت أمي وأبي يدعوني للعودة إلى البيت.

– لا لن أعود إليها.. هذا ليس بيتي ولن أعود

يتواطأ صمتهما مع حزني.. إلى أين أذهب؟ أجهش بالسؤال والدمع على قبرهما من جديد، فيتراءى أمامي وجه سروة.. صديقتي وقريبتي الوحيدة.. طالما كنا شقيقتين في كل شيء.. ربما بإمكانها

أن تستضيفني عندها لأيام حتى أجد مأوى وعملاً.. هي في بغداد وأنا أحب بغداد.. وهي وحيدة وكانت تعاتبني دوماً لأنني لا أزورها وأذهب لقضاء العطلة عندها.

أخرج الموبايل وأبحث عن رقمها وأنا أمسح بقايا دموعي المعفرة بالتراب.. تراب أمي ورائحتها.. يظهر اسمها على شاشة موبايلي الصغيرة.. كأنه حبل خلاص تمدّه السماء ليأسي. أتصل بها.. وما هي إلا لحظات.. فيظهر لي صوتها المعاتب:

- أخيراً تذكرت أن تتصلي بي؟

أحييها وأعبر عتابها مباشرة وأسألها:

- سروة، هل يمكنني قضاء بعض الأيام معك، لدي ما أنجزه في بغداد وأحتاج للبقاء لعدة أيام

تجيبني بفرحها وسعادتها وهي تطلب مني معرفة موعد قدومي إليها:

- لا أعرف ربما غداً.. بل على الأرجح
- أنتظرك بشوق كبير، حازم ذهب إلى سوريا للاستفسار عن طبيب الأنابيب كما تعرفين وأمامنا وقت كاف نقضيه معاً، لا أصدق أنك ستأتين لزيارتي أخيراً وسنقضي اللّيل في السهر والضحك والذكريات

يبدأ صوتها يتقطّع.

- سروة لا أسمعك

ويغيب صوتها بسبب ضعف الشبكة.. أتطلع لقبر أمي بامتنان كبير، وأعود لأقبّل ترابه. ينتابني شعور مخيف بيتم آخر.. سأفارق قبرهما أيضاً.. قدري أن أولد بلا مأوى.. بلا يد تمسّد أحزاني وتشذب أضافرها الطويلة.. أضع رأسي على قبر والدي، فيخرج من أنفاسي وجه رجل بعيد أحببته ذات كابوس.. حلم.. هذيان ما.. أعترف له:

- لم يكن هو من أحببته.. كنت تفصّل لي رجل حياتي القادم ليملأ

الفراغ الذي تركته.. لكن الفراغ كان أكبر منه.. وكان هو أصغر من أوهامي بكثير.. لذلك غاب وجهه عند أول صحو.. كنت أشهق بحبه للأعالي حيث ترقد الآن.. وكان يجرّني بكل دبقه إلى أسفل الأرض.. إلى اللهاث، إلى طقوس الولائم التي تقام احتفاءً بالجسد.. فيما كانت ترتفع روحي نحو تلك الأعالي.. بحثاً عن وجهك في ملامحه.. عن صوتك في حروفه.. عن دفئك في شهوته.. كان الرجل الخطأ.. كما إني امرأة في زمن ليس زمنها.. أنا نبتة غريبة في أرض غريبة في فصل أجرد

يعود صوت الحيوان الجريح يخرج من فمي.. ذلك الأنين المرعب يرمي بانكساره بين قبرين.

***

يومان من الصمت القاتم أزهرت فيه كل مشاعر الخيبة والرفض والنفور. لم أخرج من غرفتي إلا للحمام الذي أذهب إليه مرغمة.. توقّعت أن تضع لي الطعام كما يفعلون للسجناء أمام غرفهم أو ترميه من النافذة.. لكن غرفتي بلا نوافذ ولا سماء ترمي لها الرطب والثمر..

أجبرني الجوع على التسلل إلى المطبخ في فترة غيابها.. كل الأشياء تحمل صوتها.. حتى الثلاجة لم أتمكن من فتحها، فقد شعرت أني لصّة تتسوّل بقايا طعام.. بقايا حنان مستحيل.. لم أتمالك شعور المهانة الذي انتابني وأنا أتسوّل الطعام من البراد.. فعدت أدراجي إلى غرفتي، وقبل أن أخرج من المطبخ وقعت عيناي على كيس الخبز الذي جلبته من القرية. كأن فروحة تفتح لي خزائن حنانها القروي بعدما أغلقت المدينة أبوابها في وجهي.. يا للدفء!

كان الخبز لا يزال محافظاً على طراوته بحكم بقائه داخل الكيس.. أخذت رغيفاً بسرعة وخبأته تحت ذراعي ومضيت به نحو غرفتي.. أكلت منه بشراهة طفل يلثغ رائحة أمه وحليبها بنهم لذيذ..

لم يكن خبزاً عادياً.. كان معجوناً برائحتهم وأصواتهم وطيبتهم وبهاء ذلك الفرح الذي ما زلت أدفع ثمنه باهظاً..

يوشك اليوم الثاني للصمت على الانتصاف وهو الوقت الذي يفترض أن أجهّز فيه أغراضي وأسافر لبغداد التي لم أشاهدها منذ الاحتلال.. وكنت قد أقسمت أني لن أطأها ما لم يخرج منها آخر جندي أمريكي محتل... لكنني مجبرة على رؤية دمارها.. يجب أن أتخلّص من احتلالي أولاً وأسترد ذاتي المصادرة وبعدها أعود وأطالب بحق الوطن في الحرية الكاملة.. بعد أن أكون بكامل حريتي أيضاً. أتطلّع إلى خزانتي الشاحبة.. الكثير من الملابس السوداء والرمادية. سأعبئ حقيبتي بالرماد وأمضي.. فقد انفجرت القنابل الموقوتة في قلوبنا وأسفرت عن كل هذه الحرائق التي تأكلنا بصمت.. وهذا الرماد الذي أعبئ به حقيبتي السوداء.. ليس إلا ما أتت عليه النيران.. ينتابني الخوف وأنا أغلق الحقيبة على آخر قطعة سواد.. البدايات أكثر ما تخيفني.. أما النهايات فتأتي بسهولة وسرعة غير متوقعة.

كيف سأخرج؟ وكيف سأصل بغداد في هذه الشوارع المعبدة بالموت والخطف والمفخخات والألغام المزروعة على الجانبين؟ إنها (سكة الموت) التي كنّا نسعد بصعودها في مدينة الألعاب.. لكن بموت حقيقي لا يعرف المداعبة!

ارتديت معطفي الغارق في سواده وخوفي ووضعت شالاً أسود على رأسي وحملت حقيبتي. أغلقت ستائر الغرفة بعدما اطمأنيت أن الديك لم يرني.. كأنه يتواطأ معي ليمنحني فرصة الرحيل بلا ألم.. أحاول وأد ذاكرتي بعدم النظر إلى الأشياء التي رافقتني ورافقتها زمناً.. حتى وسادتي بدت لي كأنها تعاتبني وتطالبني بأخذها معي.. السرير الذي يصطك تحت جسدي كلما انقلبت عليه في النوم.. الكتب التي دمرت حياتي كما تقول خالتي.. ألبومات الصور. لا شيء معي.. سأخرج عارية الذاكرة.. أو.. هكذا سأدّعي!

***

عند الباب الخارجي أقف.. أتطلع للمنزل من الخارج وأتذكّر المقبرة الصاخبة.. حتى المقبرة أكثر حياة منه.. أرمي بوحشة النظرة الأخيرة على جثة المنزل وأمضي مزدانة بالدموع التي نزلت مرغمة.. قد تكون دموع السماء هي التي هطلت على وجهي بعدما تحجّرت عيوني على بئرين فارغين من الدمع...

أغلق الباب الخارجي وأتذكّر أنه لا يغلق أبداً، بل اعتاد أن يتأرجح في الهواء ويعانق صوت صريره.. أحاول حمل حقيبتي فلا أستطيع لثقل السواد الذي عبأتها به.. ما إن أحركها قليلاً لأنزلها من عتبة الباب الخارجي حتى تقف أمامي سيارة تنزل منها خالتي لتقف أمامي بكامل دهشتها.. أصدم بوجودها، فلا يزال دوامها في بدايته فهو مسائي.. تغادر السيارة ونبقى أنا وهي في شارع يغسل المطر كلّ سواده إلا منّا.. يريحني أن تشاهدني مع حقيبتي.. أترك لها كل شيء.. ميراث الخواء واللّاجدوى.. ميراث العيب والخرافة التي طوقتني بها فبتّ أرى كل فرح خيانة وكل حلم طعنة في الصميم... يخرج صوتها بصعوبة ومتقطع وهي تقترب مني:

- إلى أين تذهبين؟

يخرج صوتي بصعوبة أيضاً وأنا أقول لها كأني أهمس لنفسي:

- أترك لك كل شيء وأرحل.. لا أريد أن أدمر حياتك أكثر وأسبّب لكم فضائح أكثر

يضيع صوتها، تحاول شفتاها أن تتمتمان بكلمات تعجز عنها.. تسقط دموعها.. بل تتدحرج على وجهها ولا تبلّله.. يسقط من يدها كيس مليء بالطعام.. يصطبغ وجهها باللون الأصفر وأشعر بأنفاسها التي تضيق.. بين سوادها وسواد الحقيبة أقف.. نقطة حائرة لا تعرف خطوتها الثانية.. تتجه نظراتها نحو كيس الطعام الذي سقط من يديها.. بالكاد أسمع صوتها الخائب وهو يهمس:

- الطعام الذي تحبين

كان يكفيها أن تنطق بهذه الكلمات لتجعلني أنهار ببكاء

حارق.. تحوّل إلى نشيج. في شارع كان قد تحول فجأة إلى منصة للبكاء.. كنا في منازلة للنحيب..

انغرزت سكاكين كلماتها في صدري.. وعاد ذلك الأنين الجريح يخرج من حنجرتي المجروحة ببكاء ليلتين لم يشرق فيهما بشري قط.. نظراتي تجوب الشارع بأملٍ حبل للخلاصٍ من دائرة الموت التي تبتلعنا.. أحاول أن أرتق شيئاً من جراحنا معاً:

- هذا هو الحل الأفضل لكلينا.. لم تعد الحياة تتسع لنا معاً في منزل واحد مع كل هذا النفور من الآخر والرفض.. لن أستطيع أن أعيش في عالمك بعد اليوم.. أرجوك لا تجعلي الأمر صعباً أكثر.. أعرف انك ستنامين بلا قلق بعدي.. سترتاحين من هذا الحمل الثقيل.. هذه التركة التي تركتها لك أمي.. أنا نبتة ضارة وغريبة.. وبدلاً من أن أشكرك طوال تلك السنوات، ها أنا أسبّب لك الغصّات والألم.. دعيني أدعي الحياة بعيداً.. أرجوك..

تتحرك بصعوبة من أمامي كأنها لا تراني.. تمسك بالباب المتأرجح وتستند عليه بصعوبة لتدخل.. وعند العتبة تسقط.. أصرخ بكامل رعبي أمام جسدها وهو يهوي أمامي.. شفتاها تكتسيان بالبياض ويداها متيبستان.. أحاول سحبها إلى الداخل ولا أستطيع. أسمع فجأة صوت أم دعاء جارتنا وهي تصيح وتساعدني في سحبها إلى الداخل. ندخلها بصعوبة إلى المنزل وبكاؤنا يسابق لهاثنا.. تطلب مني أم دعاء كأس ماء، فأحضره لها بسرعة من المطبخ. تبدأ ترشّ الماء على وجه خالتي ولكنها لا تستجيب. أصيح بذعر:

- ماتت؟

تهدّئني وهي تطلب مني زجاجة عطر:

- إنه ارتفاع في الضغط.. تأتينا الكثير من هذه الحالات في المستشفى، اهدئي واجلبي لي حبوب الضغط بسرعة

- لا أعرف أي حبوب، ليس لدينا حبوب ضغط

- إنها في حقيبة خالتك، أسرعي

أحمل ذهولي وأخرج للشارع وأحمل الحقيبة وكيس الطعام. أبحث في الحقيبة فأجد شريطاً من الحبوب أعطيه لأم دعاء التي تمسك برأس خالتي وتحاول أن تفيقها:

– نعم هذا هو

أعطيها زجاجة العطر التي أجدها في حقيبة خالتي أيضاً فتبدأ بإيقاظها به.. تفتح خالتي فمها وتتمتم قليلاً.. نحاول رفع رأسها للأعلى لكي تبتلع حبة الضغط، تساعدها أم دعاء فتنجح.. تفتح خالتي عينيها نصف انفتاحة.. وتعود لتغمضهما.. تستمر أم دعاء بتهدئتي.. ويخيّم الصمت.. حول جسد خالتي الممدد نتحلق أنا وهي في حزن صامت.. لا أدري بماذا أجيبها إن سألتني عن حقيبة السفر التي في الخارج.. أو وقوفنا ودموعنا في الشارع.. أو سبب الأزمة التي كنت سببها.. طالما كانت امرأة هادئة وغير فضولية، لهذا كانت محطّ أسرار خالتي التي اكتشفت أولها بعد أول انتكاسة لها.. لا عجب إذن من تلك الأسرار التي يفصح عنها الموت.. وهذا أول الاكتشافات، فلم أكن أعرف قبلاً أنها مصابة بالضغط ولا أدري لماذا أخفت عني هذا الأمر.. وما قد تخفيه من أمور أخرى..!

تمر الساعة ثقيلة وأتشبّث بأم دعاء كي لا تذهب وتتركني وحدي مع خوفي، رغم حرصها على بقائها معي وعدم تركي.. فكرت أن أستدعي سيارة الإسعاف لنقل خالتي للمستشفى، لكن أم دعاء استوقفتني مؤكدة أن هذا التصرف سيزعج خالتي حين تصحو فاستسلمت لرغبتها... حتى وهي نائمة..

نهضت أم دعاء وأخذتني معها للمطبخ.. كانت تقودني وكنت أشعر بارتياح لأن ثمة من يرسم لي خطوتي هذه المرة.. فقد كنت مرتبكة.. وحزينة.. وخائفة أيضاً.

بعد ساعة تقريباً استيقظت خالتي وحاولت النهوض بصعوبة بعدما قامت أم دعاء بإيقاظها، بدت في حالة جيدة رغم الشحوب البادي على ملامحها.. وضعت أم دعاء الحساء أمامها وراحت

تحاول أن تطعمها، لكنها أخذت الملعقة منها وأكدت أنها بخير وقادرة على تناول الطعام بنفسها.

شكرت أم دعاء كثيراً مؤكدة لها أن الأمر بسيط ولا يستوجب القلق راجية إياها بالعودة لبيتها وأطفالها، نظرت إليّ مؤكدة أن بوسعها الانتظار معي، لكنني أكدت لها ما قالته خالتي وشكرتها وأنا أوصلها للباب الذي تصورت أني لن أراه مجدداً.. إنها الحياة التي تظل تسخر منك حتى وأنت تؤكد لها بإصرار أنك ستسير عكس عقاربها لتجد أنك عالق في الدائرة المفرغة نفسها.. من جديد.

هربت من غرفة خالتي لكي لا يثار أي حديث أو شجار وأجعلها تنفعل.. تحججت بترتيبي للمطبخ الذي كان ملغوماً بالحزن ففيه شرارة ذلك الحريق الذي أتى على حقول المحبة في قلبينا معاً.. كان خبز فروحة مشرّعاً يذرو قمحه بوجه الهواء حتى تيبست أطرافه ولم أكن أجرؤ على وضعه في البراد أو رميه في المهملات.. كان بيني وبين الانعتاق لحظات قليلة.. لكن القدر شاء أن تتقاطع خطواتي المتعثرة للحرية بخطواتها.. التي سمّرتني هنا.. تماماً هنا.. في قلب هذه الدوامة.. من جديد. كان عليّ أن أترك كل شيء وأعود إليها فقد كانت تناديني. خطواتي الثقيلة تقودني إليها بالكثير من الشعور بالذنب.. لكن رغبتي بالانعتاق لم تخمد بعد.. فقد أفرد طائر روحي جناحيه وتهيأ ليركب الأفق والمجهول.. ولا يزال يتوق لذلك.

قلت لها وأنا أنظر لصحن الحساء الذي لم تأكل منه الكثير:

- لم تأكلي شيئاً؟ لقد أعدته لك أم دعاء خصيصاً

- سآكل الطعام الذي تحبينه وجلبته لك.. أين ذهبت الدجاجة المحشوة التي جلبتها لك؟ هل تركتيها في الشارع؟ لقد اشتريتها لك من ذلك المطعم الذي تحبين طعامه

حنانها يتساقط كالنصال في لحم قلبي.. ويجعلني مكبلة بقيود رد الجميل ووهم أمومة تمنيتها أن تكون ذات يوم. كم تمنيتها أن تسترد قسوتها في تلك اللحظة وتجعلني أندهش حزناً لا حناناً

يرتمي فوق حروفها المرتجفة. لكنها لم تفعل ربما لفرط حبها لي.. أو لفرط ذكائها الذي تجيده الأمهات.. أنا خاسرة كبيرة.. في وطن خاسر كبير.. وكل خيباتي امتداد لخيباته المثخنة بأبنائه الذين زرعهم في نهاية الحكاية حروفاً مترامية على خرائط المنافي.. القدر ذاته يرسم خطواتي إلى مجهول أتوقعه بخيره وشره.. بكل احتمالات الفشل التي تنتظرني.

***

في عتمة الليل الغائر في الصمت.. لم أتمكن من إخبارها بأني ما زلت مصرّة على قراري بالرحيل.. كانت تتقاذفني مشاعر كثيرة وكنت أحاول أن أحتفظ بثورتي وإبقاء جذوتها مشتعلة لكي لا أعود لموتي المقنن من جديد.. نومها يشعرني بالسكينة التي لم أكن أنتظرها هذه المرة.. رغم إصراري إلا أني أخاف من ضعفي ومشاعر الذنب التي تسيرني دوماً في الاتجاه المعاكس لما أريد.. لم أكن قادرة على النوم.. حاولت أن أقرأ شيئاً.. لم أجد ما يناسبني من الكتب.. كتاب في تعليم الطبخ وآخر في التاريخ.. الحلول المستحيلة للإجهاز على وحدتي.. الحلول التي اقترحها الآخرون لي والتي لم تزدني إلا وحدة وصمتاً.. شعرت برغبة في قراءة شيء يتحدث بلساني دون أن يستدعيه.. سحبتني قدماي إلى درج محظور مغطى بتراب الذكريات.. ذلك الدرج الذي تجاهلته منذ أكثر من عامين.. درج بمثابة مقبرة تبتلع بعضي. البعض دفنته دون قتله لأني لم أقوَ على ذلك.. وفجأة.. ودون تخطيط مسبق ضدي... وجدتني أتلصص على ذاكرتي وأقرأ كتاباً كنت أدمنت حروفه ولم أكن أنام إلا على همسها.. حملته بغلافه الأحمر. عشرون رسالة حب.

راحت أصابعي تكشف عن امرأة كنتها ذات يوم بكامل غيبوبتها.. وجدتني أغمض عيني قبل أن أفتح الكتاب بشكل عشوائي على إحدى صفحاته. بقيت أراقب ذاكرتي بدهشة وأنا أتذكر أني كنت أفعل ذلك ذات حب.. تلك الطقوس البدائية التي لا

تتقنها سوى الأمهات والعاشقات الخائبات.. المعلقات على حبال انتظار دائم لحبيب لن يعود.. لخيبة أكيدة..

كنت أقرأ طالع الحب في هذا الكتاب الأحمر الذي يطوي بين دفتيه رسائل حب تهذي بالفراق أكثر مما تنشد للقاء وتعلّل الخيبة أكثر مما تتحدث عن الحب الذي كان أكبر من كل العاشقين..

فتحت الكتاب دون أدنى شعور بالهزيمة ودون أن ينخسني كبرياء النسيان.. انطفأت الكهرباء فجأة لتذكرني بانتصاف الليل حيث يسدل المولد ستائر ضوئه ويتضامن الظلام ضدّ كل شيء.. كان في انطفاء الكهرباء في هذه اللحظة بالذات مؤامرة على لهفتي التي سابقت أصابعي للإمساك بحروفي القديمة المغطاة بالصمت والنسيان والخوف..

تسلل شيء من الذعر إلى قلبي وأنا أشعر أن هذه رسالة ما تريدني أن أكف عن حماقاتي وأغلق الكتاب! على التراب العالق بين دفتيه أعيد غلقه ودفن الكلمات من جديد.. كنت على وشك النبش في قبورها وبعثرتها في فضائي الخاوي.. من باب أن معاشرة جثة خير من معاشرة الوحشة!

صهيل معتّق

(أنا معتقل آخر حدوده الأفق والهواء..
والسجّان ذاكرتي..
.. فمن يهرب بي إلى شمس النسيان!)

يومان من الكلام الذي يُقال ولا يقول شيئاً.. يومان من الصمت المطبق على التذكّر لكي لا نعاود فتح البركان من جديد. هي... لم تعد تقوى على المواجهة.. وأنا لم أحتمل السكون.. حقيبتي تئنّ في غرفة انتظاري وتلك الكآبة التي لم تفارقني منذ ذلك الزلزال الذي ضرب بيتنا بأحجاره العتيقة وذكرياته المعتقة في جيوب قلوبنا حتى إشعار آخر للنسيان.. كانت تحاول أن تسترد وقع حياتنا القديم ليستقيم مع تكّات الساعة المعلقة على جدارنا منذ عشرات السنين.. لكني.. لم أكن أقوى على ذلك.. في الحقيقة لم أعد أرغب بذلك.. أو أقبله.. إنه الإرباك الذي يرافق الثورات والولادات والموت أيضاً..

أذكر أني تنشقت هواء الحرية ذات صباح محموم بالاحتمالات التي كانت تملأ حقيبتي السوداء.. ولم يزل هذا الهواء يستدرجني لجحيمه.. أو جنته.. وما زلت أمضي اليه بكامل غيبوبتي ووعيي..

في الليلة الثالثة فقد صبري صبره وقدرته على الانتظار، فجلست أمامها وقررت أن الثورات يمكن أن تدار بدبلوماسية يتقنها السياسيون.. وتذكرت ذلك السياسي الذي كان يتحدث على شاشة التلفاز دون توقف أو انقطاع.. وتمنيت لو أني امتلكت هذه الموهبة ولا أتعثر في طريقي إلى أحلامي.. قلت لها بصوت بلا ملامح:

– أريد أن أسافر لبغداد

باندهاش جاءني ردها:

– بغداد؟

– نعم

– كيف ولماذا؟

- لا أدري لكن هذا أفضل لكلينا

خيّم الصمت من جديد.. فطعنته بكلمات بالكاد كانت تجد طريقها إليها:

- سيتكرر ما حدث صدقيني.. وكلانا لن يحتمله مجدداً
- تريدين أن تتركيني؟
- أريد أن أريحك من هذا الوجود العقيم
- تريدين أن تتخلصي مني؟
- أن أتخلص من ثقلي عليك
- تصورت أنك ابنتي التي منحني الله إياها ليعوّضني عن كل شيء

وانكسر الحوار.. نقطة صمت نهاية السطر.. حتى استأنف صوتها الصمت الذي استمر أكثر من كلامنا:

- حين مرضت وخانني جسدي.. عرفت أنني كنت أظلمك معي.. كنت أحشرك في زمني خوفاً عليك.. كنت أريد حمايتك لأحبسك كما تتصورين.. لكني أدركت حين رأيت حقيبة سفرك عند الباب.. أن الطائر سيطير يوماً فلا يمكنه أن يلغي أجنحته ولا يمكن لأحد أن يمنعه حرية الطيران.. في تلك اللحظة بالذات لم تكوني أنت أمامي.. كانت أمك تقف أمامي وتحمل الحقيبة بدلاً منك.. في عينيك رأيت الإصرار نفسه حين وقفت بوجه أبي وأعمامي وقررت أن تتزوج والدك الغريب عنا.. ورأيت عتبها وأنا أقف بوجهك.. صدقيني.. أحببتك إلى درجة سجنك معي..

عند الكلمة الأخيرة نزلت دمعتها التي خنقتها بين الكلمات.. ودمعتي أيضاً.. التي كانت حبراً في نهاية سطر صامت.

***

هذا الإصرار على إبقاء الحقيبة في مكانها.. قرب النافذة بالضبط.. أمام الباب تماماً.. يأخذني لتلك السنوات البعيدة حين كنت شعلة عناد وتحدٍّ ورغبة في الاكتشاف قبل أن تهذبني المدينة وتلقنني ما حفظته من وصايا..

كنت لا أزال ممددة في سريري حائرة في كيفية بداية يومي ورسم ملامحه.. الرسائل التي في درج الانتظار تؤرقني وأكاد أشعر بعتابها وندائها الذي أخرسه ندائي للحرية.. أنا معتقل آخر حدوده الأفق والهواء.. والسجان ذاكرتي.. فمن يسرق ذاكرتي ويهرب بها إلى النسيان! بلا فلسفة فارغة..

قلت هذا لنفسي ونهضت من نومي المختوم بالدمع الصامت.. نظرت إلى جهاز الموبايل فوجدت سبعة مكالمات لم يرد عليها. كان هو الآخر يناديني بصمت.. كانت أصوات المتصلين لا تصلني.. فقد كان هو الآخر صامتاً أيضاً.. كانت خمس مكالمات من الهلال الأحمر والسائق. والمكالمة السادسة من سروة وأخرى من رقم مجهول.. تتعلق عيني على الرقم المجهول من جديد.. أتأمل أرقامه وأجدها من العراق هذه المرة.. من يفكر بالاتصال بي ليستفتح صباحاته؟ وأدرك وأنا أنهض من فراشي أنه سيئ حظ يبتدئ صباحاته بي أنا المكلّلة بالأصفاد.. والصمت.

أتصل بالجمعية لشعوري بأن الدنيا مقلوبة على الرسائل. يجيبني المدير بصوت بارد وهو يسألني عن سبب غيابي. أجيبه ببرود بأني مريضة. فيسألني ببرود عن بقية الرسائل وأقترح عليها أن أرسلها لها لترسلها مع بقية المتطوعين، وقبل أن يأتيني جوابها تدخل خالتي الغرفة وتقطع كلامي وهي تقول لي:

– لن يوصل الرسائل سواك، هذا واجبك وعليك إنجازه، وهذا هو عملك الذي تحبين.. وسأحب.

يحدث أن يخترق الفرح أوردة قلبك.. كما تخترقه رصاصة الحزن الكاتم فيرتبك الكلام على لسانك كما لو أنك طفل لا تفقه ملامح اللغة بعد.. كان المدير يئد فكرتي وكان صوته يكاد يخرج من الجهاز الملتصق عنوة على أذني فيما غادرت خالتي الغرفة بعدما أطلقت بوجهي قنبلتها المسيلة للفرح.. الكتوم أيضاً.. أنقذني صوتي فجأة وهو يرتد عما اقترحته قبل قليل ليقول له بحماس:

- لن أرسل الرسائل مع أحد سأوزعها بنفسي
- لكنك مريضة
- العمل هو شفائي

يسعد بكلامي ويغادرني بكثير من الاستغراب الذي كان واضحاً على صوته.. أخرج بسرعة إلى خالتي فأجدها في المطبخ تضع خبز فروحة في البراد. أسألها بإصرار:

- فعلتِ ذلك لكي لا أسافر.. لكننا سنتصادم من جديد.. أرجوك أنتِ غير مقتنعة بما أفعله.. لن أعود كما كنت.. ولن أرضى بالقليل

تستدير إليّ بملامح لم أعرفها بها من قبل ويخرج صوتها الحكيم:

- لن أقف بوجهك.. لأني أعرفك.. كما أعرف أمك رحمها الله.. لقد ورثت هذا من والديك وليس بوسعي أن أقف في طريق هذه الجينات التي تكتسح كل ما حاولت زرعه فيك من جينات صناعية

دنت كأنها تهمس:

- أنا واثقة من أنك لن تسيئي لنا مهما كنت جامحة.. هذا أيضاً ورثتيه من أمك.. أثق بك

كان كلامها خاتمة صمت وخوف.. حبل نجاة امتد إليّ في كابوس بلا منافذ.. كان كتفها الذي سقط رأسي عليه له رائحة وسادة حلمت بها طويلاً.. كان صوتها يعزف حناناً بكيته دوماً.. كان جسدي يرتعش كسعفة تغتسل بالمطر بعد عطش طويل..

هكذا.. كنا سنزهر

(ومضيت وراءه..
أقتفي عطره العالق ببقايا أناقة غسلها المطر..
لا أجمل من امرأة تتبع رجلاً نحو مجهول
لا يعرفاه.. أو لا تعرفه هي على الأقل..
لقد أخطأ من قال: «السيدات أولاً»!
هل كان يعرف أنه بهذا القول يحرمهن من
عظمة السير خلف عطر رجل يتكفل برسم
خطواتهن، ويعبّد لهن الدرب بخطاه!).

بهدوء تدوس العجلات على الشارع الممتد إلى تلك القرية الساكنة المنزوية عن صخب المدينة.. يتكوّم جسدي في المقعد ذاته..

بجوار السائق.. يلفنا الصمت وأنفاس المعتقلين الذين خبأت قلوبهم في سواد حقيبتي وجئت أحملها لقرية (سمرة) الغافية على أكتاف الحقول بكل وداعتها.. ونعاس خضرتها المترامية على الجوانب...

كعادتنا حين ندخل كل قرية أو مكان جديد نسأل أي شخص يواجهنا عن الأسماء الموجودة في الرسائل ليكون فيما بعد دليلنا إليها. في الشارع المتعرّج يستوقفنا صبي يقود دراجته وهو الوحيد الذي وجدناه في الطريق، نسأله عن الأسماء الموجودة في الرسائل، ولأول مرة يواجهنا بجهله لها معتذراً فهم حديثو عهد بالقرية فقد جاؤوا مهجرين من مكان آخر.. فنصحنا بالذهاب لمنزل (البو شلش) فهم من وجوه القرية وكبارها، كان المنزل قريباً منا ومميزاً بضخامته وحداثته ولم يكن منتمياً لفقر القرية وبساطتها وبدائية حياتها وبيوتها الطينية وحتى المبنية منها..

أتطلّع للمنزل الفاره بحدس غريب فيه الكثير من التوجس... هذه البيوت الفارهة تثير أكثر من ريبة وسؤال.. هذا الثراء الفاحش في هذه القرية المنسية له أكثر من تفسير منطقي.. أحاول طرد هذه الهواجس للمضي بموضوعية وتذكر أني ما جئت لهذا المكان إلا لإيصال الرسائل لأصحابها.. وماعدا ذلك فلا يهمني على الإطلاق..

نتوقف أمام المنزل بعمارته الحديثة.. أحاول أن أتخيل شكل

صاحبه أو أصحابه.. إنها مجموعة بيوت فارهة بنيت الواحد بجانب الآخر.. وأستنتج أنهم ربما كانوا أخوة أو أقرباء سكنوا في المكان ذاته كنوع من القوة والحماية.. تزداد ريبتي فيما يسألني السائق:

- هل أنزل وأسالهم أنا؟

أجيبه بسرعة وفضول:

- بل سأنزل أنا.. هذا عملي

وأنزل.. مدفوعة بهواجس كثيرة.. أشعر أني سأكتشف أولئك الذين يملكون مبنى بلا معنى! أولئك الذين يشبهون النباتات االضارة التي كبرت واعتاشت على خرائب الحروب فازدهرت وكبرت وتضخّمت لتصبح بهذا الحجم الهائل الذي ينتصب أمامي!

قبل أن تهبط أصابعي على بوابة المنزل الكبيرة أتفاجأ بها تنفتح أمامي على رجل يهمّ بالخروج.. يرتبك لرؤيتي.. وأتعثر بالكلام أمام ارتباكه...! رجل يختبئ خلف نظارته السوداء متهيئ للخروج بسيارته المظللة.. الفائقة الحداثة! أبتلع ارتباكي أمامه وأخبره أني من الهلال الأحمر وجئت أحمل في جيبي رسائل المعتقلين وأني...

يقاطعني وهو يخلع نظارته السوداء:

- أهلاً بك حيّاك الله.. تفضلوا عندنا

أحاول التقاط أنفاسي واستعادة اتزاني، فقد شعرت كأني كنت أتلصص عليهم أكثر مما أطلب مساعدتهم.. حاولت أن أتخلّص من شعور اللصّة التي سكنتني لدقائق فلم أكن واثقة أنه صدّقني تماماً أو كذبني.. استعنت بالرسائل وأخرجتها من الحقيبة فراح يقرأ أسماءها بتمعّن.. فيما رحت أتامله بكل ما أوتيت من فضول.. يبدو كأنه موظف أو مدير أو مسؤول كبير.. رغم أن عمره لا يبدو كبيراً.. إنه بعمري تقريباً أو أكبر بقليل.. كيف يمكن لرجل كهذا بعمر كهذا أن يدير مؤسسة كاملة؟ لا أدري لماذا قررت أنه يدير مؤسسة ما.. ربما لبدلته التي تشبه بدلات المسؤولين.. بدلة بلا لون محدد.. لا

تشبه تلك البدلات التي يحتفظ أصحابها بأجوبة جاهزة معلبة لكل سؤال.. يربكني صوته مرة أخرى:

– لن تتمكني من الوصول لهم وحدك.. سأرافقكم بنفسي

– لا نريد أن نعطلك، حاول أن تدلنا على أقرب نقطة دالة

تفاجئني ابتسامته:

– أنتِ في (سمرة)..وهنا لن تجدي نقاطاً دالة

لم تكن ضحكته استعلائية كما تصورتها.. ولم تكن متواضعة كما خلتها.. ولم تكن عابرة كما توهمتها.. دقّ موبايله فتغيّرت ملامحه وهو يجيب باقتضاب:

– نعم.. سأتأخر قليلاً.. تصرفوا

وأغلق الهاتف.

كلمات ترفع أسئلة بلا إجابات وظنون بلا تصورات.. قلت له بصوت حاولت أن يكون آلياً:

– سأصعد السيارة إذن ونتبعك

– لن ينفع هذا.. فالطريق التي سنسلك في الداخل وهي طريق طينية والبارحة أمطرت كما تعرفين بالكاد تستطيع سيارتي أن تدخل.. يمكن أن ترافقاني وأقلكما بنفسي أو اصعدي معي وليتبعنا السائق إلى أقرب مكان يمكن أن تدخله السيارة

ترعبني الفكرة بغرابتها.. وأرقب جنوني باندهاش وأنا أطلب من السائق أن يتبعنا حتى نصل المكان المطلوب. لا أدري إن كان لاحظ ارتباكي وأنا أجلس بجانبه في تلك السيارة المظللة.. جلست.. كومة من ورق ورسائل وارتباك.. لم أتحدث بشيء.. وبقي هو محتفظاً بصمته.. دقّ هاتفه من جديد.. فرفض المكالمة.. عاوده الهاتف فأجاب بهدوء:

– نعم.. أهلاً.. بالتأكيد سيحوّلون المبلغ هذا اليوم.. و...

يزداد رعبي وأشعر بحماقتي وأنا أصعد جوار رجل عرفته من

فتحة باب صغير خلف نظارات سوداء! يريبني أصحاب النظارات السود دوماً فهم يخفون أمراً ما.. كأن يكون ذكاءً مدهشاً.. أو خواءً فادحاً.. وكلا الأمرين مريبان لي.. أية حجة ستبرر هذا الجنون؟ علينا أن ندفع ثمن أفعالنا وحتى أفكارنا، تقول خالتي.. يدير وجهه نحوي وهو يعتذرعن إزعاجي بالمكالمات، فأجيبه باعتذاري أيضاً لأخذنا من وقته. يسألني عن الجمعية وعملنا.. وعن أشياء أخرى مكررة.. وترتفع تلك الأسئلة المخيفة في داخلي: ماذا لو أنه اتصل بعصابة ما لاختطافي وطلب فدية؟ وما الفدية التي يمكن لخالتي أن تقدمها؟ يقفز الديك إلى ذهني وأتخيل أنها ستعطيهم الديك وتقول هذا أغلى ما لديها وما خرجت به من هذا العالم..

يا إلهي..! ينتابني الضحك.. أضحك بصوت عال، أفقد السيطرة على نفسي. الرجل يرمقني بدهشة. لا أبالي به. أقرر فجأة أنه ليس أكثر من قروي يرتدي حذاءً أكبر من رأسه.. صنعه الاحتلال وألبسه بدلة أنيقة غير أنه لا يزال يعاني من البداوة داخله.. هكذا قررت وأنا اطلق العنان لضحكي.. يفاجئني ويضحك أيضاً..

يرنّ هاتفي.. فيقطع الضحك.. إنها سروة. أجيبها وأعتذر منها وأنا أخبرها أنني في العمل وسأتصل بها لاحقاً كاتمة بقايا الضحكات.. يسألني بصوت خفيض:

– أنا أعتذر لأني شاركتك الضحك بلا سبب

يربكني كلامه.. لا يبدو قروياً إلى هذا الحد.. أو ربما كان يمثل التحضر أمامي.. أجيبه ببقايا ضحكة:

– لقد ضحكت لأني تصوّرت أنك ترأس إحدى العصابات وسترتب لاختطافي وتطلب فدية

وقبل أن أكمل كلامي.. كانت ضحكته هذه المرة تخرج من كل أرجاء السيارة، حتى دمعت عيناه وراح يمسحها بورق الكلينكس المعطر.. فأكملت له:

– لم يكن هذا ما أضحكني؟

مسح دموعه وهو يسالني مندهشاً:
- إذن ما الذي أضحكك؟
- فكرت أن أكبر فدية ممكن أن تدفعها خالتي لكم هي ديكي!

عاودته نوبة الضحك من جديد.. ولم أتمالك نفسي هذه المرة.. ولولا خشيتي من أن يرى السائق ضحكي ويفسره كما يحلو له كنت سأضحك لساعات.. بل لعمر كامل من البكاء.. فالضحك دواء القلب كما يقول الكتّاب أو المجانين.. أو العشاق الخائبين..

عاد صوته ليرتدي هيبته من جديد وهو يسألني:
- عذراً على الفضول ولكن لماذا تصورتني أني أدبر لاختطافك؟ هل أبدو رئيساً لعصابة؟

أشعر بأني تجاوزت الحد القانونية للحديث فاسترد وجهي الذي أكره وأقول له بصوت لا ينتمي لي:
- اعذرني لم أقصد ذلك لكنها المخاوف التي زرعت فينا عنوة فبتنا لا نرى في من يحيطون بنا إلا وجوه القتلة والخاطفين... أكرر اعتذاري يا أستاذ
- أنا دكتور ناصر، أكاديمي في الجامعة وأدير إحدى الشركات

هذه المرة.. لا أخجل من إظهار دهشتي أمامه.. دهشتي التي قرأها تماماً وبفصاحة تامة حتى أجابني قبل أن أسأله:
- لا تستغربي ذلك فالقرية فيها توجه علمي في الآونة الأخيرة وإصرار على التعلم والحصول على الشهادة ربما بخلاف أهل المدن الذين وجدوا كل شيء ميسوراً لديهم، ففقدوا لذة الاكتشاف والتعلم.. إنها عملية تحدٍ والكثيرون هنا يصرّون على الدراسة..

حاولت تفتيت دهشتي وإخفاء إعجابي بكلامه فسألته في محاولة لتغيير الموضوع لإغلاقه تدريجياً:
- وهل تواصل الفتيات هنا تعليمها في المدراس؟
- لا توجد معارضة من عندنا، لكن المشكلة أن فتياتنا ما إن يأتيها

فارس الأحلام حتى تضرب كل شيء عرض الحائط وأولها الدراسة التي تعتبرها محطة انتظار للزواج لا أكثر
- وأنتم سعيدون بهذا الطموح؟
- لا.. إنه فقط ليس مقلقاً أو مهماً إلى هذا الحد

يشي جوابه بشيء من قرويته التي لم ينجح في إخفائها.. يدقّ هاتفه من جديد، يخرج صوته الآخر:
- لا.. لا تحوّلوا المبلغ حتى يصلكم الضمان.. لا يهمنا الوقت
ويغلق الهاتف على فضولي الذي يزداد:
- ألا تخشى أن تكون بهذا المنصب وتسير بلا حارس شخصي؟ أنت الآن فريسة سهلة للاختطاف وصفقة ناجحة؟
- إذا حدث ذلك.. سأطلب من خالتك أن تدفع الديك فدية لمن سيختطفني ما دمت لن أختطفك

عبثاً أحاول كتم ضحكتي.. يقول أحدهم.. أقصر طريق لقلب المرأة هو الضحك.. ربما كان صادقاً في ذلك.. أنا أضحك وهو يضحك أكثر مني.. شيء ما يوخز قلبي ويقول لي أن أكفّ عن ذلك.. لكني أضربه عرض نافذة السيارة القاتمة... يسألني بفضول أراه لأول مرة:
- لم أعرف اسم حضرتك حتى الآن رغم أننا قطعنا شوطاً من الأسئلة والضحك

لأول مرة أشعر أن اسمي فيه دعوة غير معلنة للاقتطاف.. وأخجل منه.. كنت أتمنى أن أقول له اسمي الآخر الذي يعرفني به الجيران والصديقات وخالتي: زوزو. غير أني خشيت هذه المرة أن يتصورني أدلّع نفسي لإغرائه وليس تفادياً لإغراء أكبر بالاقتطاف..! .. قلت له بعد صمت قصير:
- أنا زهرة

يدير رأسه نحوي.. فأتفادى نظراته وأتشاغل بعدّ رسائل المعتقلين التي أحصيتها مرات ومرات.. يخرج صوته من كل أرجاء السيارة أيضاً:

- اسم على مسمّى

بقدرما أسعدني كلامه أشعرني بالاختناق.. لا يقول رجل لامرأة إنها زهرة إلا إذا كان يعدها وليمته القادمة.. ويهمّ لاقتطافها.. كانت هذه العبارة إشارة لأخفي وجهي خلف رداء العمل تجنباً لسوء الفهم والتأويل ولأغلق كل فوهات الجحيم التي يبدأ سعيرها من شرر بسيط كهذا الذي يتطاير في السيارة.. لا يزال أمامي رجل مريب يختبئ خلف نظارته السوداء ونوافذه السوداء أيضاً.. أطلب منه فتح النافذة إن لم يكن الأمر يزعجه لكي أعرف الدرب حين نعود لاحقاً لجلب رسائل جديدة.. يفتحها ويقول لي:

- أعتذر إن كنت أزعجتك، اسمك يلائمك ولا أقصد به شكلك الخارجي أو مظهرك بل روحك القوية وإصرارك على إيصال رسائل معتقلين لا تعرفينهم رغم أنه عملك إلا أنك كان يمكن الاستعانة بآخرين لقضائه فهو عمل لا يناسب امرأة في ظرف كهذا.. كان من الممكن أن أختطفك لو لم أكن أنا مثلاً.. كان يمكن لكل شيء أن يحدث.. لكنك جازفت وهذه شجاعة..

كما توقعته.. لا البدلة الأنيقة.. لا النظارات.. لا الساعة الذهبية المعلقة في معصمه.. لا المنصب.. غيّرت نظرته الدونية للمرأة.. استجمعت ما تبقى من لطفي وقلت له:

- إنه عملنا الذي نتقاضى عليه أجراً وليس في الأمر شجاعة.. أهل القرى معروفون بحسن خلقهم، لذا قررت الحضور بنفسي ولو كانت الرسائل في مدينة أخرى وليست قرية ما كنت لأذهب طبعاً.. لست المرأة الخارقة

(كنت أتحدث.. وكان هو ينصت باهتمام.. لا أجمل من رجل يمنحك ذاكرة إنصاته.. لا يقاطعك حتى لو لم يكن مقتنعاً تماماً بما تقولين.. كان في صمته يقول لي تحدثي ولا تصمتي.. استمري برمي هذياناتك على مسامعي.. فأنا أنصت لكل الكلام الذي لم تقوليه بعد..).

يأتي صوته الهادئ:
- مديركم محظوظ.. طالما قلت له هذا

يدهشني كلامه:
- هل تعرفه؟
- إنه صديقي.

تتبدل ملامحي وأنا أتأكد من حدسي الذي أخبرني أنه من صنف النباتات الضارة التي اعتاشت على خراب الوطن وازدهرت، فمديري إحداها وهو صديقه وهذه أفصح بطاقة تعريفية سمعتها منه.. كأنه يسمع حواري الداخلي أكثر من إنصاته لما يرمي به صوتي بين صمت وآخر، فيكمل كلامه:
- ليس صديقي بالضبط، لكن كان بيننا مصالح مشتركة ذات يوم.. العمل لا تحكمه الصداقات بل المصالح
- أكيد.. فكلاكما رجلا أعمال..بعناوين مختلفة

شعرت أن كلامي أزعجه.. فحاولت تغيير الحديث وأنا أتطلّع عبر النافذة التي تدخل منها الشمس:
- هل لا يزال الدرب بعيداً؟

يستدير نحوي وهو يخلع نظارته لأشاهد عينيه لأول مرة، إنها ليست سوداء تماماً.. ولا عسلية جداً.. إنها مزيج من لون لم يكتشف بعد...:
- نعم.. لكننا سنصله وبأسرع مما تظنين

(كيف لامرأة أن تنكر وتتنكر لدقات قلبها المتسارعة أمام رجل يرمي لها.. بمجهول بلا ملامح..؟ بحكاية لا تحتكم لبداية أو نهاية.. بكل ما نحبه ولا نعرف أن نسميه أو نخشى ذلك..!).

استدركت أوهامي وعدت أقرأ عبارته بموضوعية وعملية.. فهو رجل أعمال.. وأكاديمي.. ولا بد أن شركته وكلّيته مأهولة بالفتيات الملونات وصفّه مليء بالقطط التي ترى في أستاذها فارساً

لا ينازع وسامته أحد.. فتيات يتشابهن في ملامحهن وألوانهن وعطرهن.. لا بد أن إحداهن أثارت فضوله أو جنونه بمبتكرات التجميل الحديثة التي صبغت كل شيء ولوّنت كل شيء.. ما الذي يمكن أن يثير اهتمامه في امرأة مرسومة بقلم الرصاص! تمنيت أن أصل بسرعة وأخرس هذه الأفكار التي تزداد تأججاً مع كل عبارة يرمي بها في فضائي..

– هذه القرية جميلة.. هذه الحقول تشحن رئتي بهواء نظيف طالما أحببته.. وهذا سبب آخر لتمسكي بهذا العمل.. لاحظ أن كل الأسباب حتى الآن تندرج ضمن مصلحتي الشخصية

– لماذا لا تعيشين في القرية إذن؟

أضحك من جديد.. وشعرت أن ضحكي لم يرقه هذه المرة:

– قبل أيام كنت في قرية (الزوية) وعرضت هذه الفكرة المجنونة على خالتي.. فكادت أن تموت من الضحك.. لم تصدق أن القرية مكان ملائم للعيش أيضاً

تطلّع إليّ بصمت وشبه ابتسامة.. احترمت صمته.. وتراجعه عن فضوله.. انعطفت السيارة لتدخل إحدى الأزقة الطينية.. كان الدرب صعباً جداً وطينياً.. وتقطعه المواشي.. توقفنا قليلاً فقد وصلنا الزقاق الذي لا يسمح للسائق بالدخول لحجم سيارته.. كنت أهمّ بالنزول لأقول له أن ينتظرهنا حتى نعود فبادرني:

– لا تنزلي سأفهمه أنا

ونزل من السيارة مجازفاً ببدلته الجديدة وحذائه اللامع الذي اعتلاه الطين. رجل مريب بكل خيره الظاهر وغموضه الكامن.. لم يكن ليصبح بهذا الثراء الفاحش لو لم يكن يتقن الحديث بأكثر من لغة والمتاجرة بأكثر من بضاعة.. يا لهذا الصباح المربك بأسئلته وعلامات استفهامه..

يعود إلى السيارة والبرد يرتسم على أنفه الذي ازداد احمراراً.. بشرته بيضاء وقامته لا تجتاز قامتي.. لا أجمل من رجل يرتدي سمرة

حارقة بقامة لا تطالها يداي.. على الرجل أن يكون طويلاً لتتسلقه على مهل.. وقوياً ليسند وقوعنا المحتمل.. وكبيراً ليصغر جنوننا أمامه... كل ذلك لم يكن يتوفر فيه.. هذا القادم من مجاهيل قرية لم أتصور أنها تضمر لي كل هذه الأسئلة.. كانت بقايا الشمس تجر أذيالها مفصحة عن غيمة رمادية قاتمة تنذر بمطر وشيك.. إنها قرية موارية مثله.. تختبئ نصف شمسها خلف غيمة رمادية فيوهمك نصفها الآخر بالصحو بينما تخبئ لك الأعاصير والرعود.. كما يختبئ نصفه خلف نظارات سوداء.. وبضع كلمات قابلة للتأويل بأكثر من حلم..

تسير السيارة بصعوبة في الزقاق الطيني.. بيوت الطين مبنية على الجوانب وبلا أسيجة.. تبدأ قطرات المطر تتساقط على زجاج السيارة.. تزداد بسرعة وتبدو كأنها حصى صغير لقوتها.. يزداد المطر. تتجمع المياه في الشارع وتبدو كأنها بحيرات صغيرة تعوم السيارة ببطء فيها.. يخرج صوته كأنه امتداد للمطر:

– قدمك خير على قريتنا.. إنه مطر غزير.. إنها نعمة الرب علينا بعد العواصف الرملية التي دفنتنا في الصيف.. لكن سيارتك وملابسك وحذاءك الجديد دفعوا ثمن هذه النعمة.

يجيب بابتسامته دون أن ينظر إليّ:

– أنا سعيد بهذا الثمن

(يحدث أن يتواطأ معك الزمان والمكان ليمنحك ما لم تتوقعه ذات يوم.. يحدث أن تفاجئك النهارات بحلم في وضح الشمس لتهطل بعد ذلك غيثاً سخياً على جدب روحك المعلقة على جدار الانتظار وهي تتهجى الذكريات والوجوه المطفأة..).

توقفت السيارة عند منعطف آخر بدا كأنه بحيرة كبيرة.. قال لي بعد شيء من التفكير:

– علينا أن ننتظر قليلاً حتى يهدأ المطر.. فالسيارة لن يمكنها الدخول

في هذه البركة وعلينا أن نواصل السيرعلى الأقدام فالبيت أمامنا على الجانب الآخر

كان البيت بلا أسيجة وتحيط به بعض أشجار اليوكالبتوس.. والوصول إليه يعني البلل الكامل والغوص في الماء والطين أيضاً.. كان بودّي النزول إليه لكنني أشفقت على بدلته وبقايا لمعان حذائه فقررت البقاء..

- حسناً

ويزداد جنون المطر.. ونزداد صمتاً.. وحدها الأفكار المجنونة تتطاير في الصمت المطبق على صوت المطر.. أسراب كلمات لا تعرف شكلها وملامحها بعد.. المطر يهطل بإصرار.. إنه يتواطأ معي مرة أخرى.. يرن هاتفي.. رقم غريب.. الرقم نفسه الذي وجدته في الصباح.. أجيبه في محاولة للهرب من الصمت:

- نعم
- ست زهرة كيف حالك؟
- أهلاً
- أنا أحمد.. أنا من أوكلت إليه مهمة جمع الرسائل من الأهالي والعودة بها إلى الجمعية، أناَ في مقر الجمعية الآن وأنتظرك

وأهتف به وأنا أتذكره.. إنه أحمد.. إنه سلسلة الوجع والحرمان..

- اعذرني لأني تأخرت.. أنا في قرية أخرى قد أعود متأخرة
- سأنتظرك لأسلم الرسائل بيدك
- لكني سأتأخر
- لا يهم
- حسناً سأعود إليك بأقصى سرعة ممكنة

ويغيب.. وأعود لفضاء الصمت.. تنتابني رغبة قوية بالاعتذار منه.. لقد سلبناه وقته وسرقناه من التزاماته وربما أضعنا عليه الكثير من الصفقات المنتظرة. أدير وجهي نحوه وأقول له باعتذار حقيقي:

- لقد قمت بما لم يقم به سوى أولئك الذين سمعنا عنهم كثيراً... أبناء القرى الأصلاء وهم يتفانون في خدمة الغريب.. أرجو أن تعرف أننا نقدّر لك ذلك عسى أن نردّ هذا الدين في يوم ما

يقاطعني:

- لكنك لست غريبة.. إننا أبناء مدينة واحدة أو بلد واحد كما يقولون.. ثم إن هذا واجبي تجاهكم وتجاه غيركم

حياديته توقظني من هواجسي، أحكم الشال الأسود على رأسي وأهمّ بالنزول، أدير وجهي نحوه وأعلق آخر كلماتي على بقايا اندهاشه:

- يبدو أن المطر لن ينتهِ هذا اليوم ولن نضيع وقتك أكثر، ثم إن علينا العودة بأسرع وقت

يأتيني صوته كأني أسمعه لأول مرة:

- أين تذهبين؟ ستبتلين بالكامل

- لم أخبرك أني أحب المطر.. لهذا الحد.. البيت أمامي والرسائل في حقيبتي وأمامك درب طويل لتعود به.. أرجو أن تقبل اعتذاري وامتناني

- حتماً إن من ينتظر عودتك واستعجلك هكذا يستحق أن تبتلّي لأجله، إنه محظوظ كمديركم

جملته الأخيرة لم تكن موارية. سقطت من بين أزرار بدلته المحكمة.. سهواً.. أنزل وأغلق الباب على امتنان حقيقي..

تنغمر قدماي في البركة التي تجمعت فيها المياه.. لا أظهر سخطي على هذا العمل لكي لا أؤكد كلامه بأني سأندم لنزولي.. أتظاهر بعدم اللامبالاة وأمضي في البركة التي تغطي قدمي.. لا أنظر إليه وهو يغادر.. لكني أسمع سيارته وهي تبتعد.. لا أحب النظر إلى الخلف فهناك ترتسم اثار خطواتنا واخطائنا المتعرجة.. بصعوبة أشق خطواتي.. المطر غزير.. يسقط شالي المبلل.. ينفلت شعري من رباطه ويتناثر تحت المطر ليغتسل به... يسقط الشال ليفترش سطح

البركة.. أضم الحقيبة إلى صدري وأسير ببطء.. أجتاز البركة أخيراً.. وأقف تحت شجرة اليوكالبتوس أحاول أن أرتب شعري وأعقفه من جديد فأفشل وأكرر محاولة اعتقاله..

فجأة.. يظهر ظل من خلفي.. كأنه سقط مع المطر... لم أسمعه.. لم أشاهده.. لا أصدق عيني التي تسمّرت عليه.. على بدلته التي تبلّلت.. تماماً... حذائه الذي تغطى بالطين.. كاملاً.. شعره الذي اغتسل وأصبح..شعثاً.. أنفه الذي ازداد احمراراً.. نظارته التي لم تعد موجودة.. شالي الذي يتكوّم بين أصابعه.. ويغفو في كفّه وهو يقطر عطشاً.. يرمي بفتنة شعثه أمام شاشة وجودي وهو يمدّ إلي يده التي تحمل الشال.. كلماتي تحط بذهول أمامه:

- لا أعرف ماذا أقول؟
- لم يكن بمقدوري أن أترك شالك يسقط
- لا يهمني الشال.. أنت تشعرني بذنب كبير
- وأنت واجبي.. لقد وعدت السائق أن أعيدك إلى السيارة كما وعدتك أن آخذك بنفسي إلى البيت.. هيا لندخل فالشيء الوحيد الذي لن أغفره لك هو أن أمرض

ومضيت وراءه.. أقتفي عطره العالق ببقايا أناقة غسلها المطر.. لا أجمل من امرأة تتبع رجلاً نحو مجهول لا يعرفاه.. أو لا تعرفه هي على الأقل.. لقد أخطأ من قال: «السيدات أولاً»! هل كان يعرف أنه بهذا القول يحرمهن من عظمة السير خلف رجل يتكفل برسم خطواتهن. ويعبّد لهن الدرب بخطاه ! لم تبهجني تبريراته كأنثى.. لكن أصابع المطر التي بعثرت شعره.. وبلّلت بدلته... أرضت المرأة في داخلي.. لعله جزء من عطايا المطر.. لعله الخير الذي تحدثت عنه الجدات... لعله رجل المجهول.. أو رجل الصحو.. أو رجل الخيبة.. على الأرجح!

***

ندخل المنزل.. أقبض على شالي المبتل بكف.. وأحمل

حقيبتي السوداء بكف أخرى.. يسير أمامي.. وأشعر بنشوة السير خلف رجل يصد المطر والريح عني ألهذا.. وجد الرجال؟ ليصدوا عن قلوبنا سهام الزمن.. ونصال الوحدة..؟ ليظللوا قلوبنا الصغيرة بما تيسّر لهم من مظلات حنان ورجولة لا تبحث عن مقابل، بل تمنح.. لأنها خلقت لتمنح.. وترمي ببذار خصبها في أراضينا المجدبة لتحوّلنا إلى حقول أطفال.. وعباد شمس وورود..

عند المدخل يستقبلنا أحدهم ويصيح بأعلى صوته وهو يحيّي د. ناصر قبل أن يراني:

- أهلاً أبا عبد الله.. ما هذه المفاجأة

يصعقني.. سلامه! أبا عبد الله؟ أية حماقة جعلتي لا أفكر ولو للحظة أن يكون متزوجاً؟ أن تكون له زوجة على الطرف الآخر.. تزدري وجودي معه.. ترفضه.. وأولاد يشعرون بالظلم لسرقتي والدهم على مدى نصف ساعة من الزمن! نصف ساعة من حلم وشيك.. من مطر كاد أن يستنبت الربيع في صحرائي.. إنه الغباء النسائي الذي طالما خفته وأنا أرى الصديقات يحملنه في جيناتهن الوراثية صديقة تلو أخرى.. لا أعرف ما الذي قاله لصاحب الدار، لكني أتوقع أنه عرّفه بي وبمهمتي التي أوشكت على نسيانها.. كان ينظر لي بشيء من الذنب.. أو هكذا تمنيته أن يفعل!

دخلنا (الربعة) كما يسمونها.. وجلسنا. لم أشأ أن أتأخر كثيراً، فأخرجت لهم الرسائل الأربع التي جاءت بي إلى هذا المكان النائي والذي لا وجود له على خارطة الوقت.. قرأ الأسماء وبدأ كل شيء يسير على ما يرام خصوصاً بعدما قام صاحب الدار بتوزيع الرسائل على أشقائه، فقد كانت الرسائل تخصّ ابنه وأولاد أشقائه الثلاثة الذين يسكنون لصقه.. تماماً كذلك القصر الذي يسكنه د . ناصر وربما أولاده أو أشقاؤه أيضاً.. بأسرع مما أتصوّر.. انتهت المهمة بعدما تسلّمت الرسائل ونهضت استعداداً للعودة.. بالكاد تملّصنا من إلحاحهم علينا بالغداء معهم..

هذه المرّة.. سرت أمامه لكي لا أقتفي أثر عطر لم يكن مخصصاً لي.. وتراجعت عن رأيي في من قرر أن النساء أولاً.. ربما لهذا السبب.. لخيبة كهذة.. اخترعت هذه الجملة الشهيرة التي أصبحت فيما بعد ركناً مهماً من أركان الإتيكيت العامة.. لقد عرفت الطريق.. والوجهة أخيراً.. أنتبه إلى الشال في يدي.. وأضعه بسرعة في الحقيبة.. نصعد السيارة.. ونمضي..

في طريق العودة.. الأشجار التي تراقصت على الجانبين، ارتمت فوق عرائشها بإعياء الخريف.. المطر الذي توهمته حبال بهجة مدتها السماء لليل الوحشة.. توقف فاسحاً الأفق لنهار فصيح.. ويأتي صوته كأن حلماً لم يكن:

– لقد سعدوا كثيراً بالرسائل التي جلبتيها، فقد انقطعت أخبارهم منذ اعتقالهم قبل شهرين

–أكيد.. فالمصير المجهول مخيف أكثر من الموت نفسه

أشعر بأن انطفائي تسرّب إليه لهذا سألني:

– هل يزعجك أن أسألك سؤالاً شخصياً؟

يوقظني سؤاله ولا أجرؤ على قبوله أو رفضه.. أنظر إليه لأعتذر عن أية أسئلة لا تخصّ العمل فيعاجلني:

– هل أنت مرتبطة؟ على الرغم من أن يديك فارغتان من أي ارتباط لكني لا أتوقع أن تكون امرأة مثلك بلا ارتباط حتى الآن؟

هذا الرجل القادم من المطر ورائحة القرى الآمنة.. يربك زمني المتوقف عن الدهشة.. يبعثر الكلمات والحروف في فضائي الخاوي.. يرمي بحجر أسئلته في مياهي الراكدة.. وأعوم فوق العشرات من الأجوبة الحائرة.. أستجمع الكلمات لأرتّب منها أجوبة بلا ملامح.. مثله.. تماماً:

– وما الذي يهمك في هذا السؤال يا أبا عبدالله؟

هذه المرة.. يجيبني بابتسامة فيها من الخجل الشيء الكثير.. لعله فهم الجواب من سؤالي.. أو فهمت جوابه من ابتسامته..

- أنا آسف.. لم أقصد أن أزعجك.. إنه الفضول
- لا داعي للاسف.. لقد تعودت على فضولكم.. أيها القرويون

يفاجئني بعدم انزعاجه من مناداته بالقروي.. فثمة من ينزعج من هذا اللقب بعد أن يخلع ملابس القرى والحقول ويرتدي البدلة الانيقة وربطة العنق.. التي تخنقه في أيامه الأولى للتمدن.. لعل هذه الصفة.. هي الوحيدة التي ظلت محتفظة بإعجابي به..

- لم تجيبيني على سؤالي
- أي سؤال؟!
- فضولي
- حسناً... إنه النصيب

هذه المرة يتأملني قبل أن يكمل بصوت جاد بدا لي كأنه يهمس:

- لا اعتقد أنك من النساء اللواتي يسلمن قدرهن للنصيب.. كما أني لا أستطيع أن أتخيل أن النصيب لم يدقّ بابك يوماً

يربكني من جديد.. كأن الطريق يصرّ على مؤامرته ضدي فيمتط تحت عجلات سيارته ليطول من جديد.. ما الذي يمكنني أن أقوله له... هذا الرجل المقفى برائحة الحقول والاغاني الريفية.. واللهجة القروية العابقة بالرجولة..؟ هل بإمكانه أن يفهم معنى أن تقفل امرأة قلبها وترمي بمفتاحه في قعر بحر عميق كي لا تفكر يوماً يفتحه لغاز أو محتل؟ الحب احتلال آخر.. أقسى من كل الاحتلالات، فكلّ الاحتلالات قابلة للزوال وعقد الصفقات.. ومعرضة للهزيمة على يد محررين قادمين.. إلا الحب.. وحده المحتل الوحيد الذي تهزم عند قلاعه كل جيوش النسيان.. ومن ينجح في انتزاع قيوده سيتحول إلى محتل آخربالوراثة! فحكم الحب ملكي.. لا يمنح مقاليد النسيان إلا لمن يحمل فصيلة دمه الأزرق نفسها.. ويندرج ضمن سلالته القاتلة.. ويحمل جيناته التدميرية في خلاياه.. إنه الطاغية الأكبر في التأريخ الذي تُرمى الأسلحة عند قلاع خرابه وتُرفع الإرادة راياتها البيض عند حصونه المنيعة لتعلنه أكبر محتل ودكتاتور على وجه القلب!

كم كان التأريخ مخطئاً حين مجّد عظمة نابليون وانتصاراته .. ولم يذكر معركته الخاسرة أمام حبه لجوزيفين! أكبر قائد في التاريخ هزمته امرأة.. بحبها! لم يجرؤ ممجّدو نابليون على الاعتراف بأنه كان يسرق الوقت من المعركة ليكتب الرسائل لجوزيفين لاعناً المجد والطموح اللذين أخذاه بعيداً عنها! كم يبدو هذا القائد ضعيفاً.. ومهزوماً وهو عاجز عن الانتصار في معركة لم تنفعه فيها كل الفنون القتالية.. وكل الأسلحة التي أجاد استخدامها وتفنّن بها!

ترى..هل بإمكان رجل ما.. أن يفهم معنى أن تعلق امرأة على باب قلبها.. ممنوع الدخول تلافياً للخيبة؟ السؤال فخ في دربنا للسقوط عند غواية البوح الأول.. والاعتراف الأول.. أمام إصرار كهذا.. كان لا بد لي أن أخلع وجهي أمامه ليعرف.. إلى أي حد يمكنه أن ينازل ذاكرة امرأة لتنزف خوفها الأسود... ولأعرف.. إلى أي مدى سيحتمل السير فوق أرضي الوعرة الملغومة قبل أن يعلن انسحابه.. أو هزيمته.. على الأرجح!

قلت له من دون أن أنظر إليه:

– هذا صحيح.. أنا امرأة لا تخضع للنصيب بقدرما تخضع لإرادتها.. لهذا رفضت أن أكون أرضا محتلة أخرى.. لم أشأ أن أكون امتداد لخيبات هذا الوطن المحتل من الألف إلى آخر سعفة نخيل.. لم أجد الرجل المحرر بل كان دوماً محتلاً بأسماء شتى غالباً ما يبتدئها الحب.. لو أني فقط أتمكن من شراء اللامبالاة التي تعيش عادة النساء بها بقية أعمارهن..ما كنت لتراني هنا أجلب رسائل معتقلين وأجلس في سيارة مع قروي ببدلة أنيقة لم تهذب فضوله أو تروي ظمأه للأسئلة!

قلت له هذا.. وشعرت بارتياح حقيقي..

كنت صادقة معه... لم اكن أمرأة تصلح للألعاب التي تتقنها المراهقات.. كنت امرأة الصحو الكامل والهذيان معاً.. لكن لم يكن أحد يلحظ ذلك فقد كنت أختبئ خلف ستارة الصمت القاتم..

جاءني صوته وكأني أسمعه لأول مرة وهو ينظر إليّ:
- أنا لا أخجل من كوني قروي.. وحتى لهجتي القروية لم أغيّرها.. هذا جزء من هويتي كشهادتي.. كإسمي.. وعلى الآخرين أن يقبلوني كما أنا.. أو يرفضوني.. وفضولي الذي ترينه الآن لم يكن وارداً قبل هذا اليوم.. لست ممن يهتمون كثيراً لأمر النساء.. غالباً ما تمرّ المرأة من أمامي من دون أن تترك أثراً.. أو فضولاً كما يحدث الآن

كان بودّي أن أصدق أني المرأة الأولى التي استوقفته لمجهول ما.. لكني لم أكن مهيأة لتصديق هذه البدايات الخاطفة التي تشبه كل البدايات في الأفلام الهندية.. كل حكاية تبدأ بالانخطاف ذاته.. بالادعاءات نفسها وإن كانت صادقة في بادئ أمرها.. بالدوار ذاته الذي يفقدنا الشهية على الطعام والعراك والمقاومة..

كنت سآخذ كلامه على محمل السعادة لو قال إني آخر انخطاف سيعيشه وإني قد أكون المرأة الأخيرة التي حرثت مشاعره من جديد وستغلق باب الفضول والنساء خلفها.. فالبدايات لا تهمني بقدرما تعنيني النهايات.. تلك النهايات المخيفة بقسوتها وتنصلها وكفرها ببدايات ساحرة.. تماماً كهذه البداية الوشيكة.. مع ذلك.. لم أتمكن من منع الزهو الذي تسلّل إلى نفسي رغماً عني.. لذا كان يجب أن أحدَّ من اندفاعه نحوي وكان خير كابح لزهوي هو تذكري بأنه متزوج ولديه ابن أو قبيلة أطفال.. على الأقل.. فقلت له بشيء من القسوة:
- القرويون معروفون بتعدّد الزوجات بسبب وبلا سبب.. إنها الغريزة التي تجد طريقاً سالكاً أمامها في هذه المجتمعات، والمرأة لا تُعدّ أكثر من طبق ثريد ينقض عليها الرجل ببداوة كاملة ليتركه بعدها ويبحث عن طبق أشهى.. هذه هي الحكاية باختصار يا أبا عبد الله.

عاد المطر من جديد.. بالرقة نفسها التي ابتدأ بها هطوله ليتحول بعدها إلى حالوب أوشك أن يكسر زجاج السيارة لقوته..

قبل قليل.. قبل دقائق.. أو أكثر.. كانت للمطر رائحة أخرى وهو يضعني بمحاذاة هذا الرجل الذي كلما اقتربت منه ازددت جهلاً به! لكني لم أكن أخشاه.. وذلك الارتياب الذي كنت أجابه به غرباء المدن لم يكن يساورنا معه.. ذلك لأنهم علمونا أن القروي يذود عن المرأة ولا يفكر بإيذائها أو طعنها من الخلف، فذلك جزء من العادات التي تربّى عليها وجعلت من المرأة التزامه الأخلاقي أينما كان ومهما كانت، ربما من هذا الالتزام كان القروي يصرّ على مرافقة زوجته في ذهابها إلى الطبيب إيماناً منه بأنها مسؤوليته كاملة وحقه كاملاً أيضاً، في حين تذهب أكثر نساء المدينة وحدهن إلى الطبيب كجزء من حريتهن أو كجزء من لامبالاة أزواجهن.. ولا أدري أيهما أكثر سعادة وأوفر حظّاً!... لأول مرة أشعر بنبرة انزعاج في صوته:

– منذ أن صعدنا وأنت تتحدثين عن القرويين كأنهم كائنات فضائية وكأنك قادمة من بلاد أخرى.. لا أدري من أين أتيت بهذه القناعات المهينة؟

كان رداً قاسياً وغير متوقع لدرجة أشعرني بفداحة خطئي في السماح لنفسي بحوار رجل لا يرى في الكلام أبعد من الحروف الملقاة على مسامعه ولا يرى في حديثي سوى تحليلات مهينة.. بلا تفكير قلت له بصوت لم يسمعه مني خلال حوارنا الذي أجبرت على بتره تلافياً للمزيد من سوء الفهم:

– أعتذر إن كنت ترى في كلامي إهانة لكم.. لقد قالوا الذي يتحدث كثيراً يخطئ كثيراً.. وهي مقولة صحيحة على ما أرى، أكرر اعتذاري يا دكتور

شعرت بارتياح وأنا أضع النقطة الأخيرة على حوار لم يقدر له أن يستمر أكثر من مسافة الطريق.. وصلنا المنعطف الذي تركنا عنده السائق وكان يجلس في سيارته محتمياً بها من المطر.. كنت أريد أن أنزل بسرعة وأهرب من هذا المشوار الذي لم يتمكن من ادخار خيبته حتى أغادر.. إنه عصر السرعة إذن.. تموت الحكايا

قبل بدئها.. ويشيخ الربيع في منتصف الخضرة... أدير وجهي نحوه لأشكره وأنزل فيبادرني:
- هل أزعجتك إلى هذا الحد؟

أدّعي عدم فهم سؤاله.. فألوذ بعلامات الاستفهام:
- عذراً دكتور لماذا تزعجني؟
- هذا واضح على وجهك.. وصوتك.. ورغبتك بالنزول بسرعة، أرجو أن تعذري كلامي لم أقصد إزعاجك
- أبداً دكتور، أنت صاحب فضل علينا ونحن هنا في مهمة رسمية، وما عدا ذلك ليس مهماً على الإطلاق
- اعذريني من باب أني قروي على الأقل

ضحكت.. وكنت سعيدة باستسلامه وبالرصاصة التي أطلقتها على حوارنا الذي كان ماطراً وكأني كنت أقول في سرّي: بيدي أنا لا بيد الزمن.. لكنه بقي مصرّاً:
- ألن ألتقيكم من جديد؟ هل انتهت رسائل (سمرة)؟ هل يمكنني أن أساعدكم بشيء ما مستقبلاً؟
- شكراً لك، حين تصلنا رسائل جديدة سنوصلها بطريقة أو بأخرى.. نراك بخير إن شاء الله
- انتظري

وأنتظر.. لأني لا أملك إلا أن أنتظر رجلاً يرفضني وعلى بعد زخّة مطر يتشبّث بي.. يمدّ يده إلى جيبه ليخرج شيئاً ما.. بطاقة بيضاء يدسّها في يدي:
- هنا أرقامي إذا احتجت لأي شيء.. أي شيء تحتاجينه أو أي مشكلة تواجهكم، فقط أبرقي لي برسالة صغيرة.. وستجدين ما تريدين
- لا أعتقد بأني سأحتاجك.. إلا أني سأحتفظ به للذكرى.. كان مشواراً جميلاً تعرّفت فيه على هذه القرية الجميلة.. وعلى أناس طيبين مثل حضرتك.. أتركك بحفظ الله

- إلى اللقاء

كنت أشعر بأن نظراته تلاحقني وأنا أعود للسيارة.. لمقعدي الخاوي.. من دون أدنى شعور بوجود أحد قربي له القدرة على صبغ العالم بلون عينيه.. ونثر عطره في أرجاء الكون..

انطلقت السيارة بنا في قلب الريح والمطر مرة أخرى.. كان السائق يسألني أسئلته المملّة ذاتها ويبثّ لي شكواه المكرّرة نفسها.. غير أني لم أكن أواجهه بحلول غالباً ما كانت غير مرضية له.. كنت هذه المرة مستسلمة وأهزّ رأسي موافقة إياه على كل التفاهات التي اعتاد أن يدلو بها أمامي.. وكان يبدي ارتياحاً كبيراً لذلك..

في منتصف الطريق وقبل أن نصل إلى الجسر الذي يربط المدينة بقرية (سمرة).. أخرجت البطاقة البيضاء وبدأت أتطلع لأرقامه.. ثلاثة هواتف.. وعناوين شركاته وبريده الإلكتروني الذي أشكّ في أنه يحسن استخدامه..

أفتح نافذة السيارة وأمزّق البطاقة المذهبة وأذروها في وجه الريح والمطر.. لكي لا يبقى للزمن ما يمكن أن يغتاله.. لكي تظل البداية ساحرة ومدهشة.. لكي تواصل السماء أمطارها في ذاكرتي من دون أن تشرق عليها شمس النهايات..

ربما لهذا كانت الممثلات يعتزلن الفن في عزّ شبابهن ويرفضن الظهور بعد أن تنال السنوات ما تناله من شبابهن ونضارتهن لكي يبقين في ذاكرة المشاهدين شابات وجميلات وساحرات.. تماماً كهذا الحلم الذي حفظته في براد النسيان من التجعّد..

أنتشي وأنا أرقب بلذة طفولية القصاصات وهي تتطاير إلى الخلف.. حيث الخطايا التي نخبئها.. والأحلام التي ما عادت صالحة للاستعمال.. ومناديل الوداع التي اهترأت لكثرة ما لوّحت بها لوجوه زرعت فيّ الفرح ذات يوم واستردته بربى مضاعف عند غيابها الفادح..

أنا المنذورة للغياب منذ القماط وحتى اللوح الأبيض الأخير..
لم يكن بإمكاني أن أتجاوز قدري الأبيض..

الرحيل أبرز عنوان في لوحي المحفوظ.. منذ الولادة.. وحتى.... شهقة الذهول..

نوبة عطر

(.. كان يوجعها أن يمرّ ذكره..
أو ذكر مكان كان يمرّ به..
أو أحد أصدقائه.. أو شبيهاً له...
كانت تكره أن يذكر أمامها أي رجل،
فقد كان يختزل الرجولة في كيانها..).

ورجعت إلى البيت.. أخبئ في حقيبتي السوداء شالاً معفّراً برائحة المطر والطين.. خلطة عطر تعجز كل مصانع العطور عن تصنيعها.. ذلك لأنها خليط لفرح سرّي لا ينتجه إلا القلب مرّة أو مرّتين كأقصى حدّ وعلى مدى عمر كامل!

أخرجت الشال في عتمة غرفتي وكنت أريده أن يحتفظ ببلله كي يذكّرني بتلك اللحظات التي توقف عندها الزمن.. وحبست فيها أنفاس الدهشة في صدري.. كم نحسد الأشياء التي نتصوّرها بلا قيمة..! ها أنا أحسد الشال.. كما لا أحسد إنساناً على وجه الأرض..

غالباً ما تحسن الأشياء الإفصاح عن نفسها فتحظى بأحلامنا بينما تدعنا نتفرج بحيرة وحسد مكبلين بعقدنا وهواجسنا..

***

في صباح اليوم التالي استيقظت باكراً بعد نوم متقطع.. أمران يقطعان عليّ نومي.. حزن كبير.. وفرح استثنائي.. وأول ما يهجم عليّ عند الاستيقاظ هذا الحزن أو ذلك الفرح البعيد.. لذا.. كنت أشعر بارتياح وانتشاء حاولت أن أحافظ عليه وألا أفكر في ما سيحدث.. فما حدث... أجمل من كل الذي كان بإمكانه أن يحدث.. ولم يحدث.. كانت خالتي لا تزال نائمة.. لكن الديك مستيقظ..

منذ أن تصالحنا أصبحت مسؤولة عن الديك وتفكّر بجلب دجاجات له ليؤنسن وحدته.. أعرف أنه حين يحظى بالدجاجات فلن يعاود الوقوف عند شبّاكي لينتظرني.. لأن دوري كدجاجة بديلة سينتهي.. في حين أشك أن دوره كرجل بديل.. سينتهي..

ببقايا انتشاء حملت ما تبقى من الرسائل ومضيت للعمل..

لأول مرة.. بدت الشوارع.. أقلّ حزناً.. وأكثر حياة.. كنت أرى الأكفان تمشي على الأرصفة لا الناس.. كان الطلاب أكفاناً صغيرة تحمل الحقائب المدرسية وتمضي نحو حتفها القادم نحوها بسرعة مذنب مجنون.. هذا الصباح.. لم تكن ثمة أكفان.. كان هنالك أناس كأني أراهم لأول مرة.. من يصدق أن الناس ما تزال تصرّ على أن تمارس حياتها كأن حرباً.. لم تكن! هل نكون امتداداً للنخيل الذي يفتح ذراعيه للموت واقفاً!

في العمل أيضاً.. بدت الأمور مختلفة عن كل يوم.. ولأن السعادة كانت ظاهرة بشكل يسترعي الأسئلة وربما الاستغراب، كان أول من حيّاني كأنه يراني لأول مرة هو معمّر الذي بادرني بتحية صباحية لم أعهدها:

- كم أنت مشرقة هذا اليوم

وتأكدت كمن يتسلم نتيجة فحص مختبري.. أن الامر لم يكن عابراً..! أن زلزالاً قد حدث أو أوشك أن يحدث البارحة.. وما تزال آثاره واضحة على جدراني الصلدة!

كان كلام معمّر تأكيداً على كل ما شعرت به وخشيت الاعتراف بحدوثه.. تماماً.. كما تخشى الأمهات أن تجاهرن بجمال أطفالهن خوفاً من الحسد.. كان سحر ذلك اليوم الماطر يرتسم على ملامحي وروحي وابتسامتي التي لم أجد غيرها لأجيب بها ذكاء معمّر وهو يلتقط بشفراته الشعرية ذلك السرّ الذي يكمن فيه فرحنا ودهشتنا وشقاؤنا.. سألته لأغيّر الموضوع:

- هل ترك أحدهم الرسائل لي؟

يذهب إلى درجه ويخرج تلك الحزمة التي جلبها أحمد.. يأتيني صوته كعتاب:

- لقد انتظرك الصبي المسكين طويلاً.. بلا جدوى

- نعم هذا أحزنني كثيراً، فحين وصلنا كان هو في طريق المغادرة ولم ألحق به

- كيف كان مشوارك البارحة؟ هل رافقتكم الدموع كالعادة؟

تجيبه ابتسامتي وأنا أحاول منع نفسي من التذكر.. من دون جدوى:

- كانت قرية ساحرة.. كأني أشاهد المطر لأول مرة.. منذ زمن بعيد لم أشهد مطراً مثله.. كان كل شيء مختلفاً.. إنها قرية خارجة عن خرائط الخراب..

يقاطعني صوت معمّر:

- هذه أول مرّة تحدثينني بها عن انبهارك بشيء.. طالما كان المطر رفيقاً لكم.. وهذه ليست القرية الأولى التي تزورينها... ثم إني أعرف (سمرة) شبراً شبراً.. إنها قرية نائية وبسيطة

أستدرك قلبي الذي غافلني في غمرة انتشائي لأقول كمن يعتذر عمّا بدر منه من دهشة:

- نعم إنها قرية بسيطة.. وأجمل ما يميزها هو حقولها المترامية.. اليوم سأوزع بقية الرسائل على بعضٍ المتطوعين فقد تأخرت وأخشى أني سأتأخر في إيصالها جميعاً.. اليوم لدي رسالة واحدة إلى قضاء الدور.. ولدي شعور أن هنالك حكاية تنتظرني.. كأني سأدفع ثمن مشوار البارحة الماطر

لا أدري ما الذي قاله في سرّه وأنا أذكر مشوار البارحة مرّة أخرى.. بدوت كالعاشقات اللواتي يسرفن في الحديث عن حبيبهن وتعظيم صفاته الجسدية والأخلاقية وترميم عيوبه التي كانوا يرونها حسنات.. وهن يعشن غيبوبة الدهشة الأولى.. كانت إحدى الصديقات لا تتوقف عن الحديث عن حبيبها بسعادة لا تضاهيها سعادة بمناسبة وبلا مناسبة.. وحين افترقا.. كان يوجعها أن يمرّ ذكره.. أو ذكر مكان كان يمرّ به.. أو أحد أصدقائه.. أو من يشبهه... كانت تكره أن يذكر أمامها أي رجل، فقد كان يختزل الرجولة في كيانها.. فباتت لا ترى في الكون عاشقاً يتقن لعبة الحب مثله، فقد جعلها ماركة مسجلة باسم عشقه غير القابل للتقليد.. كانت ترى

فيه النسخة الأصلية للرجولة وماعداه تقليد بائس.. كانت أسيرة كل ماخلّفه وراءه من دمار أضحى وسادة نومها وشمس يقظتها.. وكان يزيد من نزفها أن تسمع الكلام نفسه الذي رماه لها وهو يركض فوق سفوح قلبها بسرعة لاعب مراثون ليصل إلى قلب صديقتها.. في الوقت المحدد للحب!

***

على هذه الأرض.. تجتمع التضادات الشاهقة. فنجد الحياة تسير بمحاذاة الموت وتضع يدها بيده ويسيران متعانقان.. وجهان ماعرفنا أحدهما إلا وكان الآخر ظلاً له.. وكذلك الصحراء التي تجانب الحقول بتوأم مدهش.. كأن الارض تعلّمنا أهم دروسنا في الحياة.. فبالحقول تنجب الحياة والثمر.. وبالصحراء تفتح ثغر فاهها اليابس لأجسادنا المشتهاة.. وكلما رأيت حقلاً تذكرت المقبرة.. فقد قرات يوماً أن أجسادنا ستتحول إلى غذاء للأشجاربعد أن نموت.. ومنذ أن قرأت هذه المعلومة.. بقيت أفكر (فيما لوكانت صحيحة).. ترى إلى أي نوع من الأشجار سأكون سماداً؟! إذا كان لا بد من أن أتحول إلى سماد.. فيفترض أن نتحول سماداً لأكثر الأشجار شبهاً بنا.. ولم أجد من هو يشبهني أكثرمن النخلة..!

منذ الصغر.. كانت علاقتي بالنخيل علاقة انتماء ونسب.. كنت أرى في وقوفه هيبة أب بقيت أرسم وجهه حتى على الشجر.. وفي السعف.. ظلال أم أرضعتني رطبها وآوتني في حضن سعفها.. وفي موتي المتكرر.. كان وقوفها قد امتد إليّ جينياً.. ربما لهذا.. لم يكن أحد يلحظ هذا الموت!

كان الطريق إلى (الدور) لا يشبه الطريق إلى (سمرة) مطلقاً.. فالأرض الجرداء تحيط بنا من كل صوب.. والشمس تجلد سيارتنا في مرورها بالشارع الخالي من السيارات.. ولأن (الدور) مبسوطة كراحة اليد.. لم يكن صعباً علينا أن نستدل الدرب إلى صاحب الرسالة، فالعنوان واضح والدور قضاء صغير والجميع يعرف بعضهم

البعض.. لم نسأل سوى أحد المارّة الذين وجدناهم بالصدفة أمامنا.. فالشوارع تبدو مهجورة إلا من القليل من السيارات..

كان البيت الذي نبحث عنه قريباً من السوق ومنزوٍ في أحد الأفرع الصغيرة يجانب بيوتاً مبنية بالطراز القديم نفسه.. كان هذا البيت أكثر البيوت قدماً، فقد رمّم البعض بيوتهم وصبغوها رغم طرازها القديم إلا هو.. هذه الأزقة التي يخيّم الفقر عليها.. تشعرني بحميميتها ورائحة الطعام الشهي المنبعث منها..

نزلت من السيارة وطرقت الباب الخشبي القديم.. كان الباب طولانياً وكالحاً كأنه يفضي إلى غرفة وليس إلى بيت.. كرّرت طرق الباب بعدما طال انتظاري.. ولم تكن هنالك بوادر لفتحه.. فلم أسمع صوت أحد أو أي شيء حتى شعرت كأن البيت مهجور.. صاح السائق من النافذة:

- لا تتعبي نفسك، من الواضح أنه مهجور ولا أحد بداخله

لأول مرة أوافقه على شيء. كرّرت طرق الباب بقوة كمحاولة أخيرة قبل أن أعود أدراجي خائبة.. ولم يأتني أي جواب.. استدرت نحو السائق باستسلام أراحه وهو يراني أعود.. ما إن هممت بالمغادرة حتى سمعت أصواتا في داخل البيت.. رجعت بسرعة بعدما عاد إليّ الأمل بوجود شخص ما.. أعدت طرق الباب.. وبقيت أنتظر.. يكرّر السائق نداءه بأن لا أحد هناك. وأظل أنتظر.. فقد سمعت صوتاً.. كأن الأشياء تسقط على الأرض.. كأنه طفل يسقط كل ما تقع عليه يداه..

فجأة يفتح الباب ببطء.. وأجدني أقف أمام رجل طاعن في الكبر يتكئ على عصاه.. يبادرني صوته وهو يتطلع إلي:

- من؟

أتسمّر أمام سؤاله! لا يحييني ولا يسألني من أنا.. وكأنه لا يراني! أقول له بحيرة واضحة:

- مرحباً.. أرجو أن تعذر زيارتي المفاجئة، نحن من الهلال الأحمر وجئنا نحمل لك رسالة من ابنك ساجد، هل أنت والده؟

تتغير فجأة ملامح الرجل ويحدثني كأنه لا يراني فاسحاً لي المجال للدخول:

- أهلاً بك، اعذريني يا ابنتي أنا كفيف وليس معي أحد، تفضلي واقرئي لي الرسالة من فضلك

انقبض قلبي وأنا أدخل المنزل.. أقتفي كفيفاً جعل من العصا عينين بديلتين.. بعدما فقد نظره وابنه... يا للحزن! صاح قلبي، وتذكرت وأنا أتذوق مرارة كآبتي من جديد أن الفرح ضيف عابر..

جلست أقرأ له الرسالة التي لم تكن تختلف عن سابقاتها من الرسائل.. وكان الأب يهز برأسه وكأنه في اتصال روحي مع ابنه.. وضعت الرسالة جانباً ورحت أسأله:

- لماذا اعتقل ابنك يا حاج؟

أجابني بعد برهة صمت:

- لا أدري والله.. كنا نائمين فدخلوا علينا وجرّوه ولم أكن أعرف شيئاً.. لم أكن أستطيع اللحاق بهم.. لكنني عرفت أنهم كسروا باب المنزل بقنابل صوتية أو الزجاج لا أدري بالضبط.. فقد روى الجيران لي أكثر من حكاية. البعض قال إنهم نزلوا إلينا من السطح وكسروا الباب الخارجي له، والآخرون قالوا إنهم كسروا النوافذ.. الله أعلم يا ابنتي، أنا منذ ثلاثة أشهر لم أعرف شيئاً عن ابني هذا إلا ما كان يرسله من سلام مع الخارجين من المعتقل..

- سأكتب لك جواباً على رسالته، أملي عليَّ ما تريد قوله

- أرجو أن تخبريه أنني بخير وأن لا يقلق عليّ

لم أكن ألحظ الخير الذي تحدث عنه.. كان البيت مهملاً بوضوح.. لا تزال كسر الزجاج مرمية عند النوافذ التي حلّ الخشب والورق المقوّى محل الزجاج فيها.. لم يكن أمامي إلا أن أشارك الأب ادعاءه النبيل وأخبره أنه بخير..

كان التراب يغطي كل شيء.. ربما كان تراب الصيف قبل أن يلمّ أذياله ويرحل.. وقبل أن يتم اعتقال ابنه ويرحل أيضاً.. بلا تفكير وجدتني أسأله:

- يا حاج لي طلب عندك؟
- تفضّلي يا ابنتي أنا حاضر
- ما دمت ناديتني بابنتي، هل تسمح لي أن أنظف المنزل قليلاً على الأقل من بقايا الزجاج لكي لا يجرحك في مرورك؟
- ما هذا الكلام يا ابنتي؟ جئت من بعيد تحملين لي رسالة انتظرتها طويلاً، كيف تقبلين أن أجعلك تنظفين؟ لا لن يرضيني هذا وأنا ممتنّ منك جداً

كان يواصل حديثه وكنت أواصل بحثي عن تلك المكنسة السحرية التي كنت سألتهم المنزل بها.. ولم يطل بحثي حتى وجدتها مرمية في أحد الأركان التي تجمعت فيها أوراق الأشجار والأكياس الفارغة التي جلبتها الرياح من الشارع.. وأبدأ أزيح الزجاج المتناثر وأجمعه.. ينتبه إلى صوت المكنسة وينادي فأجيبه وأنا أكنس:

- لن أتأخر يا حاج.. سأنتهي عما قليل فلا تؤخرني أرجوك، قلت لك أنا مثل ابنتك

يستسلم لي مبتسماً ابتسامة موجعة.. أجمع التراب وكسر الزجاج وأرميها خارج المنزل، ينتبه السائق إلى المكنسة التي في يدي ويتطلع إليّ بدهشة، أبتسم وأنا أرمي بقايا الأوساخ في الحاوية القريبة..

ملابسي اكتست بالغبار ووجهي ورموشي أصبحت بيضاء.. هذا ما قالته لي المرآة الصغيرة الموضوعة في الممر. حملت أوراقي بعدما غسلت يدي، وقبل المغادرة استوقفني وقال لي بصوت فيه من الانكسار ما استدعى وقوفي:

- لا أعرف كيف أشكرك، لقد أرسلك لي الرب.. أنا الكفيف.. المنسي، لم يكن يذكرني سوى علي الذي اعتقلوه، هو وحيدي،

وحين أخذوه بقيت معلقاً برحمة الله وها هو الله أرسلك لي.. أنا أدعو لك من قلبي.. دعاء والد حقيقي

عند كلمته الأخيرة وقفت وبكيت... لم يكن يعرف أنه كان الرسالة الربانية التي أرسلها لي الله ليمنحني فرصة أن أخدم أباً لم أمتلكه ذات يوم.. ربما من هنا كنت أحسد أولئك الذين لديهم آباء يخدمونهم ويأخذون بأيديهم ويقودونهم حيثما ذهبوا.. بالكاد خرج صوتي المكلل بالدموع:

- أنا يتيمة يا حاج.. وكنت فيك أخدم أبي الذي لم أره، شكرا لك لأنك منحتني هذه الفرصة

لم يجبني، لكنه هزّ رأسه وبكى.. وكان بكاءً قاسياً، فبكاء المرأة جزء من هويتها وتكوينها.. أما بكاء الرجل فهو يختزل انكساراً ووجعاً وهزيمة بحجم وطن.. أمسكت يده وقبّلتها فضمّ رأسي إليه..

خرجت من المنزل وآثار البكاء واضحة، وقبل أن يدلي السائق بكل علامات الاستفهام المعلقة على وجهه أجبته بسرعة وطلبت منه أن نمضي.. فمضينا عائدين.. في الشارع الخاوي ذاته.. عابرين من جديد تلك المناطق الصحراوية التي كان من الممكن أن تكون حقولاً خضراء.. فقط لو تبنّى تصحّرها أحد.. وقرر أن يزرع في هذا الوطن شبراً أخضر إزاء المساحات الهائلة التي يحصدها الخراب كل يوم.

قريباً.. من الشمس

(كنت أتحاشى تلك الذاكرة الموقوتة التي تنفجر بوجه النسيان ليمتلئ فضائي بانتظار رجل ملامحه بضع كلمات تختبئ خلف نظارة سوداء.. وموعد محتمل مزّقته ونثرته في الهواء..).

شهر مضى.. أطفئ فيها ذلك الحلم الماطر أو أوشك على ذلك.. الغريب أن السماء لم تمطر منذ شهر تقريباً.. أي منذ ذلك المشوار العجيب.. ذلك الرجل الذي أودعني فرحاً غامضاً.. ورحل ملفوفاً بالصمت.. كنت أمنع نفسي من تذكّره والتفكير بأنه سيتصل بي ذات يوم.. رغم أني لم أعطه رقم هاتفي ومزقت رقم هواتفه وألقيتها في فضاء النسيان كما كنت أزعم!

كلما رنّ هاتف.. توقعته أن يكون هو على الطرف الآخر.. وحين أجيب كنت أسخر من هذه التوقعات التي لم تكن تخضع للواقعية والموضوعية بأي شكل من الأشكال، فمثله ينسى ما يرى إن لم يكن خاضعاً للغة الأرقام ومنطق الربح والخسارة.. وكنت له لا أمثّل له ربحاً بقدرما أمثّل خسارة أن يقضي رجل وقته مع امرأة تنظر إليه باستعلاء... كما تصوّر!

تلك اللحظات الهاربة من الزمن تحوّلت في ما بعد إلى عبء على ذاكرتي.. وكنت أتحاشى تلك الذاكرة الموقوتة التي تنفجر بوجه النسيا ن ليمتلئ فضائي بانتظار رجل ملامحه بضع كلمات تختبئ خلف نظارة سوداء.. وموعد محتمل مزّقته ونثرته في الهواء.. لكنني لم أكن أستعجل النسيان في انتظاري له.. لأنني كنت أعرف أنه الوجه الآخر لكل فرح نعيشه.. ولأنه قادم.. لا محالة!

كنت في طريقي للجمعية حين رنّ هاتفي على غير عادته وكان المدير هو المتصل، بادرته بإخباره أني في طريقي للجمعية، فقال إنه في انتظاري وطلب مني الذهاب إليه مباشرة. خفت في سرّي فلم يحمل لي أمراً جميلاً يبعث على السعادة ذات يوم.. وكل

اجتماع جمعني به كانت نتيجته سلبية.. حتى امتنع عن دعوتي إلى الاجتماعات.

لا يطول انتظاري حتى نصل الجمعية ومباشرة أسرع نحو غرفته، أجد معمّر في انتظاري معه، أحيّيهم ويدعونني مباشرة للجلوس، يبادرني المدير بابتسامة غير معهودة:

- لقد طلبوا منّي ترشيح ممثلين عن الجمعية لحضور أحد الدورات التدريبية للوقاية من مرض الإيدز ولم أجد أفضل منكما لترشيحه، علماً أن الجمعية ستتحمل كافة تكاليف سفركما إلى بيروت وإقامتكما أيضاً

لم أكن أصدق ما أسمعه.. لا أعرف كيف لم تنبت لي أجنحة في تلك اللحظة وتطير بي، ربما طرت ولم يلحظا ذلك.. لا أصدق أني سأزور بيروت! بل سأسافر! سأعرف معنى السفر وحقائب السفر! معنى المطارات وصخبها.. معنى أماكن جديدة ولغة جديدة.. وهواء جديد..! وشوارع بلا أمريكان.. ولاسيطرات مفخخة بالخوف.. وأسواق بلا رعب.. و.....

سألني المدير:

- ما رأيك؟

أجابته لهفتي:

- بالتأكيد يسعدني اختيارك لي وهي فرصة جميلة.. لكنني سأستأذن خالتي وأعطيك الجواب اليوم إن شاء الله

- جيد، وأنت يا معمّر؟

- هذه فرصة ذهبية، لكن للأسف لا يمكنني الذهاب فهنالك الكثير من المسؤوليات تحول بيني وبين ذلك

أحزنني ردّ معمّر، لكنني احترمته كما احترمه المدير.. قبل أن نخرج استوقفني المدير:

- تذكّري يا زهرة أن جمعيتنا تعتمد عليك لتكوني ناشرة للوعي

الصحي لهذا المرض ولتقيمي الورشات التدريبية حال عودتك إن شاء الله
- إن شاء الله

لم أكن صادقة معه.. فلا يهمّني إن خذلته أم لا، فقد خذلني كثيراً وأنا أتوسله أن يدرج أسماء الفقراء في المساعدات الغذائية.. لكنني هذه المرّة لن أخذل نفسي بالاستسلام.. وسأتوسل خالتي لترضى بسفري.. إنها حربي التي ستستمر ولن تتوقف عند حدّ... طوال اليوم لم تكن فكرة سفري إلى بيروت تغيب عن ذهني لحظة.. قال لي معمّر وكأنه يقرأ أفكاري:
- أتمنى أن تسافري.. هذا سيعني لك الكثير.. أخرجي من هذا القمقم وهذه الدائرة المغلقة
- أنا أيضاً أتمنى ذلك.. بل أحتاج إليه الآن وأكثر من أي وقت مضى.. أدعُ لي أن توافق خالتي.. إنها قلقي الوحيد في هذا الفرح الشاهق.. يمكنها أن تهدم فرحي بكلمة منها أو ترفعني لأقاصي البهجة بكلمة أخرى.. لاحظ بهجتنا وتعاستنا معلقة بأعناق غيرنا.. لا أحد يملك زمام سعادته بنفسه.. كما أن لا أحد يملك أن يغلق صنبور حزنه بنفسه أيضاً! تُرى.. كم يتحكّم الآخرون بسعادتنا وحياتنا التي نزعم أننا نملك زمامها..؟
- دافعي عن رأيك وحلمك ولا تتنازلي عنهما.. خالتك لن تكسر قلبك.. أنا واثق من ذلك
- شكراً لتشجيعك.. أتمنى ذلك

رجعت من العمل مأخوذة ببيروت وسحرها الذي طالعته في الكثير من القصائد والقصص والروايات.. قال المدير إن السفر في الأسبوع القادم.. لماذا أصبحت الأيام والساعات بهذا الثقل؟ لماذا امتنع عقرب الساعة عن الدوران منذ سماعه هذا الخبر؟ وحده قلبي ينبض بسرعة ويتسلّق لهفتي وخوفي الذي يقف عند منعطف كل سعادة أرتطم بها سهواً.. أدخل المنزل فأجد خالتي في المطبخ

تحضّر الغداء كعادتها.. ولأن البهجة كانت واضحة على صوتي سألتني:

– إن شاء الله خير.. تبدين سعيدة

– نعم... هنالك خبر جميل.. أعني رائع.. أقصد.. مذهل

تطلق ضحكتها في المطبخ فيما أغيّر ملابسي استعداداً لإخبارها. أدخل المطبخ معها وأساعدها.. لا أحتمل أن أخبرها وأنا آكل الطعام.. أو أشرب الماء.. قد أشرق به أو أغصّ بالطعام أياً كان جوابها.. بل على الأرجح إنها من ستغص بالطعام والذهول! لا أحتمل الانتظار، فأسحبها من يديها وأجلسها على الأريكة القريبة وسط ذهولها وهي تتملّص مني لتضع الصحن الذي في يديها، آخذ الصحن وأضعه على الطاولة القريبة وأجلسها عنوة... تسألني بدهشة:

– ما بك؟ ما هذا الخبر المذهل الذي طيّر عقلك هكذا؟

– معك حق.. إنه خبر يستحق الجنون

– سيبرد الطعام

– لا يهم.. إسمعيني.. اليوم استدعاني المدير في اجتماع وأخبرني أنه رشّحني إلى بيروت لحضور دورة تدريبية للوقاية من مرض الإيدز وسيتحملون تكاليف السفر والإقامة وكل شيء.. ما رأيك؟

تجيبني بصمتها الذي يطول.. تنهض ولا تجيبني بشيء حتى تصل إلى الطباخ فتضع إبريق الشاي على نار هادئة ليجهز حين ننتهي من الطعام.. لا تضع الهيل فيه، وهذا دليل على أنها لا تفكر بالشاي بل في أمر آخر... هو أمري بالتأكيد.. أو بطريقة تبرّر رفضها لي

يأتيني صوتها :

– ولماذا رشحوك أنت بالذات؟ ألايعرفون إنك بلا محرم يمكن أن يرافقك؟ هذا عمل لا يصلح للنساء فالرجال أولى به؟

أبتلع إحباطي وأتذكر كلمات معمر بوجوب دفاعي عن رأيي وحلمي:

- رشحوا زميل لي فاعتذر لأن لديه ارتباطاً
- الرجل يعتذر وأنت تقبلين وكأنك بلا ارتباط أو مسؤولية؟
- هو متزوج ولديه أطفال وزوجة متطلبة وأم مسنّة، أما أنا فليس لدي أي شيء يستوجب بقائي؟ أرجوك.. لا تقفي حاجزاً بيني وبين هذا الحلم.. بيروت حلم استثنائي لي كما تعرفين.. إنها تعني فيروز.. والبحر.. والشعر الذي أحببت.. إنها فرصة لأنظّف رئتي من دخان الحرب والخوف والموت.. لماذا ترفضين أن أستنشق هواءً نظيفاً؟

انفلت صوتها الغاضب الذي حاولت كتمه:

- هل تتصوريني أكرهك لهذا الحد ولا أريد لك الخير؟ أنت تؤذينني كثيراً بتفكيرك هذا.

بهذه الكلمات تغلق الحديث وتمضي إلى غرفتها. تتركني وحدي أمام الصحون المليئة بالطعام.. والكثير من الحزن. أواصل ندب حظي.. وأبدأ أحصي هزائمي وخساراتي أمام رفضها المتجدد.. أغادر المطبخ إلى غرفتي فأسمعها تتحدث بالهاتف... إنها المرة الأولى التي أضع فيها أذني على الباب وأتنصت! يبدو من طريقة همسها أنها تشكوني لأحد.. أو أن الأمر يخصّني بشكل ما.. ومن صوتها الخافت أفهم أنها تتحدث مع خالي وتشكو له رغبتي بالسفر..

يزداد إحباطي.. فكلاهما التفكير نفسه ومجبولين من الطينة ذاتها.. أدلف إلى غرفتي وأندسّ تحت غطائي لأواصل خيبتي.. قلبي يرتجف حزناً وأنا أرى المسافة بيني وبين الحلم عادت بعيدة وشاسعة.. وأن خيط الفرح الذي تعلقت به يوشك ان ينقطع..

فجأة ينفتح باب غرفتي فتنتصب خالتي أمامي بملامح أخرى:

- لم أنتظر عودتك لتنامي! أنا جائعة جداً وحين يبرد الطعام لن أتناوله، إنها الباميا التي جففناها لهذا اليوم البارد

لم يعد استرضاؤها لي كالأطفال مرضياً وقادراً على إقناعي، لذا اعتذرت منها:

- لا أملك شهية للطعام ولا لأي شيء
- ولا حتى للسفر إلى بيروت؟

وكما لا يفعل أشطر قرد في الغابة قفزت من السرير وأنا أسألها:

- حقاً؟ هل قلت بيروت؟

ترمي لي بابتسامتها وتخرج وهي تغلق الباب، فألاحقها بالأسئلة:

- هل وافقتِ؟ أرجوك؟ لاتعذبينني؟
- لقد أخبرنَي خالك الآن أنه سينتظرك هناك.. على الأقل ستكونين في عهدته وسيتحمل مسؤوليتك قليلاً
- حقاً؟ هل سأرى خالي مجدداً؟ يا إلهي.. سأموت

وتأتي ضحكتها التي أحب..

- متى موعد السفر؟
- الأسبوع القادم... الأسبوع الذي بدأ يتأخر.. الأسبوع الذي بدأ يعلقني على حبال اللهفة والانتظار المزمن.

تتطلع إليّ بقلق لم تتمكن من إخفائه وهو يبرق في عينيها وصمتها. قلت لها وأنا أقسم وأجلس عند ركبتيها وأمسك بيديها:

- أقسم لك إني سأكون بخير.. وسأحافظ على نفسي.. أنت تعرفينني، أنا صنيعتك
- أنا واثقة منك.. لكنها المرة الأولى التي نفترق فيها.. وهذا يقلقني خصوصاً في هذه الظروف
- اطمئني فخالي سيكون موجوداً وهذا لا يدع مجالاً لأي قلق

تحاول إخفاء قلقها وتدعوني للأكل.. لم أتمكن من أكل سوى القليل منه رغم الجوع الذي يأكل جسدي من الداخل.. فقد كان قلبي متخوماً بوجبة سعادة باذخة أوقفت كل حواسي وجعلتني لا أرى في صحوي ومنامي.. إلا مدينة حسناء... اسمها بيروت.

* * *

كنت أحتاج لمعجزة أخرى لأجتاز الأسبوع الذي مضى بعد ابتهالات وانتظارات جعلتني أفقد صبري مرّات ومرّات وأقرّر ألا أسافر كنوع من الهستيريا التي انتابتني وخشيت أن يلحظها أحد... لم يتبقَ في حوزة انتظاري إلا ليلة واحدة.. بعدها يطير بي الصباح إلى أحضان ذلك الحلم البيروتي..

في الجمعية اجتمع بي المدير من جديد وناقش معي جدول ورشة العمل في الدورة هناك مذكراً إياي أنه يعلّق آماله عليّ بأن أكون الأفضل بين المتطوعين..

كان السفر من مطار بغداد وهذا كان أصعب ما في الأمر.. لم تطأ قدمي بغداد منذ الاحتلال.. تواصلت مع زملائي في ورشة العمل الذين سيكونون معي في بيروت وكانوا من محافظات مختلفة.. كانت تشكيلة عراقية أيقظت مخاوفي، فكل يحمل أجندته وقناعاته التي تسيره وتحكم علاقاته بالآخرين.. هذا ما تقوله الفضائيات على الأقل!

شاركني معمّر هذا الفرح الاستثنائي بصدق واضح على ملامحه وصوته وتشجيعه الدائم لي.. كان يذكر لي الأماكن التي يجب أن لا أفوّت فرصة زيارتها هناك، وكنت اقول له : لن أذهب لأي مكان، سأكتفي بالجلوس واستنشاق الهواء النظيف.. أريد أن أملأ رئتي بهواء بلا بارود.. وكان يجيبني بابتسامته: معك حق.

أعطيت بقية الرسائل للمتطوعين لإيصالها في غيابي، فقد انشغلت بترتيب السجلات التي دوّنت فيها تواريخ الرسائل وعددها وأسماء مرسليها.. لم أعد أتابع أخبار الخراب على الشاشات.. كان قلبي متقرحاً بما يكفي لعمر كامل.. ومشبعاً بكل أنواع الأخبار التي تكفي لقتل التفاؤل بداخلي لعمر قادم..

في البيت كانت خالتي منشغلة وهي تحاول إخفاء قلقها الكبير الذي لم تطفئه اتصالات خالي المتواصلة لها وتأكيده الدائم لها بأني سأكون بأمان معه..

حين رجعت للمنزل وجدتها في المطبخ كعادتها، وكان المنزل يعبق برائحة (الكليجا) التي تتفنن في عملها.. تلك الدوائر الشهية والمحشوة بالتمر والمبروش أو الجوز والهيل والسكر.. كانت تلفّها وتبرمها على شكل قطع صغيرة جداً وتحمّصها كما أحب تماماً..

هجمت على المطبخ مأخوذة بتلك الرائحة الشهية فوجدتها تخرج الصينية الأخيرة من الفرن لتكومها فوق تل من الكليجا الموضوعة في قدر كبير خاص بها.. مددت كفي وملأته بها فصاحت بي:

- ما تزال حارة، انتظري لتبرد

لم تكمل كلامها حتى التهمت قطعتين زادت الحرارة من طعمها الشهي وهو يذوب في فمي.. أخرجت مجموعة من الصحون ووضعت في كل صحن كمية منها ووضعتها في صينية كبيرة حملتها بسرعة لتخرج بها.. إستوقفتها وحاولت أخذها منها لكنها سحبتها مني وقالت:

- اذهبي وحضّري أغراضك.. أعني تأكدي من النواقص فقد حضّرت أغراضك في الحقيبة وكل ما تحتاجين ريثما أوزّع الصحون على الجيران وأعود

تركتني وسط اندهاشي من مفاجأتها التي تشعرني بأني ما زلت طفلة لا تعرف حتى كيف تحضّر أغراضها! ذهبت إلى غرفتي فوجدت الحقيبة تنتظرني.. كانت حقيبة جديدة.. فتحتها وكأني أفتح هدية العيد.. كان كل شيء جديداً.. محارم بيضاء كما أحبها وملابس جديدة وكل ما لم أتوقعه منها!

امتلأ صدري بمشاعر مختلفة.. ذلك الإحساس المضني بالامتنان.. تلك المحبة التي تشعرني باحتلال آخر يطالبني بتقديم فروض الولاء والطاعة المطلقة كرد للجميل..

كل حب يأخذ منك أكثر مما يعطيك. لكنني.. كنت سعيدة بها.. كنت أفيض امتناناً لها وأشعر بجحودي الكبير نحوها..

رنّ الهاتف بعد احتباس أصابه منذ الصباح.. البعض يقول البطارية نافذة والآخرون يرجحون أنه فايروس.. تلك الفايروسات الإلكترونية التي تم اكتشافها مؤخراً مع الاحتلال، فقبله لم نكن نعرف سوى تلك الفايروسات البريئة التي تصيبنا وتسبب لنا الرشح وبقية الأمراض الأليفة.. واليوم نحن أمام حرب مع فايروسات إلكترونية تنخر في أدق تفاصيلنا.. مع ذلك لم تكن هذه الفايروسات تعنيني كثيراً، لذا لم أهتم حين أخبرني معمر بقلق أن جهازي مصاب بفايروس يمتص شحنه بسرعة ويفرغ بطاريته..

لم يقلقني ذلك أبداً.. لكنه أثار الغصّة في صدري وأنا أذكر الصهاريج المجهولة الهوية التي تدخل البلد فارغة وتخرج منه محملة بما شفطته من آبار النفط.. عند هذا المشهد فقط.. انتفض قلبي حزناً وغضباً وخيبة لا يتسع المدى لصرختها..

كان الهاتف قد امتنع عن مناداته لي.. لكنه عاود نداءه بإصرار.. ذهبت إليه وإذا بها سروة على الطرف الآخر.. كانت تعاتبني على غيابي وعدم اتصالي بها.. فاجأتها بخبر سفري الذي دهشت به، ثم سألتها عن حازم وأجابتني بفرح يضاهي فرحي:

– لقد أكد له الطبيب في دمشق أن بإمكاننا إجراء عملية طفل أنابيب وباحتمال كبير للنجاح، لكنه طلب سفري لدمشق لعمل بعض التحاليل اللازمة

صحت بسعادة كبيرة

– يا للبهجة! حين تأتي الأفراح تنهمر دفعة واحدة.. وحين تتساقط الأحزان... فإنها تكتسحنا دفعة واحدة.. فالأحزان لا تأتي فرادى كما كانت تردد إحدى الصديقات

حالما أنهيت المكالمة عادت خالتي لاهثة من الخارج..

– لقد فرحوا بالكليجا فقلت لهم ادعوا لزهرة فلولاها ما عملتها اليوم.. إنها لأجل سفرك

نصل محبة آخر ينغرس في قلبي ولا أجد أمامي كلمات

ألوذ بها فألجأ للصمت. صمت تعرفه خالتي وتفهمه دون الحاجة للكلمات.. تسألني:

- هل تأكدت من أغراضك؟ ألم ننسَ شيئاً؟

ويجيبها صوتي المغمور بحنانها:

- لم تنسِ شيئاً

وتضحك.. ثم تضيف:

- غداً يأتينا أبو يوسف ليأخذنا فجراً لبغداد تحسباً لإغلاق الطرق لا سمح الله لنصل في الوقت المحدد

أتفاجأ بضمير الجمع الذي تستخدمه:

- ماذا تعنين بيأخذنا؟

- سأرافقك لبغداد، هل كنت تتوقعين أن أتركك تذهبين لبغداد لوحدك؟

- خالتي أرجوك لا تتعبي نفسك

- سأتعب حين لا أرافقك إلى سلّم الطائرة حتى تطيرين من أرض السواد

وأستسلم لعطائها باطمئنان كبير.. الفكرة التي كانت تطاردني برعبها هي حين أكون ببغداد المحتلة... كم بدت الكلمة محزنة وشاسعة كالألم حين سمعتها مرة من إحدى الفضائيات!

كان عليّ أن أتهيأ نفسياً لمواجهة خوفي الحقيقي من رؤية وجه الوطن المحتل في مرآة بغداد التي احتكمت على أسرار فرحنا وذكرياتنا..وانكسارنا أيضاً..

***

رافقتني كوابيس بغداد طوال الليل.. وبدأ الفجر بعيداً أكثر من أي فجر آخر.. رأيتني بين ملثمين يجرونني لمكان مجهول وكنت أصرخ ولكن صوتي لا يخرج.. امتد صراخي الصامت حتى أيقظني المنبّه قرب رأسي.. نهضت وأنا أمسح آثار الهلع على وجهي..

دعوت الله أن يكون كابوساً لا أكثر.. صوت خالتي تناديني من غرفتها بعد أن سمعت منبهي. أؤكد لها استيقاظي.. أصلي الفجر وأبتهل لله أن يكون الطريق آمناً.. طالما كان الله يرافقني في حلّي وترحالي.. لهذا لم أكن أشعر بالوحدة في غياب الصديقات.. كنت أحاوره وأسعد بحنانه الذي يزيد من عظمته في قلبي. وحين أخطئ.. لم أكن أجرؤ على رفع وجهي للسماء..

لم تمضِ دقائق حتى انتهيت من ارتداء ملابسي وحمل حقيبتي للخروج، فقدَ جاء السائق في الوقت المحدد.. كانت المدينة غافية في سكون معتم ونحن نغادرها.. قبل أن نغادر قال السائق لخالتي:

- سنمرّ بامرأة اتصلت بي ليلاً ولم أتمكن من الاعتذار منها، فاليوم موعد لقائها بابنها في (معتقل بوكا) في سجن المطار

- لا بأس يا ولدي.. عسى أن تحظى برؤية ابنها ولا يؤجلوا مقابلته كما يفعلون مع بقية المعتقلين

يدخل بنا السائق أحد الأزقة الصغيرة، وما إن يتوقف أمام أحد المنازل الصغيرة حتى تخرج إليه الأم وهي تحمل بيديها كيساً كبيراً.

تبدو في الستينات من العمر أو ربما ضاعف الحزن سنواتها فأصبحت بهذا الشكل.. كما يضاعف الحب شبابنا فنبدو أصغر مما نحن عليه بكثير..

لم يكن الطريق لبغداد مخيفاً كما توقعته.. لكني كلما رأيت سيطرة سقط قلبي في بئر الرعب.. وعند حدود بغداد.. بدأ الزحام.. كانت الحياة تسير رغم الخوف الذي يسابق السيارات.. دخل موكب عسكري بسيارات مدنية وكان المشهد مخيفاً وغريباً بالنسبة لي وعادياً بالنسبة لمن لم ينقطع عن الذهاب لبغداد..

كانت أبواب السيارة الجيب مفتوحة من الخلف يطل منها مسلحان بزي عسكري يشهران السلاح بوجه السيارات التي في الخلف... لم أصدق أن السائق تمكن من الخروج إلى الشارع الرئيسي والتخلص من زعيق السيارات والزحام..

عند (كراج العلاوي) نزلت المرأة وهي تقول لنا ادعوا لي أن ألتقي بابني هذه المرة.. ونزلت لتلتقي برفيقاتها اللواتي تعرفت عليهن عند زياراتها لابنها، فقد كن يتفقن فيما بينهن للزيارة كما أخبرت خالتي.. أما نحن فبقي السائق يجتاز بنا الزحامات التي ما كنا نفلت من واحد حتى نقع في آخر..

عند تمثال عباس بن فرناس استوقفتنا سيطرة أخرى ونزلنا للتفتيش أيضاً. عند هذه النقطة انتهى دور السائق وهو يقول لنا إن علينا صعود سيارة أخرى خاصة تقلّنا للمطار.. ثم قال لخالتي إنه سينتظرها هنا.. قام بالاتفاق مع إحدى السيارات ونقل حقيبتي إليها فصعدنا مع بقية الركاب.. كان قلبي يخفق بسرعة مخيفة.. لاحظت خالتي قلقي فطمأنتني:

- كل شيء سيكون على ما يرام إن شاء الله، إنها إجراءات أمنية روتينية

حين وصلنا المطار استوقفتنا سيطرة أخرى لكنها مختلفة هذه المرة. فقد نزلنا من السيارة وقامت الكلاب بالتفتيش.. بعدها انخرطنا في صف طويل استعداداً لدخولنا المطار.. كان الطابور طويلاً حتى تصورت أن بغداد مهجورة ولم يعد يقطنها أحد..

بعد انتظار استمر لأكثر من نصف ساعة دخلنا.. ولم تعد أمامي محطة سوى محطة الانتظار.. كان المطار مكتظاً بالمسافرين.. غير أني لك أجد مسافرين أجانب كما اعتدنا أن نرى في الأفلام.. قالت خالتي وهي تتأمل شابة تنام فوق حقيبتها:

- مسكينة يبدو أنها انتظرت طويلاً.. لا أدري كيف يدعونها أهلها تسافر لوحدها وهي بهذا العمر الصغير

- ربما لا تملك خالة رائعة

فضحكت وهي تفتح حقيبتها وتخرج لي كتاباً صغيراً وضعته في يدي:

– هذا كتيّب يجمع الكثير من الأدعية خاصة دعاء السفر إقرئيه حين تصعدين الطائرة

لم أشأ أن أخبرها أن الله لا يحتاج إلى أدعية جاهزة وأنه يعرف تماماً حاجتنا ويقبل أن ندعوه بلغتنا البسيطة وأحزاننا التي تنسينا حتى الأبجدية.. أخذت الكتاب وشكرتها وأنا أمتلئ بديون حنان لا أعتقد أن بإمكاني أن أسدّد جزءاً منها ذات يوم.

رنّ هاتفي وكان أحد الزملاء المشاركين في الرحلة واسمه سجاد وهو من كربلاء.. قال لي إنه في المطار أيضاً لكنه لا يعرف شكلي ولم أكن أعرف شكله أيضاً، فوصفت له مكاني وألوان ملابسي ليهتدي بها نحوي.. ولم يطل الوقت حتى رأيته أمامي مبتسماً.. لم يكن كما توقعته.. كان عمره ثلاثينياً في حين أن صوته كان يشير إلى عمر أكبر من ذلك.. كان أسمر وطويلاً وأجمل ما به لكنته الجنوبية..

– أهلاً زهرة، جيد أني ميزتك فالكثيرات ترتدي الأبيض هذا اليوم إنه يوم البياض العالمي

حييته وأطلقت ضحكة كتومة خشية من خالتي التي لا يعجبها المزاح مع الغرباء.. أخذني سجاد إلى بقية المشاركين في الدورة نفسها.. اندهشت حين لم أجد أية امرأة معي وأنهم جميعاً رجال! كما توقعت لم يعجب الأمر خالتي وبدا ذلك واضحاً على ملامحها. لكن الحظ الجيّد يصرّ على مرافقتي، لهذا اتصل خالي بها ليخرجها من مخاوفها وقلقها الذي تفاقم.. كنت أسمعها وهي تؤكد له أنه لا توجد فتيات مشاركات سواي. وشعرت أنه كان يطمئنها..

بعدها نادتني خالتي وأعطتني الهاتف لأن خالي يريد أن يخبرني ببعض التفاصيل وهو في طريقه لبيروت:

– حبيبتي زهرة.. طمأنت خالتك كثيراً فاحتملي قلقها

– لا بأس أنا معتادة عليه

– اسمعيني ولا تظهري أي ردة فعل أمام ما سأقوله لك

- حسناً
- أنا لن آتي لبيروت، أخبرتها بهذا فقط لكي تستريح من قلقها وتمنحك هامشاً من الحرية، بإمكاني أن أحضر لكنني لا أريد أن أحرمك من هذه الفرصة الرائعة لتكوني مع نفسك وتعيشي هذه التجربة المهمة في حياتك، خالتك محقة في خوفها فهي لم تر من العالم أبعد من المنزل ومدرستها..، سأكون على اتصال دائم معك وسأحول لك ما تحتاجينه من نقود، أريدك أن تفرحي ولا تحملي هماً لشيء

لم أنجح في إخفاء دهشتي.. بل صدمتي.. حتى إن نظرات خالتي بدأت تشك في أن أمراً ما قد حدث.. استجمعت صوتي وقلت له:

- شكراً لك، لا أعرف ماذا أقول.. كم أنا محظوظة بك.. أنت وخالتي هدية الله لي

قلت هذا ودمعت عيناي.. خالتي بكت.. وبكيت أنا.. وكان خالي يشاركنا البكاء في الطرف الآخر من الأرض.. جاءني صوته مغالباً دموعه:

- أنت لا تعرفين كم أنت غالية علينا وماذا تعنين لنا.. أنت محور حديثنا وسعادتنا، فلا تجزعي من كل هذا الحب

ويودعني صوته المليء بالحنان.. يستعجلني سجّاد مع بقية الزملاء وأحمل حقيبتي فقد حان موعد طائرتنا.. احتضنتها وأشعر بحرارة دموعها تعانق دموعي. يقاطعنا سجاد وهو يحاول تلطيف الجو:

- بيروت تبعد ساعة وربع من بغداد فلا تقلقي يا أمي ستكون أمانة في رقبتي

تشكره خالتي وأعرف أن كلامه وكلام خالي لم يطفئا قلقها لكنها تغالب هذا القلق وتعانقني وتوصيني بالحفاظ على نفسي. نحمل حقائبنا ونصطف من جديد مع بقية المسافرين.. يتأكد الضابط

من بعض الأوراق الثبوتية ونصعد الطائرة، عند الباب تستقبلنا المضيفة بابتسامة عريضة بلا طعم ولا لون ولا رائحة.. نجلس في المكان المخصص لنا، فأجلس بجانب سيدة متوسطة العمر.. لأعرف فيما بعد أن دعاء خالتي قد استجيب لأنها كانت ستنزعج لو أني جلست بجانب رجل غريب.. يطلبون منا شدّ الأحزمة استعداداً لإقلاع الطائرة.. وتبدأ الطائرة بالتحرك وتزداد سرعتها بالتدريج حتى تطير..

يخفق قلبي.. أغمض عيني وأقرأ الآيات.. لا أستطيع فتح حقيبتي لإخراج الدعاء الذي أعطتني إياه خالتي.. فألوذ بالأدعية التي حفظتها لمناسبات مختلفة أقرأ دعاء الغيث.. وأستدرك: ماذا لو أن السماء أمطرت اللحظة ونحن في قلب زرقتها!

أتراجع عن الدعاء وأخفق بالخوف وكأن قلبي سيخرج من مكانه.. إنه انخفاض الضغط الذي تحدثوا عنه.. تنتبه المراة لخوفي فتطمئنني:

– لا تقلقي كل شيء سيكون على ما يرام، يبدو أنها المرة الأولى التي تسافرين بها؟

– نعم

– اطمئني بيروت جميلة.. وتستحق هذا الخوف

– هل زرتها من قبل؟

– نعم إنها تشبه المدن الأوروبية.. بل أجمل.. وصفوها بأنها سويسرا الشرق

ويبدأ خوفي بالتلاشي.. حديثها يبدّد خوفي وربما كانت تفتعل أي حديث لتنتشلني من خوفي الذي بدا واضحاً حتى للمضيفات.. شيئاً فشيئاً..

اعتدت أجواء الطائرة.. وبدأت أتغلب على الفوبيا التي أعانيها من الأماكن المرتفعة.. ألقيت بنظري من نافذة الطائرة فوجدت الغيوم وهي تشكل أشكالاً كثيرة رائعة الجمال.. وشعرت بأن أمي

تتمدد فوق هذه الغيوم وتركض فوقها بجسدها الضوئي مع أبي.. قرأت لهما سورة الفاتحة ونادیتهما بقلبي ليشهدا فرحي بعدما شهدا بكائي على الأرض.. تذكّرت دعائي بان أكون معهم في السماء وذهلت وأنا أتوسّد الغيم! تمنيت أن أسجد لله في الطائرة فلم أتمكن فسجدت له بقلبي.. وكنت أعرف أنه يسمع صلاتي.

أعلنت المضيفة عن اقتراب هبوطنا مرحبة بوصولنا إلى بيروت.. وخلال دقائق.. بدأت الطائرة تهبط.. وقلبي يهبط.. وشيئاً فشيئاً.. كنّا في مطار الحريري.. في قلب بيروت.

غيبوبة الضوء

«وراء كل رجل عظيم.. امرأة عاشقة..
كنت أحب ظهرك أكثر.. فقد كان يغريني لأسند
عليه قامة حزني وخوفي..
لأتعلق بكتفه مثل طفلة لم أكنها..
لأنزع أجنحتي وأستسلم لطيرانه..
وأكسر بوصلتي تحت أقدامه وأنصّبه بوصلتي
الوحيدة التي لا تشير إلا للوجهة التي يقررها
هو.. لا التي أقترحها أنا..».

منذ المطار.. لم يفارقني ذلك الإحساس الفريد بأني أسير على أرض لا وجود لها سوى في أحلامي.. وعبثاً كان الآخرون يقنعونني بعكس ذلك.. كانت غرفتي في الفندق تضاهي ما رسمته أحلامي.. وتلك الشرفة.. كانت عالماً آخر..

في شارع (كركاس).. ابتدأ كل شيء.. بدأت أكتب حياتي بقلم لا يشبه قلم الرصاص.. وبحبر أخضر يستقي خصوبته من كل شبر في بيروت.. كنا نستيقظ صباحاً ونذهب لقاعة المحاضرات التي تستمر حتى انتصاف النهار لنرجع بعدها مستمتعين ببقية اليوم..

الغربة التي شعرتها وأنا أتطلع إلى زملائي المشاركين معي تحولت إلى حميمية كبيرة وشعرت كأننا عائلة واحدة... كان سجاد الأكثر حيوية بيننا وهو من أزال تلك الغربة بذكائه وخفة ظله.. لم أصدق أننا أنفقنا ثلاثة أيام من وجودنا في بيروت..

كانت خالتي تتصل بي كل يوم مرتين وأحياناً أكثر، وكنت أطمئنها أن كل شيء على أحسن حال وكان قلبي يقرصني وأنا أخبرها أن خالي معي وأننا مستمتعان بوجودنا.. لم يتركني خالي يوماً واحداً بلا اتصال.. وكان ينصحني بالتمتع بأكبر قدر ممكن وألا أضيّع وقتي في النوم.. لم أكن أرافق الزملاء باستمرار فكل له وجهته الخاصة ولم أكن أحب أن أكون عبئاً..

كنت أستمتع بسيري وحدي في بيروت.. وأكثر مكان أسرني بأناقته هو شارع الحمراء.. ذلك الشارع الذي تنتشر فيه المقاهي بطرازها الأوروبي والمحال الأنيقة.. والمطاعم الناعسة..

لم أكن أريد أكثر من ذلك.. لأشعر بسعادة حقيقية تمسح عن

قلبي سخام الحرب وتضع عن ذاكرتي أوزار وجوه لم تعد تطاردني منذ أن وطئت هذا الركن القصي من الحلم..

في المساء قررت أن أذهب للبحر الذي كان قريباً من فندقنا الذي كان بجانب (الروشة).. ذلك المكان الذي أصبح جزءاً من هوية بيروت ولبنان على حد سواء.. عند الكورنيش.. انتشر العشاق الصغار على الجانب المقابل له.. ولم أكن أرى عاشقين إلا وكان العناق ثالثهما.. ولم يكن أحد يأبه لهم إلا أنا! كنت أخجل من تطفلي فأدير وجهي للبحر..

كانت السماء بدأت تندي خطواتي بالمطر الناعم.. وتذكرت آخر مرة عانقت فيها مطر العراق.. كانت في ذلك المشوار الذي أضحى بعيداً عن متناول الذاكرة.. تذكّرت دكتور ناصر ولقاءنا العابر والشال الذي تركته في الخزانة المعتمة خوفاً على سعادتي من التبخر..

على إحدى المصطبات المقابلة للبحر رميت بجسدي.. لأول مرة أشعر بوحدة حقيقية وسط العشاق الذين يحيطون بي.. لكن البحر كان كريماً معي وهو يرمي لي بأمواجه.. وقفت خلف السور الفضّي أرقب أمواجه فيما كان المطر قد بدأ يعانقني من جديد.. عرفت أنها رسالة البحر التي ترجمها عبر أكثر الكائنات حميمية إلى قلبي..

بدأ العشاق ينسلّون بهدوء محتمين بأجساد بعضهم من قبلات المطر.. فيما راح جسدي ينأى بصمته وعرائه متوجهاً نحو ملاذ الفندق المزروع في قلب بيروت.. كنت أعانق المطر وأمضي مرتدية قبعتي البيضاء التي اشتريتها خصيصاً لمثل هذا الحلم الباذخ.. وكان أصحاب التكسي يتصورونني من بيروت وحين يعرفون أني عراقية كانوا يندهشون من وجود حياة في العراق وأن ثمة من لا يزال يراهن على هذه الحياة ويأتي للدراسة والمعرفة..

كان الطريق للفندق لا يدعو للملل، ففي كل شبر تطالعني لوحة

باذخة الجمال.. في كل مقهى كنت أجد روحي التائهة تشرب فنجان قهوة قبالة وحدتها التي أصبحت صديقتها لا خوفها الكامن.. وفي كل عناق لعاشقين كنت أعانق جسدي وأمضي.. نحو ذلك المجهول الجميل.. أجمل ما في الحياة أننا لا نعرف أين ستقودنا خطوتنا التالية وأي الأمكنة تنتظرنا..

وصلت الفندق فاستقبلني موظف (الرسبشن) بابتسامته وحيّاني باللبناني:

- كتير لابئتلك هالبرنيطة

خلعتها وأعطيتها له وقلت له باللبناني أيضاً:

- تكرم عينك

ضحك وشكرني وهو يقول:

- مابتلبأ إلا لإلك مدموزيل يسلمو

وقبل أن أذهب إلى المصعد استوقفني وأخبرني أن أحد الزملاء ينتظرني في مقهى الفندق. أخذت قبعتي ومضيت أحضّر لأعذار تنقذني من عتاب سجّاد الذي تهربت من الذهاب معه ومع بعض الزملاء لكي لا أكون عبئاً.. دخلت المقهى أبحث عنه.. كانت رائحة الأركيلة المطعّمة بجوز الهند تفوح من المكان وتلك الأضواء الخافتة ترمي بظلالها على الجالسين.. لم أتمكن من رؤية سجاد فعرفت أنه غادر المقهى..

كان وقوفي قد طال وجعل البعض ينتبه له فأدرت وجهي لأغادر.. وقبل أن أخطو باتجاه الخلف اصطدمت بجسد كان يقف خلفي مباشرة.. رفعت رأسي بسرعة لأعتذر منه فإذا بي أشهق شهقة الذهول التي انتبه إليها الجميع! سقطت القبعة من يدي حين أخذ قلبي يصيح بأعلى دهشته! بكلتا يديه اللتين تشبهان الوطن في أحلى تجليات أمومته وأبوته انحنى على قبعتي وحملها.. لكنه لم يضعها بين يدي هذه المرة.. بل وضعها على رأسي.. وألبسني إياها! شعرت بأني ملكة تحسدها كل ملكات الكون..

كان يتطلّع لارتباكي وذهولي بابتسامته التي نطق بها أولى الكلمات:

- لم أتمكن من رؤية قبعتك تسقط... دون أن أحملها لكِ

تلبّسني جنون العالم وأنا أفكر بأن أدع يدي تجيبك بدلاً من لساني الذي أصابه خرس السعادة والدهشة! لكني أعرف أن يدي ستفضح قلبي حين تعانقك.. بل تطوقك.. أو تحبسك أو لا أدري أية حماقة كانت سترتكبها اندهاشاً بك! أنت القروي الذي غادر (سمره) وتعلق بجناح المطر وجاءني ليحملني إلى أقصى الدهشة! بأية كلمات سأقلّل من شأن ذهولي؟ ألا يستحق رجل كهذا أن نطلق له عنان كلماتنا وما في حوزتنا من لهفة لم تطفئها اللاءات بعد!

قلت لك وأنا أثبّت القبّعة على رأسي والكلمات على لساني:

- وهل قبعتي سبب قدومك لبيروت؟

أجابني بسحر عينيه الصغيرتين.. وابتسامته التي تشبه ابتسامة طفل:

- بل لأجل صاحبة القبعة.. بعدما يئست من اتصالها

قلت وما زلت أعاند اللهفة كي لا تفضح قلبي:

- لم يكن ثمة سبب للاتصال

تأملني برهة ثم قال:

- لكنني امتلكت ألف سبب للحاق بكِ

وطار القلب من قفصه المحكم.. تدفقت شلالات الفرح إلى تجاويف أرضه التي تشققت يباساً.. وسمعت أصوات عصافير انطلقت أسرابها من سجون أحزاني السرّية.. ورأيتني أرقص رقصة بربرية تحت مطر إلهي هطل إليّ من خزائن السماء.. مدّ إليّ يده ليصافحني قائلاً:

- أنساني وجهك أن أسلم عليك

صاح القلب في سرّه..

(ولفرط جنوني بوجودك.. نسيت أن أصافحك عناقاً.. أن أدسّ رأسي بين ذراعيك لأبعثر أحزاني بين أصابعك.. ولفرط بكائي.. نسيت أن أتقلد ابتسامة عينيك بعد سنوات كالحة لم أتقلد فيها سوى النحيب.. ولفرط عطشي.. نسيت أن أرتشفك بفم صحرائي الشاسعة..).

قال لك صوتي منذّداً بجنون قلبي حين مددت يدي لأصافحك:

– كلانا عقدت الدهشة يديه

ها هي يدي تغفو في كفّه.. وأشعر بكفّيه تتحسسان أصابعي وتقبضان عليها بقوة.. ويسترسل القلب في هذيانه الذي لا يسمعه سواي... ها أنت تتحسس يدي.. حاذر أن تترك أصابعها مرة أخرى تعانق الخواء.. ها هي يدك تتحسس أصابعي تتمرد عليّ وهي تستسلم بخنوع لذيذ لأصابعك القوية..

طال عناق أصابعنا فتآمرنا على عناقهما ونحن نعيد أيدينا لتعانق جيوبنا وتسخر من خوفنا وخجلنا.. قلت لي بصوتك الذي أصبح أجمل من كل سيمفونيات الكون وبلهجتك القروية الحميمة:

– هل نخرج لنتمشى قليلاً.. ما زال الوقت مبكراً.. هذا إن لم تكوني مرتبطة؟

هذه المرة تآمرت أنا مع صوتي على خجلي وارتباكي وقلت لك:

– لا يمكنني أن أخذل المطر وأدعه ينتظرني أكثر.. مع رجل المطر.

ابتسامتك التي أيقظتني تماماً.. وأفقدتني ذاكرتي كاملة.. كانت ترافقنا ونحن نجوس بيروت بجسدينا.. ولأول مرة.. لم أكن أعانق جسدي تحت المطر.. فقد كنت.. أعانق عطرك!

قلت لي ونحن نسيرعلى مسافة معقولة تفصل بين جنوننا:

– إلى أين ستأخذينني؟

قلت لك بعد تفكير:

- لا أدري

ووجدت ابتسامتك تنتظرني من جديد.. فيها وجدت ملاذي وأمني وطمأنينتي.. فيها وجدت وطناً كان يسكنني وعبثاً حاولت أن أسكنه..

وجاءني صوتك مكملاً لصوت المطر:

- هذه أحسن وجهة

ومضيت معك.. جسد يعانق ظلّه.. وتر يلتحم بقيثارته ليعزف لحناً مقدساً بإيقاع بحر وجدناه يقف قبالة اندهاشنا بالآخر.. قلت لك وأنا أتأمّل البحر:

- لقد كنت هنا قبل أن تأتي بقليل

- ونحن الآن معاً.. ألا يغيّر ذلك شيئاً؟

كان سؤاله مباغتاً يحمل جواباً لا مفر منه.. وكان الخوف قد عاد إليّ من جديد لهذا قلت:

- هل هذه زيارتك الأولى لبيروت؟

- زرتها كثيراً لأجل العمل.. لكنها المرّة الأولى التي آتي إليها لأجل امرأة

كأنه يصرّ على إسعادي بكل ما تحلم أن تسمعه امراة.. وكان يكفيني أن أراه معي.. هكذا تحت المطر.. كما رأيته أول مرة.. اعترفت له بصدق لمنحه زهواً مماثلاً:

- وهي المرة الأولى التي أخرج فيها مع رجل.. ليس لأجل العمل.

لم يشعر بالزهو كما تصوّرت فقد بادرني بسرعة:

- لأجل ماذا إذن؟

(أنا نفسي لم أكن أعرف لماذا! كل الذي أعرفه أن عليّ اقتفاء عطر رجولتك.. وإنّ على امرأة مثلي أن لا تسأل لماذا أنت بالذات! وكيف حدث ذلك! وإلى أي جحيم سننتهي! فهذه أسئلة وجودية.. كسؤالنا عن الحياة والموت...).

قلت لك في محاولة لإيجاد مسمّى ينقذنا من التأويلات والذهاب بعيداً بأحلامنا:

- لأجل صداقتنا التي ابتدأت تحت المطر في (سمره)

كان صمتك دليلاً واضحاً على عدم ارتياحك لإجابتي، قلت لي وأنت تجول بنظرك عرض البحر:

- هل نذهب لمكان آخر..؟

- كما تحب

- دعينا نلتقط صورة قبل أن نغادر البحر

والتقطت لنا إحدى العابرات صورة حافظنا فيها على تلك المسافة القاتلة بيننا.. ذلك الفاصل بين بلاهة العقل.. وسحر الجنون..

قلت لي وكأنك تهمس مع نفسك حين تأمّلت صورتنا في شاشة الكاميرا الإلكترونية:

- كم أنت جميلة.. وكم تليقين بي

وصاح قلبي الذي لم تسمعه:

- كم تليق هذه الرجولة بجنوني

لكن صوتي ارتدّ عن لهفته وهو يقول لك:

- كم يبدو البحر جميلاً خلفنا

ومضينا من جديد.. تعانق خطواتنا الشارع الممتد من (الروشة) إلى فضاء الله.. قلت لي ونحن نواصل سيرنا:

- تبدين جميلة بهذه القبّعة

غالبت خجلي وقلت:

- شكراً لك.. وللقبّعة

وجاء ردّك كمن يصدّ تهمة:

- أنت جميلة بقبّعة وبدونها.. كنت جميلة حين كنت ترتدين ذلك الشال.. وحين سقط ظهرت شمسك التي كانت تختبش خلفه.. أنت امرأة استثنائية في وقت تتشابه فيه جميع النساء.

لأني ارتبكت حاولت أن أغيّر مجرى الحديث لكي لا يفضحني قلبي:

- شكراً لإطرائك

- هذا تكسي هل نغادر الآن؟

وذهبتَ إلى التكسي... فتحتَ لي الباب.. وصعدتُ.. تماماً كالأميرات.. خلفك جلس ذهولي.. وكانت فرصتي لأمارس شغفي بالجلوس وراء ظهرك.. أو السير خلفك.. فوراء كل رجل عظيم.. امرأة عاشقة.. كنت أحب ظهرك أكثر.. فقد كان يغريني بأن أسند إليه قامة حزني وخوفي.. أن أتعلق بكتفه مثل طفلة لم أكنها.. أن أنزع أجنحتي فوق كتفيه وأستسلم لطيرانه.. أن أكسر بوصلتي تحت قدميه وأنصّبه بوصلتي الوحيدة التي لا تشير إلا للوجهة التي يقررها هو.. لا التي أقترحها أنا..

سمعتك تقول للسائق:

- خذنا إلى (جونيَه)

وافقك السائق رغم أنه وضعك أمام احتمال أن (جونيَه) الآن مغلقة المحال و(التلفريك) الذي تنشده مغلق.. لكننا مضينا..

لم تدهشني بيروت في تلك الليلة بقدر ما أدهشني كتفك الذي احتميت به وجلست خلفه.. كم هي محظوظة زوجتك لتتعلق به دون أن تدري أن لكتفك كل هذا البهاء! وتذكرت في تلك اللحظة زوجتك.. التي لهاجس ما قرّرت أنها لا تليق ببهائك. ولا تعي سحر رجولتك! كانت دهشتي قد بدأت تنحسر ومشاعري تخبو وأنا أتخيل زوجتك على الطرف الآخر.. لم أنجح في طرد وجودها من بيننا.. رغم ذلك لم أقاوم سحر الانجذاب لصوتك وهو يتحدّث عبر الهاتف.. تلك اللغة العملية التي لا أحبّها بدت لي أجمل من كل قصيدة سمعتها.. وبدأت أتعلّم الكثير من لهجتك القروية.. ذلك الواو الساكن الذي يقفّي كلماتك.. ولغتك.. (جيبو... استلمتو). إنه الجنون بعينه!

سألتَ السائق عن الطريق الذي طال أكثر مما ينبغي فاعترف لنا أنه ليس من أهالي بيروت وإنه من سهل البقاع! لم تتمكن من إخفاء انزعاجك.. فبدأت تلومه لعدم إخبارنا بذلك فقلت له:
- خذنا إلى أي (مول) بدلاً من (جونيه) وبقيت تلومه

لم أكن أحتمل أن أراك تلوم إنساناً أمامي لأي سبب كان. فما كان مني إلا أن أمدّ يدي إلى كتفك وأدسّه بإصبعي لتكفّ عن ذلك.. وشعرت كأني أضغط على زرك السرّي.. وأطفئ غضبك.. ليزداد جنوني اشتعالاً بك! على الفور استدارت السيارة بنا متجهة إلى الـ(ستي مول).. لم يطل بنا الوقت حتى وجدنا أنفسنا أمام المول.. ونزلنا..

لم تكن المرة الأولى التي أزور فيها المول.. لكني شعرت أن لكل شيء طعماً آخر ولوناً جديداً لم ألحظه من قبل... كنت تلقي بسحر رجولتك على الأمكنة كلها.. دون أن تعي ذلك.. وكنّا نتجوّل وأدّعي انبهاري بما تقع عيناي عليه من بضاعة أنيقة.. محاولة أن أتلافى افتضاح انبهاري بك! قلت لي ونحن نتوقف عند ركن المصوغات الذهبية والمجوهرات إنك تريد أن تشتري لي شيئاً منها أظل أذكرك به.. لكنني رفضت.. فبيروت كلها ستظل قرطاً في ذاكرتي ترسم خطواتنا.. بل إنك على الأرجح أصبحت ذاكرة قائمة.. وبلا منازع!

بعد تجوال بين الطوابق المزيّنة بأشجار الميلاد الذي كان يطرق الأبواب.. جاءني صوتك الذي أشعرني بأمومتي:
- أنا جائع

وابتسمت لجوعك الذي كان يقابله شبعي بل تخمتي من وجبة السعادة الباذخة التي منحني إياها وجودك.. أردف صوت الطفل فيك:
- هذا مطعم أمامنا لنتعشى هنا

ولم أقل شيئاً.. فقد كنت منذورة لأقتفيك.. بجوعك

وجنونك.. ودخلنا المطعم معاً.. لم يكن مطعماً بالمعنى الدارج.. كان تصميمه أمريكياً بامتياز.. أما طعامه فقد تفاجأنا أنه لا يقدم سوى أجنحة الدجاج.. بالصلصة! أنت وافقت على مضض.. وأنا وافقتك بلا نقاش..

وضعوا لنا أجنحة الدجاج مع قفازين بلاستيكيين ومضوا.. انتظرنا الخبز وحين تأخروا ناديتهم.. فإذا بهم يخبروننا أن مطعمهم على الطراز الأمريكي وإنهم لا يستخدمون الخبز قي طعامهم بل القفازات البلاستيكية! وعقدت الدهشة لسانك فيما راح ضحكي ينطلق في فضائك المندهش..

كان الطفل فيك يصرّ على الحصول على قطعة خبز ولو صغيرة مع القليل من اللبن الذي تحب! إنه طعام القرى الذي تصرّ عليه حتى وأنت في مطعم أمريكي! حتى في المطعم فشلت أمريكا في إلباسنا قفازتها البلاستيكية مثل حرّيتها البلاستيكية التي صنعتها خصيصاً لنا.. كنا نحاول الأكل بالقفازات ونضحك.. حتى عشاؤنا.. كان مبتكراً.. لم نتذوّق مثيله من قبل.. كهذه القصة التي لم يخيل لي أني سأعيشها.. أو أكون نقطة فاصلة في إحدى فصولها...

لم تكن تخجل من الأكل أمامي بنهم واضح.. فيما كان خجلي يسابق أصابعي وهي تحاول ألاّ تبقى صامتة ترقبك مثل طفل يجلس منبهراً أمام كرة سحرية الألوان.. انتهينا من الطعام.. وكان وجهك قد استردّ حيويته... تحدثنا في أمور عامة.. لم تكن تعنينا.. راودني الشك أنك حصلت على الشهادة من خلال صفقة ما.. لكنني ابتلعت شكّي وصمت.. فهذا الذي يحدث لن يكون إلا جنوناً عابراً... نهاية هذه القصص معروفة.. رغم أني لم أقرأ قصّة مشابهة.. لكن.. كل النهايات متشابهة في خيبتها!

كنا نوشك على الخروج من المطعم الذي بدا فارغاً إلا منّا.. لكنّك استوقفتني لنلتقط صورة أخرى.. كنت تجلس أمامي وبيننا الطاولة الصغيرة.. لكنك استوقفت النادل وتحوّلت من مكانك

وجلست قربي.. شبر يفصل بيننا وينقذنا من جنون أكيد! التقطنا الصورة.. وعدت تتأمّلها من جديد في الشاشة الإلكترونية:

- انظري.. كم تليقين بي

هذه المرة أجبتك بابتسامتي.. فلم أكن قادرة على ادعاء عكس ذلك.. ولأني أيضاً.. كنت مخدّرة بجلوسك قربي.. إنها الطاقة التي نجهلها في أجسادنا.. تلك القدرة الهائلة التي تنبعث من حواسنا وتؤثرفينا وتسيّرنا كيفما تشاء.. ذلك السحر الذي يطلقه الجسد ويتحكم بنا دون أن يكون قادراً حقاً على لمسنا.. أو الاقتراب أكثر من أسواره وحدوده المكهربة.. كنت تعبث بفيزيائي دون أن تدري.. كما كنت أعبث بكيميائك وأرى ذلك بوضوح.. ودون أن تكون لي القدرة على إيقافه! نهضت وأنا أقول لك كمن بدأ يستيقظ من إغفاءة:

- المول بدأ يفرغ من الناس.. يبدو أننا تأخرنا

ونهضت على مضض.. خرجنا يلفحنا الهواء البارد.. رأينا أسراب العشّاق تسير على الرصيف المحاذي لدهشتنا.. قلت لي بصوت معاتب:

- انظري.. كلهم يمسكون بأيدي بعضهم .. إلا نحن

فقلت لك باستدراك:

- لأنهم عشّاق... ونحن صديقان.. هذا هو الفرق

- وهل توجد صداقة بين الرجل والمرأة؟

- حتماً

- لا أعتقد ذلك

- سأوجدها إذن

وكان كلامي نقطة حاسمة على السطر الأخير قبل أن نستقل سيارة أجرة أخرى لنذهب إلى فندقك.. حسب اقتراحك.. لنكمل السهرة في المقهى..

مررت كثيراً بفندق (كراون بلازا) وسط (الحمراء).. لكنني لم أنتبه إلى أنه باذخ الأناقة إلا حين جلست أمامك لا يفصل بيننا

سوى طاولة تمدّدت عليها دهشتي التي أخذت ترقبك معي.. قلت لي كأنك تريد أن تكمل حديثاً قطعه الطريق:

- لماذا تصرّين على أن الذي بيننا صداقة؟ على الأقل من ناحيتي أنا!

لم أكن أريد أن أسمعك أكثر لأني كنت أشعر بما ستقوله قبل أن تنطقه... ولأن ما ستقوله سيئد ما بيننا قبل أن يولد. لم يكن بمقدوري نسيان زوجتك.. وابنك.. أو أطفالك... ولأنني ما زلت لا أعرف شيئاً عنك سوى أنك هبطت إليّ من المطر.. قلت لك وأنا أحاول أن أمتص اندفاعك:

- ما زلت لا أصدّق أنك لحقت بي إلى بيروت.. أتصور أن لديك مشروعاً أو صفقة ما وأن لقاءنا ليس أكثر من صدفة غير متوقّعة

كان صوتك هادئاً غير آبه باتهامي لك، فرميت لي بجواب لم تكترث إليه كثيراً:

- اسألي مديركم إذن!

صعقني جوابك ورحت أسألك بإلحاح:

- هل عرف أنك معي؟ لحقت بي؟ هل أخبرته بذلك؟

- لا تفزعي.. سأفكر ألف مرة قبل أن أخطو خطوة واحدة نحوك.. منذ أن رأيتك شعرت بأنك التزام أخلاقي بالنسبة لي

- إذن؟

- سألته عما إذا كانت لديهم رسائل جديدة لـ(سمره).. وكنت أتحجّج لأعرف أي خبر عنك، فإذا به يخبرني أن مسؤولة الأسرى والمعتقلين مسافرة إلى لبنان لحضور ورشة تدريبية.. ولم يكن صعباً علي أن أعرف في أي فندق تنزلين. بقيت أتأملك وأزيح ستائر الخجل عن نظري.. أتأمل عينيك الصغيرتين وأحلم بأن أخبئهما إلى الأبد.. في تلك اللحظة استيقظت أنانيني بكامل جنونها.. كنت أريد أن أطلب منك ألا ترتدي قميصك الصحراوي إلا معي لأكون مطرك الأوحد.. وألا يتعلق معصمك بساعتك الذهبية إلا حين تصافح زمني لنؤرخ سعادتنا فوق عقارب أيامها..

وأن تدخّر صوتك ليزيح غبار الصمت عن مسامعي فقط.. وألا تنفق عطرك إلا لأقتفيك.. مدينة وبلاد.. لكنني تذكرت كل ما يقف بيننا ويكبح هذا الجنون. لذا سألتك سؤالاً مباغتاً:

- كم هو عمر ابنك؟

لم تتفاجأ لسؤالي.. وأبديت ارتياحاً له:

- عمره أربع سنوات.. ولديّ بنت صغيرة عمرها الآن عامان

- ما اسمها؟

- دنيا

- هذا اسم جميل ومعناه أجمل..

- زوجتي إنسانة طيبة وبسيطة.. لم تكمل حتى دراستها المتوسطة..

لم أسأله لماذا قبل أن يتزوج من امرأة غير متعلمة قياساً بشهادته ما لم يكن مقتنعاً بذلك.. وحاولت تغيير الموضوع:

- إننا لا نأخذ أكثر مما قسم الله لنا في هذه الحياة وعلينا أن نكون راضين وقانعين

- نعم.. نحمد الله على كل شيء

لكن هنالك أقدارعجيبة لا نستطيع مقاومتها.. وصمت أمام كلامك لأنه يتجاوز الحد الأحمر للحلم... لم أكن أحلم بأكثر مما يحدث الآن.. كان يكفيني أن تتبعني لأجل أن تراني.. إنه الزهو الذي لا يعادله زهو .. وجدتك تمسك بورقة كانت موضوعة على الطاولة مدوّن فيها معلومات عن خدمات الفندق وبعض الإعلانات.. وقلبت الورقة لتكتب خلفها شيئاً وتعطيني إياها بخجل واضح على وجهك.. أخذت الورقة وقرأتها.. بقيت أتعلق بحروفها وأملي نظري من بهائها وسحرها.. (أحبكِ).

كان كل حرف فيها يحكي حكاية ويفتح نافذة على مجهول يجذبني نحوه ولا أجرؤ على مقاومته.. ولا أريد أن أنجح في ذلك مطلقاً..

قلت لك بفرح مرتبك:

- لا أعرف ما الذي يجب أن يقولوه في هذه المناسبات.. لم أواجه موقفاً مماثلاً

وفي الحقيقة كنت أكذب عليك.. فقد واجهت هذه الاعترافات كثيراً وأغلقت الأبواب بوجهها.. وكنت أغلق الباب وأعرف أن تلك الفرص الثمينة في تقدير النساء قد لا تتكرر.. لكنني معك فتحت الأبواب والنوافذ لتدلي بجنونك حتى آخر قطرة حبر.. قلت لي بهدوئك وبرودك:

- لا تقولي شيئاً.. المهم أني ارتحت ما إن أخبرتك بمشاعري نحوك.. كنت أشعر بضيق كبير طوال تلك الفترة

كنت أنتظر اتصالك... وأعرف يقيناً أنك لن تتصلي بي.. لم أتمكّن من الانتظار أكثر.. فتبعتك.. وعرفت كل شيء عنك.. وعن خالتك.. وأهلك.. استعدت الورقة من يدي وأضفت لها التاريخ.. قلت لي بفرح طفل:

- سأحتفل في اليوم الخامس من كل شهر بيني وبين نفسي.. أو بيني وبينك.. لأنه يحمل تاريخ اعترافي لك

غالبت دهشتي وربما إشفاقي على فرح الطفل فيك وأنا أقول لك:

- دكتور.. أرجوك لا تجعل الأمر هكذا.. أنا لا أصلح لأكون عاشقة أو معشوقة

لم أتعوّد ذلك وحياتي لا تصلح لمثل هذه القصص.. ولا تنسَ أنك رجل متزوج ولديك أطفال وهذا الدور لا يليق بك أيضاً. كان الطفل فيك يصرّ على ملاحقتي برغباته ومطالبه التي لا يتنازل عنها بسهولة..

قلت لي بإصرار أحببته فيك:

- أرجوك لا تناديني هكذا.. حتى في العمل لا أحب ذلك.. هيا انطقي اسمي الآن.

وجربت أن اتلفظ اسمك بلا زوائد.. وشعرت أني ما زلت أحبو على الحروف الأولى للأبجدية.. وبفرح من يلفظ كلماته الأولى نطقت اسمك:

- ناصر

- كم يبدو جميلاً على لسانك

- أريد أن أطلب منك طلباً، لكن عديني أن تفكري ألف مرّة قبل أن تجيبيني

- أعدك

نظرت إليّ بعمق وتنفست وكأنك تستعد لخوض حرب ما وجاء صوتك يعلوه الرجاء:

- تتزوجينني؟

كانت أنفاس الليل قد توقفت تماماً.. الزمن كله وقف شاهقاً يشاطرني الذهول والحيرة والخوف الذي عاد بسرعة البرق إلى قلبي.. نتزوج؟ هل يمكنك أن تتكرر في داخلي قبيلة أطفال قرويين يأخذون لون جلدك ولهجتك وتلك الواو الساحرة! هل كنت تقرأ أفكاري أم تمارس معي استبصاراً خطيراً جعلك تقول:

- أريدك أن تنجبي لي طفلاً.. طفلاً مني ومنك.. سيكون هجيناً.. أريده أن يشبهك تماماً

كم رغبت أن أصيح بك وأقول لك بأمومتي التي فجّرها وجودك أني أريده أن يشبهك.. وسأسميه باسمك.. وأن أنجب ولداً آخر وأسميه باسمك أيضاً.. كنت أريدك قبيلة أطفال تستنبت أرضي بلونك وعبق جسدك.. لكنني لم أخبرك بكل ذلك.. فأنت وأطفالك لن تخرجا عن ستائر هذا الليل الذي سينتهي عند افتراقنا..

قلت لك بحكمة كرهتها كثيراً لانني كنت كمن تطعن قلبها بيديها:

- سأنسى هذا الكلام.. إنه كلام غير مسؤول.. أتصوّر أن رجلاً بمركزك لم يكن صعباً عليه أن يلتقي بامرأة تلبّي له احتياجاته

وتحقق أحلامه.. ولا أنسى أبداً أنك متزوج.. إن هنالك إنسانة تنتظرك.. وأطفالاً ينتظرونك.. كيف تتوقع أن أكون محتلة أخرى! ألم تكتفِ من الاحتلالات؟ إذا كنت تبحث عن امرأة بمواصفات معينة يمكَنني أن أدلّك على الكثيرات.. أما أنا.. فإنسَ أمري تماماً

قاطعني إصرارك الذي أوجع قلبي أكثر وأنا أراك تقسم لي:

- قبلك لم تكن فكرة الزواج واردة على الإطلاق.. لكنني حالما رأيتك.. شعرت أنك لي... أو أردت ذلك حدّ اليقين به.. لا تجيبيني الآن.. خذي وقتك في التفكير.. إذا كانت بيروت أعجبتك فسأشتري لك شقة فيها.. وإذا لم تعجبك.. سآخذك لعمان.. لأي أرض في الكون تشائين، سأطير بك.. فقط اعطيني موافقتك وسترين.

(على حبل الحيرة تركتني معلّقة.. تلك الريبة التي راودتني.. كيف سأبدّدها أمام ثرائك الفاحش الذي لا يتناسب مع عمرك! كيف لي أن أمنح حياتي لرجل لا يزال نصفه الآخر مختبئاً خلف نظاراته السوداء! كان اندفاعك نحوي يريبني لأنه اندفاع لا يتناسب مع لقاءين عابرين.. ويخيل لي أن هذا العرض قد قدمته لامرأة قبلي.. أو ستقدمه لامرأه بعدي ستشعر معها أنها قدرك الآخر! حاولت أن أقول شيئاً لكنك منعتني وقلت لي كمن يسدّ فوهة بركان وشيك:

- لا تنطقي بشيء.. فقط فكري.. وتذكري أن الوقت يمضي من أعمارنا

قلت لك مازحة للهرب من الموضوع:

- إذن أنت لا تبحث عن الروح التي تسكن المرأة بل عن الجسد المحكوم بالسنوات
- كلا الأمرين مهمين.. هل سمعت يوماً أن أحداً تزوج بروحه فقط؟ إنه زواج معاق.. وحين يكون الرجل عاجزاً أمام جسده، يبدأ يتحدث عن دماثة الأخلاق ويهوّلها ويجعلها محور الزواج الرئيسي

انتابتني نوبة ضحك مفاجئة وأنا أراك تحلّل فكرة الزواج بمنظورك السطحي وتفسيرك البسيط للأشياء.. ومضيت في ضحكي كما في أول مرة وكنت تضحك أكثر مني خجلاً ودهشة واضحة وأنت تكمل:

- يلعن أبو الدماثة

وضحكت معك.. رغم أني عرفت وجهك الآخر.. الوجه الذي يبحث عن الجسد.. ولا شيء سواه.. وانتابتني خيبة مدام بوفاري التي قالت: إني ألعن جسدي الأنثوي الذي لا ترون شيئاً سواه.. كانت عيناك تزداد احمراراً وسألتك:

- لست معتاداً على السهر
- هل تصدقين أني أنام منذ التاسعة أو الثامنة مساءً؟
- حقاً؟
- نعم وأستيقظ باكراً
- كم الساعة الآن؟
- إنها الثالثة بعد منتصف الليل

وأصاب بالذهول وأنا أصيح:

- مستحيل؟
- أرجوك.. دعينا نبقى حتى الصباح بعدها سأوصلك إلى حيث تشائين

أنهض وأنا أستعجلك لإيصالي للفندق الذي لا يبعد سوى شارعين عن فندقك.. تنهض على مضض وأنت تسألني عن برنامجي في الغد الذي لا يفصلنا عنه سوى إشراقة شمس..

- هل نلتقي غداً أيضاً؟

ووجدتني أتحجج لك بأني لا أستطيع التغيّب عن الدورة التي ستأخذ نصف نهاري على الأقل. كان يجب أن أحدّ من انحدارنا نحو بعضنا.. أن أستعيد ذلك الإيقاع الصامت بعد هذا الزلزال الذي كسر تماثيل الوحدة في ساحة وجودي.. بقدر حيرتي كان يقيني أن

وجبة السعادة التي منحتني إياها ستكفيني للعمر الآتي.. ولن يهمني بعدها إن افترقنا للأبد.. لأنك ستظل تركض في حقول ذاكرتي كحصان بري أبيض يحملني فوق ظهره ويطوف بي في حقول (سمرة) التي أنجبتك لي.. لي وحدي.. حيث لن تشاركني بك امرأة مشفوعة بصكّ شرعي.. امرأة لم تكن أكثر من وعاء يحتوي أمطارك المقدسة.. هكذا قرّرت المرأة في داخلي.. بأنانيتها!

أحزنني صوتك هو يقول لي بعتب كبير بل بغضب كتوم:

– إذن.. سأعود غداً.. فليس ثمة سبب لبقائي

كان صوتك جرعة قهوة مرّة أيقظتني من حلمي وسحبتني إلى أرض واقع استعادني أخيراً.. هتف لك قلبي الذي لم تسمعه لأنك لم تكن تتقن لغة أخرى غير لغة الجسد.. لذا لم تسمع هتافي بأن لا ترحل.. أن تبقى لتسدّ فوهة قلبي بك.. وتشحذ حنجرة الصمت بصوتك.. وتجري في سواقي العطش نهراً مقدساً.. غير أني ولسوء حظ قلبي.. قلت لك:

– أقدّر كثيراً عناءك في القدوم.. ولا أعرف كيف أقول لك امتناني.. أنا واثقة أنك تشعر به لأنه صادق ونابع من القلب

كنت تغالب انطفاءك وربما خيبتك بي وأنت تقول:

– شكرا لهذا الوقت الذي منحتيني إياه.. وسأثقل عليك بطلب آخر

– ما هو؟

– هل يمكنني أن آتي وأراك غداً صباحاً قبل أن أذهب للمطار؟

كنت مخدوعاً بلغة جسدي التي أقنعتك بأني قد أرفض أو أعتذر عن رؤيتك... لذا بقيت تنتظر جوابي بلهفة ذلك الطفل الذي أحببته فيك.. وتمنيت إنجابه منك.. لم تسمع قلبي الذي كان ينبض حزناً وهو يراك قنوعاً برؤيتي لدقائق قبل أن يبتلعك ثقب الغياب من جديد.. لم تصغ لروحي التي تعلقت بعينيك الصغيرتين اللتين راحتا تتأملاني باشتهاءَ فاضح.. فيما كنت أنصت لدقات قلبك المتسارعة.. وهي تنتظر جواباً حمل أكثر من معنى:

- سأنتظرك في الصباح أيضاً

كنت طفل العيد الذي حصل على عيديته أخيراً وراح ينفق سعادته فيها.. لم تتمكن من سماع تكملة جملتي المبتورة التي أعادت شحنك بضوء السعادة ليعود التوهج لعينيك.. سأنتظرك في الصباح أيضاً.. كما راودت أحلامي في مساءات لم يبزغ في سمائها رجل قط.. كنا نسير كأننا نعزف لحناً لا يسمعه أحد سوانا.. كان الشارع خاوياً.. والمحلات مقفلة.. وحتى محطة الوقود كانت ترقد بطمأنينة وسكينة بين حاوياتها الكبيرة..

كان الوقت يتطاير كالأثير من رصيدنا معاً حتى شعرت أننا كنا نطير على بساط سحري تآمر علينا وأوصلنا بسرعة إلى الفندق.. حيث أورقت دهشتي الأولى على يديك.. لم أكن أشعر بوجود أحد في الكون من حولي.. كان (الرسبشن) فارغاً.. وكنت وحدي أمامه.. وكنت أنت.. تمد لي يدك لتصافحني مرّة أخرى.. وأدركت.. أن دوري في الحصول على هدية العيد قد حان.. فلا أجمل من كفّك هدية لقلبي.. كفّك التي اختصرت المسافات الضوئية بيننا وأعادت صياغتي من جديد لتحوّلني إلى عاشقة لا ترى في كونها سوى ضحكة عينيك.. وذلك الخجل الذي يؤطر كلماتك بين بوح وآخر..

كنت تفوح رجولة وأنت تغالب خجلك وتمسك كفّي بكلتا يديك.. بأصابعك العشرة التي احتارت وهي تتداخل بين أصابعي حيناً.. وتقبض عليها حيناً آخر... ليتك أطلت عناق أصابعنا لزمن آخر.. ليتني لم أسحب يدي بلهفة بدت تكبر مع خيوط الفجر التي تآمرت على ليلتنا الحمراء.. في شارع الحمراء...

همس صوتك باستدراك وأنت تخرج هاتفك:

- أريد رقمك هنا ورقم هاتفك الدائم

ورقص قلبي من جديد. فكانت أرقامي تتراقص في شاشة هاتفك تعلن انتظارها لمعجزة اسمها صوتك.. رغم أني ادعيت أمامك بأن لا حاجة لذلك.. وحمدت الله في سرّي أنك لم تأخذ

ادعائي على محمل الجد.. تمنّيت لي أحلاماً سعيدة.. وفي نعاسي تمنيتك أن تكون حلمي الأوحد.. غادرتك وكنت أشعر بأنفاسك تتعقبني.. في المصعد.. لثمت يدي لأسرق منها بعض عطرك العالق في أصابعي..

وعلى السرير المبعثر.. ارتميت.. كانت عيناك تبتسمان لي وتحيطانني بأمان عظيم.. لم أكن أريد أن أنام خوفاً من غد.. لا أقتفي عطرك فيه.. لكني غفوت.. وتكوّرت على السرير مثل حبل سرّي يلتفّ حول جنين يحمل صوتك.. وابتسامتك.. واسمك.. لم يكن لأحد أن يسرقني من حلمي بك إلا صوتك الذي وجدته يهاتفني في السابعة صباحاً.. أي بعد أربع ساعات من فراقنا.. كم هو جميل صوتك حين أدشّنه قبل أي كائن آخر.. كان حقلاً بكراً يفتك بصحارى الروح وهو يطلق بوجهي رائحة قداح عانق الشمس تواً..

كانت آثار النوم عالقة بحروفك وأنت تقول:

- سأستبدل ثيابي وآتي إليك

غالبت فرحي الذي ما زال يتدفّق منك وقلت لك:

- سأذهب إلى شارع (فردان) حيث مبنى الأمم المتحدة لأستفسر لإحدى الصديقات عن اللجوء ثم أذهب لقاعة المحاضرات

- حسناً إذن.. ستجديني بانتظارك.. لا تتأخري عليّ

نهضت وأنا أحاول أن أسترد وعيي لكي لا يلحظ أحد الزلزال الذي أحدثته في جدار قلبي.. غسلت رأسي بالماء البارد غير أن ذلك الدوار المدهش ما زال يفقدني تركيزي ويجعلني أدور في كوكب آخر لا يقطنه سواك.. ارتديت ملابسي وقبعتي التي تحبها.. وذهبت إليك.. إلى (شارع فردان) الذي أسميته باسمك منذ ذلك اليوم.. حتى أوشكت أن أقول لسائق التكسي إلى شارع ناصر! نزلت من التكسي وأنا ابحث عنك في جميع الاتجاهات.. توقّعت أنك أضعت الطريق إلي.. وبقيت أرقب الشارع وجهاً تلو آخر.. سيارة تلو أخرى.. وكانت لهفتي تزداد كلما طال زمن غيابك... فجأة..

جاءني صوتك من الخلف.. صوتك الذي أسند قامتي من الوقوع شوقاً لوجهك..:

- هل تأخرت عليك؟

أجابك لساني أنك جئت في الوقت المناسب. لكن قلبي كان يلومك: لقد تأخرت زمناً كاملاً.. بقينا صامتين ننظر لبعضنا.. كانت كفّي عاودت الاختباء داخل كفّك.. وبلا مناسبة.. بقيت أصابعي تعانق أصابعك وهي تسخر من خجلنا معاً.. سحبت كفّي من أصابعك التي تشبّثت بي.. قال لي صوتك الماطر الذي امتصته كل مساماتي لتختزنه لجدب غيابك:

- سأذهب الآن.. وسأنتظرك هناك.. أعرف موعد انتهاء دورتكم

كنت تمنحني أملاً بقادم أكثر بهاءً.. وكنت أشارك الخيول العربية استشعارها الزلزال قبل حدوثه.. وكنت زلزالي الذي بقيت أنتظره بلهفة أخذني خارج تغطية دورة العمل الذي جئت لأجله.. وجعلني أستعجل عودتي.. للوطن الذي أخمدت نيرانه بضحكة عينيك..

عند مدخل مبنى الأمم المتحدة التقينا بلهفة.. وافترقنا بجنون.. جلست في مبنى الأمم المتحدة في صالة تعلوها مهانة الانتظار لأستفسر لصديقتي عن إمكانية تقديم اللجوء بعدما فقدت زوجها وشقيقها في المطحنة الطائفية.. كان المكان يعجّ بالعوائل والأطفال والنساء والرجال بكافة الأعمار.. سألني أحد الجالسين وهو عراقي عن سبب مجيئي فأخبرته به وبدأ يقصّ عليّ معاناته في إنتظار غودو اللجوء والكرت الأخضر لجنة المنافي والذي قضى عامين ينتظره دون جدوى! انتابني الأسى وأنا أستمع لحكايته ومراحل انتظاره والمذلة التي يعيش فيها هذا الانتظار.. تبدّلت ملامحه وأنا أقترح عليه أن يعود إلى الوطن فالموت بعزّة أجدى من حياة بمهانة.. فأجابني وكأنه ينزف الكلمات نزفاً:

- أكبر درس في المهانة علّمني إياه الوطن! هناك تعلّمت أني بلا قيمة.. بلا رقم.. بلا كيان..

قاطعته بوطنية نهضت رغماً عني:

- أنت تتجنّى كثيراً على الوطن لتبرّر وقوفك في طابور الإذلال هذا وتنعم بعيش رغيد لا تعب فيه ولا نصب
- حين يهرس الموت أهلك دفعة واحدة.. ستندمين على هذا الكلام وتعرفين كم أنت مخطئة

ابتسمت بوجع لكلامه لأنه لا يعرف أن الموت هرس أهليٍ وغني تدحرج من فك الموت الموت المفترس، فقد كان منشغلاً بهرس والدي... لم ينتبه لوقع كلماته عليّ وراح يكمل بالانفعال نفسه:

- يا سيدتي الوطن الذي تتحدثين عنه ابتلع أهلي جميعاً بلمح البصر ولم يلتفت لموتنا أحد

في ذلك اليوم الرمضاني كانت مناقشة أخي الأصغر في الماجستير.. وكانت فرحة أمي لا يتسع لها الكون فهو الوحيد الذي حصل بيننا على شهادة عليا.. في ذلك اليوم ذهب أبي وأميٍ وعمتي للجامعة وسبقتهم أنا إلى هناك.. أبدى أخي تفوقاً واضحاً في المناقشة التي حصل فيها على درجة الامتياز.. وأخذت الهلاهل والحلوى التي نثرتها عمتي وأمي تملأ الأرض والقلوب.. ولفرط الفرحة قررا الرجوع قبلنا للتحضير لوليمة الاحتفاء على الإفطار بهذا الفرح الاستثنائي.. وفي طريق العودة.. اعترضت إحدى السيطرات الأمريكية أهلي.. ولم يتمكن أبي من الوقوف في الوقت الملائم فقد كان الفرح على أقصاه.. وحين ضغط على المكابح.. كانت مكابح الموت أسرع فأردتهم قتلى في لحظات.. حين رجعنا وجدنا الطريق مقطوعاً عند السيطرة والدم يسيل من أبواب سيارتهم التي تقف أمامنا تستنجد بقايا حياة.. ركضت نحوهم فمنعني الأمريكان من الاقتراب منهم... كنت أصرخ بهم إنهم أهلي وأشرح لهم بالإنكليزي.. لكنهم منعوني ولم يسمعوني أبداً... وهكذا تحولت الوليمة إلى عزاء.. وشهادة أخي العليا إلى تقرير رسمي بالجنون.. وأنا بقايا إنسان

يحاول الهرب من رائحة الموت... من وجه أمي وأبي وهما يطوفان في بيتنا الذي أصبح مقبرة كبيرة منذ ذلك الموت....

لا أدري لماذا بقيت أنصت إليه.. وأنا المولودة تواً من رحم فرح عظيم.. تراه قدري العراقي الذي يرافقني حتى وأنا أعيش انبعاثي من جديد؟ كان الرجل قد لمح دمعتي التي نزلت رغماً عني وأجابته بدلاً عن لساني.. كنت أقول له في حزن قلبي إلجأ إلى أي جحيم في الكون ولا تعد.. فقد أصبح الوطن مقبرة كبيرة لا تتسع للمزيد من الجثث.. وكان أمامي جثة أخرى.. تمشي على الأرض..

نادتني إحدى الموظفات وكانت لبنانية.. أدخلتني إلى غرفتها لتفتح لي ملفاً في اللجوء، فاستوقفتها وقلت لها إني جئت للاستفسار فقط.. وعرفت من خلال كلامها أني لا يمكن أن أقدم أي شيء لصديقتي إذ يجب أن تأتي بنفسها وتملأ الاستمارة لتحصل على موعد قد يقرر بعد شهرين أو ثلاثة في أفضل الأحوال.. شكرتها وخرجت..

مشيت في شارع (فردان) الذي تأرشف في ذاكرتي باسم آخر هو شارع ناصر.. كنت ألتقط صورة ذهنية لكل ما يحيط بي من بنايات أنيقة وشوارع مأهولة بالحياة والطمأنينة وبك.. وبدأت أحصي الوقت ببخل لم أعرفه ذات يوم.. مضت ساعة كاملة على افتراقنا.. ستون دقيقة من الغياب.. ترى أين ذهبت فيها؟ هل عدت للفندق أم إنك في المطار.. أم..؟ أخرجت هاتفي ورحت أتأمل اسمك الذي كتبته بلا زوائد.. (ناصر لبنان) ويعقبه في الأسفل رقم آخر باسم (ناصر العراق). للمرّة الأولى يستوقفني اسمك بمعناه.. ناصر العراق!

كم ناصر نحتاج لنرمم به شروخ قلوبنا المهزومة التي داستها سرفات احتلالات الحب والحرب! لم أكن أحتاج أكثر منك ناصراً ليعيد بناء الوطن المنكسر في داخلي.. ويعيد تأهيلي لأحيا من جديد..

تتوقف نظراتي عند حروف اسمك وينهمر وجهك سحابة عطر تغمر مسامي كلها.. وعند عينيك الصغيرتين تناثرت حبات الوقت من بين أصابعي وعدت أدور وحدي في مجرة لا يقطنها سواك.. هل يمكن لأربعة حروف أن تفعل ما تفعله الآن!

المارّة يعبرونني غير آبهين بهوّة زلزالك التي تبتلعني شيئاً فشيئاً.. يتصوّرونني أني إقرأ رسالة مبهرة.. أو أكتب رسالة مهمة.. لن يصدقوا أني أتأمّل أربعة حروف فكّت شفرات النبض في قلبي العاطل عن الحب.. ترى.. أية أرض تنعم بك الآن..! أية امرأة محظوظة تمرّ أمام شاشة رجولتك دون أن تأبه لهذه النعمة الإلهية! ومع أي من الكائنات أنفقت صوتك المعجزة وذلك الواو الساحر الذي أردتك أن تدّخره لي ولم أجرؤ على إخبارك بذلك!

استدركني الوقت وأعدت الهاتف إلى حقيبتي ليفاجئني برنّة منه لتبدأ السماء بالانهمار فوق أرض القلب فرحاً إلهياً زلزلني وسط شارع وحده تلمّس رجفة قدمي.. وارتباكها.. إنها رسالة.. أفتحها بسرعة كما لم أفتح رسالة قبلاً.. يعود العالم يتوقف من جديد انبهاراً بك.. بلهفة محمومة أقرأ كلماتك (أنا في المطار الآن.. وحزين جداً لأني سأترك بيروت وقلبي فيها).

كان جسدي يرتعد عشقاً وأنا أكرر قراءة الرسالة كلما انتهيت منها.. حتى الحروف لم تكن حروفاً تشبه البقية.. كانت الحروف صنيعتك الأخرى وأبجدية جديدة لم يمرّ عليها أحد.. فالألف الذي كتبته لا يشبه الألف الذي تعلمناه في المدارس مطلقاً.. كل شيء أصبح موشوماً بك وبماركتك المسجّلة بعطرك ووجهك الذي سكن قلبي وسرقه ليطير به من جديد..

تحركت أصابعي التي عانقتك حضوراً وأدمنتك غياباً لتكتب لك:

(أما أنا فلم ألحظ غيابك حتى الآن.. لأنك ما زلت تحتلني بحضورك الآسر).

أعدت قراءة الرسالة قبل أن أرسلها إليك وذهلت لجنوني الذي تمكنت من كبحه في حضورك لأكتشف هزيمتي بعد ستين دقيقة من غيابك! مسحت الرسالة بسرعة وأعدت الهاتف في الحقيبة تفادياً لحماقة وشيكة.. سرت بسرعة لا أعرف أين وجهتي في هذا البلد المترامي الجمال محاولة الهرب منك والتقاط أنفاسي بعيداً عنك.. لكن أين أهرب.. وكل الطرق في بيروت تؤدي إلى الحب..؟

ما إن وضعت الهاتف في حقيبتي حتى بدأ يرنّ من جديد وكانت رنّة الاتصال هذه المرّة.. باللهفة المحمومة ذاتها هرع القلب إليه.. وهذه المرّة كان اسمك يلتمع على الشاشة الصغيرة وهو يناديني.. (ناصر لبنان).

بقيت أتأمّل اسمك مأخوذة به وهو يلتمع أمامي.. فتحت الهاتف ليغمرني صوتك من جديد. حاولت أن أسلم عليك سلاماً عادياً.. كنت واثقة أنه سيقنعك ببرودي.. فمثلك لا يتقنون قراءة المرأة إلا وهي تجانب طبق الثريد إن لم تكن طبق الثريد نفسه! ومع ذلك.. مع إدراكي الكامل بهذه العاهة الشرقية المستديمة.. كنت أمارس احتفائي بك على أكمل جنون.. بل كنت فرحي الأوحد.. وأنا أعي تماماً إنك أمّي لا تجيد القراءة والكتابة على قلب المرأة.. لم أكن أملك إلا أن اطير على أجنحة صوتك وهو يسألني:

– لقد أرسلت لك رسالة قبل قليل وانتظرت إجابتك بلا جدوى

– كنت منشغلة فأجّلت ذلك قليلاً

وضحكت في سرّي وأنا أراني مراهقة تمارس ألاعيب المراهقات اللواتي لم أكن منهن ذات يوم.. استدركني صوتك وأنا أستمع لما يحيط بك من ضجيج المطارات:

– أنا الآن في (الفاينال).. المحطة الأخيرة.. حين أصل سأتصل بك.

شاكسني قلبي بل تجاوزني وهو يقول لك بلا إذن مني:

– اعتنِ بنفسك.. وليحفظك الله في كل خطوة

وذهبتَ مكللاً بدعاء قلبي الذي عرفت أن الله أشرع له نوافذ السماء فقد تلبّسني قلب أمك الذي دعا لك بلساني.. وقلب زوجتك التي نطقت بخوفي عليك.. ولهفة طفليك وهما ينتظران أن يتعلّقا بصدرك كما تمنيت أنا..

الفصل الأخير.. للربيع

(في عينيّ فقط.. امتلكت كل هذا البهاء..
وخارجهما تكون رجلاً مكرراً يختبئ خلف
نظارات مكبّرة، ولد ليموت بعد أن ينجب دون
أن يتجلّى في معزوفة الحب وتراً حائراً بين
ذهاب وإياب..).

انقضت الدورة بسرعة كما تنقضي الأحلام الساحرة التي نبقى نتحسّر عليها حين نستيقظ على صباح يناقض أحلامنا تماماً..

كانت خالتي في غاية السعادة وهي تتأكد من موعد عودتنا.. كانت تنتظرني في مطار بغداد حيث سبقتني وكان يفترض أن أكون هناك بعد أربع ساعات على الأقل.. أما خالي فقد كان سعيداً لسعادتي وهو يشدّ من أزري ويعزّيني بالعودة ظاناً أني محبطة لذلك.. فقد احتفظ في ذاكرته بمشاعري قبل الزلزال.. ولم يكن يعرف أني بعد زلزال الحب بدأت أحصي الدقائق والثواني لعودتي..

أعرف أنه لن ينتظرني في المطار.. فقد تقدمت عودتنا يوماً بسبب حجوزات الطائرة.. وأعرف أني حين أصل لن أتصل به ولن يتصل بي.. وقد لا يكون باستطاعتي رؤيته من جديد حتى ورود رسالة أخرى لقريته.. وقد ينعتق المعتقلين جميعاً وينقطع ذلك الحبل السحري بيننا! أعرف كل ذلك..

لكنني وعلى امتداد الطريق إلى مطار الحريري كان قلبي يتراقص فرحاً وأنا أمضي نحوه... لأني وإن لم أكن سألتقيه.. إلا أني سأشاركه المكان.. وسأتنفس الهواء الذي يتنفسه وإن كان ملوثاً برائحة الحروب والقتلى.. وستشرق علينا شمس واحدة.. ويطلع على أشواقنا قمر واحد.. وسنشهد معاً حوادث الاختطاف والإنفجارات بالحزن ذاته..

في صالة الانتظار تبادلت مع الزملاء في الدورة أرقام هواتفنا وأقسمنا أن لا نفترق وأن نظل على تواصل، فكل منّا يحمل للآخر ذكرى جميلة.. وفي قلب كل منّا نحمل جزءاً من بيروت.. وتذكرت

بأسى صديقات الدراسة في الجامعة.. رددنا القسم ذاته بأننا لن نفترق.. وسنبقى صديقات مهما أخذتنا الحياة..

وبعد التخرّج... كان الفراق يتربّع على كراسينا ويشرب أنخاب النسيان وربما كان يضحك منّا ولم نكن نلحظ ذلك.. فقد كنّا منشغلين بحياتنا الجديدة التي فقدت الكثير من زهوها مع تقادم الخيبات..

كان سجاد حزيناً لفراقنا وصديقنا الآخر يتذمر وهو يتذكّر عودتنا للكهرباء النائمة.. وكان الآخر يبشّرنا أنه شاهد في النشرات الجوية عاصفة ترابية تهبّ على العراق.. وكان يتأمّل أن تلغى الرحلة.. وضحكنا من حلمه المعلق على أجنحة الغبار.. كانت الرحلة تنادينا، ولم تمضِ دقائق إلا ونحن نجلس في الطائرة التي صعدناها غرباء ونزلنا منَها أصدقاء..

سألني سجاد الذي جلس إلى جواري :

- هل ستكون خالتك في انتظارك؟

- إنها تنتظرني منذ أربع ساعات

وضحك وهو يقول:

- حرصها عجيب يفوق حرص الأمهات

أجبته بابتسامة لكي لا أمنحه فرصة المزيد من الأسئلة التي أعرفها مسبقاً.. قصة حياتي تستدر الكثير من العطف، لذا فالحديث عنها بات يسبّب لي الكثير من الوجع..

عبر نافذة الطائرة تطلعت إلى الغيوم ذاتها... لم أشاهد أبي وأمي هذه المرّة.. بل رأيت وجهه يرافقني... وتلك الضحكة السماوية التي أمطرت روحي بكل تلك السكينة..

هكذا يتفشى فايروس الحب في أجسادنا.. يحقننا بجرعة انتشاء تجعل الجحيم جنّة.. ويؤثّث الواقع من جديد بعصاه السحرية التي تغسل بنجومها البيض كل ما تمرّ فوقه.. ويتسرّب الزمن من

شقوق ذاكرتنا دون أن نشعر به.. وحدها تلك التفاصيل الصغيرة التي يزرعها الحب في ذاكرتنا تبقى.. وتزهر وتكبر لتصبح شجرة ترمي بثمارها التي غالباً ما تنضج بعد الفراق..

ساعة وربع كانت الفاصل بين بيروت وبغداد... مدينتين عجيبتين غائرتين في قلب التأريخ والجرح.. بغداد التي غادرتها لا تشبه مطلقاً بغداد التي عدت إليها.. فقد مررت قبلي بهذا المطار.. ربما المضيفة نفسها التي ترمي بابتسامتها الآن وهي تهنئنا بسلامة الوصول ربما هي نفسها من هنأتك بسلامة وصولك أيضاً.. كنت أتمنى أن أسألها عمّا إذا كانت رأتك تجلس هنا قبلاً.. أو جلبت لك المشروب الذي تحب.. بالتأكيد كنت ستطلب اللبن.. كما طلبته في ذلك المطعم العجيب.. أنت طفل القرى الناصعة الذي لم تلوّثه المدن بعد.. غيّرت وجهة ابتسامتي عن وجه المضيفة كي لا يأخذني شوقي اليك إلى حماقات أخرى.. كي لا تعرف أني أبحث في مقاعد هذه الطائرة عن عطرك.. لا أريد لأية امرأة أن تشاهد صورتك بعينيّ ففي عينيّ فقط.. امتلكت كل هذا البهاء.. وخارجها تكون رجلاً مكرراً يختبئ خلف نظارات مكرّرة ولد ليموت بعد أن ينجب دون أن يعيش اللهفة ويتجلّى في معزوفة الحب وتراً حائراً بين ذهاب وإياب..

تذكّرت فجأة جارتنا التي رزقت بعد انتظار طويل بصبي ظلت تلبسه الملابس الرثة التي تستجديها من الجيران إيفاءً منها بنذر أبرمته مع الله بأنها ستلبس ابنها مما يتصدق به الآخرون حتى يكبر، وبقيت تهمل تنظيفه وهندامه عمداً غيرآبهة بملامة الجيران لها.. فقد كانت تحبه وتخشى عليه من العين إلى درجة أن تجعل منه متسولاً!

الآن فقط.. وعلى متن هذه الطائرة.. عرفت شعورها.. وعذرتها كثيراً. فالرغبة نفسها تنتابني لأجعل منك متسولاً أمام الجميع... لو كان بإمكان الحلم أن يكتمل وتتجرّد من ثروتك لخسارة تمنيتها لك عشقاً لا حقداً.. كنت سأجلس تحت قدميك.. لو أنك كنت بلا

هذا الجاه والنفوذ المريب.. كنت سأخبئك تحت عباءتي كما تفعل جارتي.. وأحبسك في عتمة هذا الحب الذي حطّ في مطار بغداد أخيراً...

الدرج نفسه الذي نزلت عليه يتلقّف لهفتي التي تحطّ عليه بسرعة.. بين الوجوه أبحث لعلك تفاجئني من جديد.. أعرف أنك لن تكون هنا لتحطّ لهفتي على راحتيك.. لكنني لا أملك إلا أن أنتظرك في كل المحطات والمطارات..

توجّهت إلى الضابط لأنهي إجراءات الدخول.. وعند المفرق الذي التقيت فيه مع الأصدقاء... افترقنا... نحمل في حقائب القلب صوراً وتذكارات وهدايا تؤرشف ذلك الحلم الذي بدأت أشعر أني أقف على قمة جبل شاهق وأنظر إليه من بعيد..

هو الخوف من جديد يتسرّب إلى شوق قلبي الذي ملأته بحضورك.. لما لا أكون نزوة كالتي تمرّ بحياة الأثرياء الذين يملون من كل شيء لكثرة ما جربوا كل شيء! وحدها خالتي تقطع عليّ سلسلة مخاوفي وهي تسير نحوي بلهفتها وبياض وجهها الذي لا أميزه من بياض شالها... ونغيب في عناق طويل.. تفشل في إخفاء دموعها وهي تلثمني وكأنني فارقتها دهراً.. أحتضنها وأخشى أن تشمّ عطرك يفوح من ثنايا قلبي... فالأمهات قادرات على قراءة قلوبنا بفصاحة مربكة... تلمست وجهي بيديها المرتعشتين شوقاً وقالت بفزع:

– ما هذا الشحوب؟ لقد فقدت الكثير من وزنك؟

– لا تقلقي إنه تغيير الطعام فقط.. فاللبنانيون لايأكلون الرز مثلنا كل يوم

كانت هذه أول كذبة أدلي بها أمام خالتي... الدرس الأول الذي يعلمنا إياه الحب.. أن نكذب على الآخرين لكي لا نكسر قلوبهم التي اعتادت صدقنا.. وأن نصدق مع من نحب لنسقط صرعى هذا الصدق.. كم من صديقة سقطت صريعة صدقها أمام حبيبها وهي

تعترف له بعلاقة سابقة أو تجربة عابرة.. إنه الصدق الذي تبقى النساء تدفع فاتورته الباهظة من سعادتها وثقة الرجل بها... كان قلبي يقرصني من جديد بذلك الشعور بالذنب كلما نظرت إلى خالتي وإلى لهفتها..

الثانية عشرة بتوقيت بغداد.. أفضل وقت للعودة قبل أن تغلق الطرق ويخيم ظلام الخطف والقتل.. أوصلتنا السيارة إلى تقاطع ساحة ابن فرناس حيث ينتظرنا السائق.. وانطلقنا في شوارع بغداد الوجع من جديد...

في شارع المطار.. تذكّرت تلك الحرب الطاحنة التي كبّدت الأمريكان خسائر مذهلة أجبرتهم على الانسحاب والعودة لاحقاً لإكمال حربهم باستخدام أسلحة محظورة دولياً أحرقت الجثث وأحالت الأبطال إلى أكوام أجساد محترقة.. تلك المعركة التاريخية التي قلبت موازين القتال مرّتين... مرّة لصالح أحلامنا.. ومرّة ضدّ قلوبنا التي انثقبت برصاص الهزيمة..

كانت الأشجار يابسة ومقطوعة الرأس تصطفّ على جانبي الطريق..

السير متلكئ بسبب السيطرات والحواجز والسواتر الرملية.. بدت بغداد أشبه بثكنة عسكرية يقطنها الخوف ويتجول في شوارعها الموت الملثم.. قلت لخالتي بكآبة واضحة:

– هذه ليست بغداد التي كنّا ندمن التجوال في شوارعها الأنيقة... هل تذكرين هذا الشارع كيف كان؟

بالأسى نفسه أجابتني:

– إنها بغداد الغرباء.. انظري إلى الوجوه.. كأنهم هبطوا إلينا من كوكب آخر

عند إحدى السيطرات توقفنا.. فتشوا السيارة والصندوق الخلفي.. طلبوا هوياتنا فكاد أن يتوقف قلبي عن الخفقان وقلب

خالتي.. كان السائق يطمئننا دون جدوى.. تفرّس العسكري بوجوهنا وسألونا من أين أتينا وإلى أين نذهب.. لم يخبرهم السائق بوجهتنا الحقيقية وقال لهم إننا سنذهب إلى قضاء (بلد).. المكان الذي تتشابك فيه الهويات فلن يكون بإمكانهم تمييز طائفتنا.. لم أصدق أن السيارة مشت أخيراً.. وما هي إلا أمتار قليلة حتى استوقفتنا سيطرة أخرى.. إنه بلد السيطرات والثكنات والخوف... كان قلبي يتلفّت بحيرة وهو يرمي بسؤاله الخائب:

- أين بغداد؟

كانت العربات الخائفة المتعبة تشاركني لوعة السؤال.. واللافتات السوداء التي تغطي الجدران والمحال كانت تجيبني.. صور الغرباء.. المرشحون للانتخابات وتلك الشعارات المبهرة.. الأحزاب التي تناسلت بسرعة شيطانية.. صاح القلب بلوعته وهو يبحث عن وجه بغداد.. ذلك الوجه الجميل الخالي من هذه البثور.. طلبت من السائق أن يتجه إلى أبو نؤاس فاستغرب مع خالتي التي صاحت بي:

- عن ماذا تتحدثين؟ ألا ترين هذا الزحام القاتل؟ نريد أن نخرج من بغداد قبل أن يخيّم الظلام فأمامنا درب طويل
- أرجوك.. منذ الاحتلال لم أدخل بغداد.. وأنت تعرفين كم أحب شارع أبي نؤاس.. فقد عشنا زمناً فيه قبل أن نتهجر.. دعينا نمر به مروراً عابراً لن نتأخر صدقيني فقد تكون هذه المرة الوحيدة التي نزور فيها بغداد قبل أن نموت

استسلمت لتوسلي وطلبت من السائق أن يتجه لشارع أبي نؤاس. لم يكن الدرب إليه طويلاً إلى هذا الحد.. كنّا نردد كلما أردنا الذهاب لبغداد إنها ليست أكثر من (شمرة عصى).. والآن المسافة بين شارع وشارع تعادل السفر إليها من محافظة أخرى..

حين دخلت الشارع الذي رافق طفولتي ومراهقتي وشيخوختي المبكرة.. خفق القلب من جديد.. هنا.. في هذا الفرع تماماً وبين

شقق الطاقة الشمسية كنت أقضي المساءات على نهر دجلة.. وهذا الرصيف الخاوي كان يمتلئ بالعشاق الذين كنت أرقبهم من شرفتي المعلقة على كورنيش الحب.. وهنا.. في هذا التقاطع بالذات.. كنت أتابع المارّة وهم يعبرون إلى (الكرادة داخل) من هذا الشارع الصغير... شارع (البو شجاع) الذي لم يذكر اسمه في كتاب أو حكاية . . لكنّنا نحفظه عن ظهر قلب، فقد كان اسمه مرتبطاً بصباحات (قيمر العرب) المصطف في أوانٍ صغيرة تحملها النساء الملتفات بسواد العباءات على رؤوسهن كلَ صباح..

أخذت الخيبة تردّد على لساني بتلك اللوعة الحبيسة منذ أول دبابة داست الأرض والحلم:

– أين أنت يا صباح أبي نؤاس المضمخ برائحة الشاي والقيمر؟ أين أنت يا وجه دجلة بين وجوه الجثث المغدورة وهي تطفو فوقه؟ أين مدرستي.. متوسطة بغداد؟ تُرى هل غيّروها إلى متوسطة واشنطن! أين ست راجحة وست زهراء..؟ وصديقاتي كيتا وملاك وزهراء وآفاق اللواتي لا أعرف حتى اليوم طائفة أي منهن ما عدا كيتا التي كانت مسيحية بيننا ومن أم ألمانية الأصل وكانت ترافقنا في ذهابنا للسيد (إدريس) وكنّا نرافقها ونشعل الشموع في كنيسة العذراء..! أين مرطبات (الفقمة) ومواعيد العشّاق الصغار؟ أين (مندرين) الأخضر والكرادة خارج بتلك المحال المبهرة وحلوى أبو عفيف الشهيرة..؟ أين نسوة النذور وهنّ يودعن أحلامهن ونذورهن فوق طوافات خضر الياس التي يزرعن فيها الشموع وأغصان الآس ويدعونها تطوف في قلب دجلة؟. أين أعراس الخميسات المتجهة بالزغاريد والموسيقى البغدادية الشعبية إلى الشيراتون؟

لم أعرف أن صوتي كان عالياً وهو يرتفع بهذيانه إلا حين دسّتني خالتي لأخفض صوت الخيبة في قلبي فثمة غريب معنا وهو السائق وهذا أكثر ما يقلقها في الأمر كله.. كانت الأزبال تتجمع

عند مداخل الشقق الشمسية التي بنتها إحدى الشركات الألمانية وجعلتها تشتغل على الطاقة الشمسية كأنها بذلك تتنبأ لنا بأننا سنفقد كل مصادر الطاقة وسنلجأ إلى الشمس كالإنسان القديم..

عبرنا شارع أبو نؤاس كمن يعبر فوق جرح قديم فتح فوهته من جديد.. كان الشارع ينزفني بتلك الذكريات المعتقة.. كم تمنيت أن أعانقه سيراً.. تُرى.. هل تحفظ الشوارع خطانا بعد الرحيل..؟

بالأسود والأبيض

(ودخلنا الثكنة الأمريكية..
هذه البناية التي كانت مأهولة بالعراقيين...
تحوّلت إلى معتقل لهم أو مقبرة..
على الأرجح..).

ورجعت.. لم تكن المدينة هي المدينة.. ولم يكن البيت هو البيت.. كأنني خلعت عني تلك النظارة السوداء وبدأت أرى ما حولي بالألوان.. وكنت أعرف أنك وحدك من أمسك بفرشاته ولوّن الوجوه والأماكن وأعاد الخضرة للأشجار اليابسة التي كنت أمرّ كل يوم بأوراقها الصفراء..

وفي العمل.. الكلّ لاحظ التغيير الذي وجد طريقه نحو وجهي وسلوكي الذي بدا أقل حدّة كما أشعر.. كان معمر أكثر من لاحظ هذا التغيير بحكم وجوده معي في الغرفة ذاتها.. وكنت ألاحظ علامات الاستفهام وأحاول تجاهلها والتهرّب منه..

أسبوع مضى لم أسمع صوتك فيه.. الخيبة ذاتها بدأت تتسلّل إلى قلبي الذي فشل بترميم غيابك بأعذار شتى.. أسبوع لم يمضِ فيه يوم إلا وأنا أتساءل عن غيابك المربك.. كحضورك..

وفي اليوم الثامن وجدتني أضع حداً لانتظاري غير المجدي لصوتك.. كان الهاتف قد أعلن صمتك ليرتدّ صدى الوحشة في مسامعي من جديد.. كنت أخفق لهفة لكل اتصال يأتيني لأكتشف في منتصف اللهفة أنه لا يحمل صوتك.. وقرّرت بعد خيبات متكرّرة عشت فيها هذا الانتظار المزمن أن أتحرّر من احتلال انتظارك.. فقد تحوّلت منذ زلزال الحب إلى محطة انتظار لقطار لا يقل سواك..

ومرّة أخرى.. بيدي لا بيد الزمن قرّرت قتل انتظاري لك واغتيال تلك اللهفة التي طاردتني كلعنة.. وأول ما عملته هو تغيير رقم هاتفي لأقطع على نفسي احتمال انتظارك ولو على أسلاك هاتف موصول بالسماء..

في اليوم التاسع قرّرت إطفاءك من قلبي مع أول خيط صبح أشرق عليك في الطائرة التي أعادتك من بيروت الحلم إلى عراق الوجع..

وكان عزائي أني لم أخبرك بذلك الجنون الذي اعتراني معك.. كنت قد بدأت أؤرخ زمني بك.. فحياتي منذك انقسمت إلى جزئين... جزء قبل عينيك.. وجزء بعدهما.. وكنت أحاول استعادة الجزء الذي قبل عينيك لأواصل مسيري باحتلالات أقل...

في اليوم العاشر لغيابك بدت حالتي أفضل.. فقد تخلصت من احتلال انتظارك على هاتف كان كل لحظة يدقّ ناقوس غيابك في فضائي الساكن إلا من الترقب.. ورجعت ألملم أوراقي وأرتبها وأستقبل طرداً جديداً فيه رسائل جديدة من المعتقلين.. فرحت وأنا أستلم المظروف الكبير وبدأت أقلّب رسائله.. بحثت عن رسائل لـ(سمرة) فلم أجد رسالة هذه المرّة!

ابتلعت خيبتي بارتياح كبير فقد تتصور أن مجيئي لـ(سمرة) محاولة مني للقائك.. الأمر الذي ما كنت لأفعله ولو متّ شوقاً إليك كما يحدث الآن! اجتمعت بمتطوعي الأقضية وقسّمت عليهم الرسائل ولم تبق عندي سوى رسالة واحدة في سامراء، كان متطوع سامراء غائباً لظرف صحي تمنيته أن يزول بسرعة كي لا تتأخر الرسالة أكثر وكي لا تضطرّني إلى أخذها إلى سامراء بنفسي.. كانت الرسائل أقلّ هذه المرّة.. إنه التلكؤ الذي سمعنا عنه يتردد في الجمعية حيث إن الرسائل كانت تتأخر في بغداد لأسباب تنظيمية.. كان المركز العام مسؤولاً عن تقسيمها كل حسب محافظته وكان ذلك يأخذ وقتاً..

سألني معمر وهو يرى المظروف فارغاً من محتواه:

– قليلة هي الرسائل هذه المرّة

– نعم لسوء حظي

– تصوّرت أن ذلك سيريحك

– بالعكس.. لولا العمل من يدري أية حماقة كنا سنرتكب

وتأملني من جديد.. تلك النظرة المتفحصة التي تحاول أن تعرف المزيد دوماً.. ولأوّل مرة يسألني عن بيروت:

- كيف هي بيروت؟

أجبته إجابة معلّبة:

- إنها مدينة جميلة تشعر فيها وكأنك في بلد أوروبي

- أتمنى أن أزورها أيضاً، الكل يتحدث عنها وعن طبيعتها الخلاّبة

قاطع حوارنا دخول امرأة خمسينية تقريباً وهي تسأل عن مسؤولة البحث والتحرّي... كانت تبدو مرهقة وهي تسألني عما إذا كانت هناك رسالة جديدة من ابنها مسلم. وتذكّرت الاسم، فقد بقي عالقاً في ذهني منذ أن سلّمت الدفعة السابقة من الرسائل.. سألتها لشحذ ذاكرتي:

- هل هو نفسه مسلم الذي في سجن الأحداث؟

ابتهجت وهي تؤكّد لي أنه هو:

- نعم هو ابني.. كان خارجاً من المدرسة الدينية حين بدأ الأمريكان يضربون الرصاص بشكل عشوائي في الجوّ حين تفجّرت إحدى العبوات الناسفة على موكبهم وحدث أن مسلم كان عائداً إلينا، وحين ذهبنا للبحث عنه لم نجد سوى بقايا ثياب ممزقة وعالقة في الأسلاك الموضوعة على جانب الشارع.. كانت الثياب ممزقة وفيها دم.. كنا نوشك على الجنون ونحن لم نعثر منه إلا على بقايا ثياب ملوّثة بالماء.. أكّد لنا بعض الذين شهدوا الحادث أن الأمريكان أخذوه معهم.. ولم نعرف إنه على قيد الحياة إلا بعد أن وصلتنا رسالة منكم. لقد وضعوه في سجن الأحداث لعمره الصغير..

كنت أستمع لها وكأني أستمع لفصل في رواية فنتازية.. كان معمر ينصت لها مثلي وفي ذهنه تبدو الأسئلة تدور وتدور وحقده الكبير على الأمريكان يتأجّج وهو يستمع لها..

قلت لها مستدركة الرسالة التي في حوزتي:

- دعيني أرى لعلّ الرسالة الوحيدة التي في حوزتي هي لك

وما إن فتحتها حتى وجدت أن الرسالة من مسلم.. أجابها قلبي وهو يطير فرحاً:

- إنها منه.. من مسلم

تهلّل قلب المرأة وهي تختطفها مني وتقرأها بيدين مرتجفتين.. وتلثمها بدموع لم تنجح في إخفائها كما لم ننجح في إخفائها أنا ومعمر الذي استأذننا وخرج من الغرفة..

حين خرج معمر قالت لي بصوت خفيض:

- جيد أن زميلك خرج الآن لأني أريد أن أستشيرك في أمر يقلقنا ولا يدعنا ننام الليل
- تفضلي
- نحن أناس معروفون في سامراء، ولدي الكبير اسمه عمر والآخر مسلم وهما أثمن ما خرجنا به في هذا العالم.. لا أريد أن أطيل عليك، منذ مدة اكتشفت أن عمر لديه علاقة بابن جار لنا يعمل في المقاومة.. وابني لا يزال طالباً في السادس الإعدادي.. إنه مندفع وأخشى أن يحدث شيء له.. قبل أيام اكتشفت أنه يخبئ الكثير من الأسلحة في غرفة منزلنا في الأعلى.. ومنذ ذلك اليوم أعيش في صراع ورعب عليه

فكّرت أن أبلغ الشرطة وأحميه من اندفاعه.. لكنني خفت عليه أن يعتقلوه ويعذبوه.. وها أنا ألجأ إليكم لعلّي أجلب السلاح لكم وأتخلص منه.. كانت مشكلتها معقدة بالنسبة لي.. هل أمنع عمر من أن يقف بوجه هذا الاحتلال المهين؟ أم أدعه يحرق ربيع عمره وهو يفجّر لاءه المقدّسه بوجه الأمريكان؟

كانت المعادلة صعبة حين تحسب بقياس الأمهات اللواتي لا يرين في الكون سوى أولادهن الذين يظلون صغاراً حتى النفس الأخير، لذا قلت لها:

- اجمعي السلاح في أكياس الطحين الفارغة وارزميه جيداً وضعوه

في سيارتكم وارموا به عند قارعة الطرق النائية وما أكثرها في سامراء وما حولها

أعجبتها الفكرة.. خصوصاً أن السلاح الذي عثرت عليه يمكن وضعه في أكياس الطحين البيضاء الكبيرة باستثناء (السترلاّ) التي سمعت باسمها لأول مرة وعرفت أنها تستخدم لقنص الطائرات..

خرجت بعد هذا الاقتراح مستبشرة بعدما ملأت رسالة لمسلم طمأنته بها وهدأت من خوفه الذي قرأته بين السطور...

حال خروجها دخل إليّ المدير وطلبني إلى غرفته.. استغربت ذلك وأنا أمضي معه إلى الغرفة التي لم أدخلها منذ ذهابي إلى لبنان..

- اتصلوا بنا الآن من القاعدة الأمريكية في القوة الجوية في منطقة (حي الصقور)، يريدون أن نذهب لاستلام جثة مجهولة الهوية تعود لشخص كان يقوم بإحدى العمليات وقتلوه.. وهذا الأمر من اختصاصك، لكنني لن أدعك تذهبين لوحدك، سأرفق معك أي متطوع تريدين والسيارة جاهزة الآن، وإذا كان الأمر صعباً عليك يمكننا أن ندع غيرك يقوم بهذا العمل رغم أن عملك سينحصر في التوقيع على الاستلام فقط، أما الجثة فستضعوها في الحوض الخلفي للسيارة وهو مصمم لذلك كما تعرفين

بقيت أتطلع إليه بخوف لم أتمكن من إخفائه، لكنني غالبته وقلت له سآخذ معمر معي.

- حسناً خذي معمر ومتطوعاً آخر وجهّزي أوراقك وهويتك الآن وسأعطيك كتاباً رسمياً قد تحتاجينه وأنت تدخلين القاعدة الأمريكية، إنهم يتشددون في هذه الأمور

- حسناً

ومضيت نحو معمر... الذي أبدى حماساً كبيراً وأخذ يستعجلني للذهاب هناك وهو يشتم الأمريكان.. لأول مرة أراه عصبياً.. طالما كان هادئاً.. أو ربما كان يدّعي ذلك الهدوء.. كانت الأوراق كلها كاملة.. ومعمر وزيد ينتظرانني في السيارة..

صعدنا إلى السيارة التي توجّهت بنا بسرعة نحو قرية الصقور حيث تتمركز القوات الأمريكية في قاعدة كانت مقراً سابقاً للقوة الجوية العراقية.. كان المكان بحدّ ذاته هزيمة تعزّز ذلك الشعور الغائر بالانكسار.. في كل وجه أمريكي.. في كل مواكبهم التي تشعل أضواءها حتى في النهار خوفاً لأنهم عميان لا يتقنون الرؤية تحت شمسنا اللاهبة.. في كل هذا كان شعوري بالانكسار والهزيمة يتفاقم.. والآن أنا متّجهة لمعقلهم.. لأستلم جثثنا وموتنا من أيديهم!

جلس معمر في المقعد الخلفي يقابله زيد الذي بدا غير متحمس لقدومه معنا.. عشرون دقيقة كانت الفاصل بيننا وبين القاعدة الأمريكية المدججة بالسلاح والسيطرات. عند المدخل استوقفنا الأمريكي مشهراً سلاحه بوجوهنا رغم أنه رأى الهلال الأحمر المرسوم على السيارة وذلك العلم الصغير المثبت في مقدمتها، أعطيته المستمسكات المطلوبة وسمح لنا بالدخول بعدما أجرى اتصالاً بأحد مسؤوليه.. ودخلنا الثكنة الأمريكية.. هذه البناية التي كانت مأهولة بالعراقيين تحوّلت إلى معتقل لهم أو مقبرة على الأرجح.. بناها أحد الضباط الوطنيين القدماء وجعلها مقراً للقوة الجوية.. ولم يكن يعرف أن هديته هذه ستتحوّل إلى معتقل أمريكي بامتياز، بل لم يخطرله أن العراق كلّه.. بنخيله ومياهه.. بكلكامشه وعشتاره سيصبحون أسرى الوحش الأمريكي الذي انقضّ على الجسد العراقي والتهمه من كل حدب وصوب..

توقفت السيارة عند النقطة التي أشار إلينا الأمريكي بإيقافها عندها.. ونزلنا.. المكان خلية أمريكية مدجّجة بالخوذ ولا يوجد فرق بين النساء والرجال.. قدم إلينا الضابط وسلّم علينا ومعه مترجم غير ملثّم هذه المرّة.. لا أدري لماذا كان واثقاً ومطمئناً لنا ولم يرتدِ لثامه.. تراه اعتبرنا متواطئين معه إلى هذا الحدّ!

قلت للضابط بالإنكليزي إنيٍ لست بحاجة إلى مترجم ويمكنني التواصل معه وأبدى ارتياحاً لذلك.. نزع خوذته وتحول

إلى إنسان آخر.. أجلسنا في غرفة مؤثثة أمريكياً بطراز عراقي، لذا كانت غير متناسقة مع ما وضع فيها من أدوات وصناديق مختومة وأشياء أخرى لم أعرف ماهيّتها بالضبط.. جلب لنا الأوراق التي تحتاج إلى توقيعي. كانت المعلومات تخصّ الجثة.. شعرت بالغثيان حال قراءتي لها:

الجثة نصف متفسخة. رصاصة في الرأس والساقين. العمر في الرابعة والثلاثين.

الهوية.....

موقع الحادث....

تاريخ الحادث....

تاريخ الوفاة.....

أسباب الوفاة.....

توقيع الأطباء.....

توقيع الاستلام.....

لم أتخيلني أن أكون في هذا المكان ذات يوم وفي مواجهة كهذه أنتظر فيها أن أتسلّم جثة! لمواقف كهذه كان تركيز الهلال الأحمر والصليب الأحمر على مبدأ الحيادية الذي يعتبر من المبادئ الرئيسية لهذا الكيان.. لم يكن يجدر بي أن أحزن أو أفرح أو أبدي أية مشاعر، فأنا في عمل عليّ إنجازه بعيداً عن قناعاتي ومشاعري.. لكنني ونكاية بالأمريكان كنت أشعر بتواطؤ مع الجثة!

كان معمر يتطلع إلينا بصمت وحقد واضح جعله يرفض مصافحة الضابط الأمريكي وكذلك أنا حيث تحجّجت بأن هذا غير مسموح في مجتمعاتنا الشرقية.. فيما راح زيد يلتقط الصور مع المجندات ولم يخرجنا من الجو المتوتر خوفاً وحقداً إلا طلبه من إحدى المجندات أن يلتقط معها صورة، وحين تبرّعت صاحبتها وكانت سوداء رفض زيد وقال لها:

– نو أي وونت وايت.. وايت

وكان يقصد زميلتها.. ضحكنا له وهو يصرّ على التقاط الصورة التي التقطها وهو يحتضن المجندة ويضعها تحت إبطه.

بعد خروجنا طلب الضابط أن أصعد إلى السيارة فيما سيقومون بنقل الجثة إلى الخلف. وصعدت بانتظار الجثة.. بعد دقائق وصل زيد ومعمر يحملان الجثة التي كانت موضوعة في كيس بلاستيكي فيه زنجيل على طولها.. وخلال دقائق قليلة كانت الجثة ترقد خلفي.. في السيارة..!

كان قميص الهلال الأحمر الذي يرتديه زيد قد تلوّث بالدماء فلم يتمكنٍ من احتمال ذلك وأخذ يتقيأ خارج السيارة.. أما معمر فقد بقي صامتاً يتأمل الجثة بصمت وكأنه كان في حوار صامت معها.. وانطلقت السيارة بنا من جديد.. تحمل جثتين.. جثة إنسان مجهول الهوية وجثة قلبي الملقى بجانبه..

كانت أجواء الموت هذه تساعدني كثيراً على تسريب النحيب الذي ينشب مخالبه في قلبي.. ويجعلني أكثر احتمالاً لموتي المتكرر عند كل خيبة.. قلت بقلق لمعمر:

– لا أدري ما الذي سيقوله الآخرون عنّا حين يرون سيارتنا تخرج من القاعدة الأمريكية؟

– اطمئني لن يتعرّضنا أحد

استغربت نبرة الثقة في كلامه ولكني ارتحت لطمأنته... كان زيد يشعر بالغثيان والتعب فطلبت من السائق أن يتوقف لنستبدل أماكننا فيجلس هو قرب النافذة بجانب السائق وأجلس أنا بجانب الجثة أمام معمر. لم يبد السائق ارتياحاً للفكرة لأننا سنتوقف في مكان ناء ويخشى أن سيارتنا ستكون مستهدفة من قبل المسلحين أو غيرهم، فقلت له: اطمئن لن يحدث شيء. واستبدلنا أماكننا بسرعة ومضت السيارة من جديد.. إنها المرة الأولى التي أكون فيها في مواجهة حقيقية ومباشرة مع جثة!

تطلّعت إلى ملامحه التي بدت واضحة من خلف الكيس الشفاف.. كان يبدو نائماً.. وأثر الرصاصة واضح في رأسه.. كان يرتدي جلباباً أبيض.. ملوّثاً بالدماء.. كانت الدماء متيبّسة على ملابسه واستغربت الدماء التي غطّت قميص زيد. ربما كان ملاصقاً لجثة أخرى لم تجف دماؤها بعد! كانت محطتنا التالية هي الأكثر وجعاً... كان يجب علينا أن نوصل الجثة إلى مستشفى تكريت العام ليتم استلامها هناك لإيداعها في ثلاجة الموتى من جديد... كنت أتمنى أن نتوقف وندفنه عند قارعة الطريق ليحتمي من برد الثلاجات قليلاً.. فإكرام الميت دفنه، لكن ذلك لم يكن في صلاحياتي ولم يكن أحد ليوافقني على هذا الجنون..

نظرت إلى معمر وشعرت أنه غائب في صلاة بعيدة.. كنت متواطئة مع حزنه وحقده.. لم يمضِ وقت طويل حتى وصلنا المستشفى.. نزل السائق وزيد لداخلَ المستشفى وجاء معهم أحد الأطباء ومعاونوه واخرجوا الجثة بآلية ووضعوها على الحمّالة ومضوا.. طلب الطبيب أن أوقّع بعض الأورق لإكمال إجراءات التسليم التي أنهيناها بسرعة. ومضينا من جديد..

تُرى.. من سيستلم الجثة ومتى؟ سمعت من بعض الأهالي أن الجثث كمين لمن يستلمها لكي يستدرجوا أهله ويعتقلوهم..

تُرى ما الذي قالته أمه في غيابه الذي لا تعرف عنه شيئاً؟ وإن عرفت أنه مدفون في ثلاجة الموتى ما الذي سيقوله قلبها الذي خفق فرحاً لولادته ليدفن فيما بعد في ثلاجة الموت ببرود قاتل!

كانت علامات الاستفهام تجول في خاطري في طريق العودة.. فيما كانت الجثة تهزأ بنا وبخوفنا وأسئلتنا وهي ترقبنا من ثلاجة الموتى. هكذا كنت أشاهدها فيما كنّا نغيب في المسافة والأسئلة والخوف.

***

اليوم الحادي عشر لغيابك.. كانت كل حواسي تعلن حاجتها إليك.. فقد كانت ظلالك تطاردني رغم كل مضادات النسيان التي شرعت باستخدامها تباعاً منذ أن أعلنت طردك من القلب.. كنت أتجنب الانفراد بقلبي لكي لا أتلمس دفئك العالق فيه.. وكنت أتجنب الحديث عن بيروت التي أصبحت رغماً عني موشومة بك وبعطرك وضحكة عينيك.. لكن صوتي كان يتجاوز كبريائي كل ليلة وهو يتساءل بحيرة طفل محروق الأصابع: لماذا يضمر رجل كل هذه الخيبة لامرأة تحمل له كل هذه اللهفة!

كنت أتشاغل عن غيابك بالعمل.. وكنت أحب عملي بك وبدونك.. ففيه كنت أدفن كل جثة تسقط في دربي لأواصل سيري من جديد.. وأمام مآسي الآخرين كانت أحزاني تتقزّم، ربما لهذا السبب وضعني الله في هذا العمل الذي لا يتعامل إلا مع جثث الأجساد وجثث القلب..

كانت ترعبني فكرة أن تكون رجلاً عابثاً يضيّع وقته في ملاحقة النساء، ومنطقياً كنت مؤهلاً لذلك.. فأنت ثري ووسيم! أمران كفيلان بجعلك دونجواناً عابثاً لا يرى في المرأة إلا جنوناً عابراً برغبات تنطفئ حال تحقيقها.. رغم أن ثراءك ووسامتك لم تكن تعنيان لي شيئاً.. فقد كنت أراك قروياً يحاول التحضّر بكل ما هو متاح أمامه، غير أنه رغم قشرة الحضارة التي ارتداها بقي قروياً وفشل في اقتناء حضارة زائفة، وكان الأجدى والأجمل أن تحتفظ بأصالة قرويتك على استبدالها بحضارة مستوردة... تماماً كالحرية التي فكرنا باستيرادها وفشلنا هذا الفشل الذريع أمام العالم أجمع! تجدّدت الرغبة باغتيالك من جديد.. فاتجهت صوب الكاميرا.. معقل ليلتنا الحمراء.. ورحت أتأمل صورتينا معاً بحنين دافق قبل أن تطلق أصابعي رصاصة النسيان على جسدينا ونحن نقف بجانب بعضنا في حضن البحر والليل و(الروشة)..

من يصدق أن تلك السعادة العظيمة كانت ستنطفئ بهذه السرعة

الفادحة! ها أنت تجلس لصقي بضحكة عينيك التي استدرجتني لكل هذا الجحيم.. وأغوص في عينيك من جديد.. تكاد عيناك تنطقان أمامي.. وأوشك على سماع صوتك.. شمّ عطرك.. استحضارك بطقوس جنية تطلق عليك كل ما في حوزتها من سحر يقطن حواسها الخفية.. ولأنك بقيت صامتاً ترقب اشتعالاتي.. بمنتهى الحقد ضغط إصبعي على زر الحذف.. وحذفتك من شاشة الكاميرا كما بدأت أحذفك من شاشة وجودي.. إنه قدرنا معاً منذ البداية.. ولا يجدر بي أن أفتقدك كما يحدث الآن.. فمصادرتك من زوجتك وأطفالك هو احتلال آخر لم أكن لأرتضيه لأحد..

انتابني شعور بالارتياح وأنا أمحوك من الشاشة... بدأت أتخلّص من أثقال الذاكرة وأحاصرها بالنسيان كما حاصرتني بك.. رنّ الهاتف من جديد لكن... لم يخفق قلبي انتظاراً لك.. كانت سروة على الطرف الآخر تحدثني بصوت متقطع وسعادة واضحة:

- أحببت أن أسلم عليك، نحن في الطريق إلى سوريا لعمل طفل الأنابيب، أرجو أن تدعوا لي أنتِ وخالتي، أحتاج إلى دعائكم كثيراً

- اطمئني، سأصلي لك في منتصف الليل وأدعو لك كثيراً حتى تبشرينا بولي العهد

كنت سعيدة بضحكتها وسعادتها بعد ذلك الانتظار القاتل لطفل لم يأتِ.. الطفل الذي انتظراه طويلاً كما حلمت بطفلك في ليلة الأربع ساعات تلك.. دخلت خالتي تحمل معها قطعتي قماش تستشيرني في الأجمل لتخيطها لي.. لم تعجبني القطعتان، فالألوان كانت فاقعة لكني جاملتها واخترت الخضراء.. قالت لي ببهجة لم أعتدها:

- اليوم سيأتينا ضيوف.. ليرونك

أجبتها بلا مبالاتي التي أجيبها بها كلما دقّ بابنا عريس:

- لهذا جئت تختارين لي أجمل الثياب؟ اطمئني سأرتدي لهم ملابس الخبز التي ترتديها أم دعاء
- لن يغيّر هذا شيئاً.. فالطبيب شاهدك في المستشفى ولم أسألك حتى الآن ما الذي ذهب بك إلى هناك
- المهم أنه رآك هناك وأعجب بك كثيراً، وهو طبيب هكذا قالت لي أمه وهي تتحدث معي لنصف ساعة على الهاتف، عائلتهم من العوائل العريقة والمعروفة، وهذا ما يبهجني أكثر من كونه طبيباً

تفاجئني بكلامها وبالطبيب الذي نزل إليّ من سماء المجهول.. حتى إني لا أتذكر شكله، فقد كنت مشغولة بمصافحة الجثة! شعرت بالاختناق وبرغبة كبيرة بالاعتذار، لكن اعتذاري لم يكن له مسوّغ، وكان يبدو كأنه استهزاء بهذا الرجل الذي دقّ بابي وقرّر أن يمنحني اسمه وكيانه.. قلت لها مدّعية الرضا:

- على الرغم من أني لا أتذكر حتى وجهه لكن لا ضير من أن يأتوا
- إنها فرصة قد لا تتكرر في الحياة كثيراً.. لذا أرجو أن تفكري قبل أن تردّي

وعدتها بالتفكير. وخرجت مطمئنة.. وكنت أعرف سلفاً أن وجهتها القادمة ستكون إلى خالي الذي سمعتها تتصل به وتبشّره بالعريس الاستثنائي وتحثّه على إقناعي.. كنت أعيش الارتباك بعينه.. ذلك الصراع الخفي بين ما نريد وبين ما يريده الآخرون لنا.. بين ما نحلم به.. وبين ما يحلمون به بالنيابة عنا.. ومع ذلك لم أكن قادرة على كسر فرحتها بي.. ولم أكن قادرة على مقاومة رغبتي بأن أكون أماً لطفل لم يتسنَّ لي إنجابه منك.. فقد قتلك الغياب الذي كفّنه معك..

* * *

في الخامسة إلا ربعاً.. دخلت خالتي وهي منهمكة بترتيب المنزل الذي لا يحتاج إلى ترتيب وتحضير قطع الكعك التي اشترتها خصيصاً، فالفرن الكهربائي لا يصلح لأن نعلق عليه أحلامنا بكعكة

معرضة للاغتيال بانقطاع الكهرباء، وكم من كعكة ذهبت ضحية هذا الانقطاع..

كانت خالتي مبتهجة كما لم أشاهدها منذ زمن بعيد.. وإكراماً لبهجتها ادعيت الفرح مغالبة وجع قلبي المكمّم بصمت الكبرياء.. كنت أرقبها وهي تتحرك بسرعة وتنتقل من غرفة إلى أخرى حتى انتبهت إليّ وصاحت بي:

- يا إلهي! لم تستبدلي ثيابك حتى الآن
- لا بأس، لدينا ربع ساعة قبل أن يصلوا
- انهضي بسرعة وإلا قمت بإبدالك الثياب بنفسي

ونهضت مرغمة... فتحت خزانتي التي كانت ممتلئة بالملابس.. لكن الملابس كانت متشابهة.. لأنها بلونين لا ثالث لهما.. الأسود والأبيض! وحده الثوب الذي أعطتني إياه أم بكر كان يزهو بينها.. ولشوقي لها ولفروحة قرّرت ارتداءه والسير عكس رغباتي والوجهة التي اعتدتها.. كان الثوب يبدو واسعاً رغم أنه كان على مقاسي حين ارتديته قبل أكثر من شهر.. إنه رجيم الحب إذن.. الشهية التي تغلق أبوابها إلى المعدة لتنفتح في جهات أخرى.. على الرغم من ذلك.. كان الثوب يبدو زاهياً ومضيئاً يغطي على انطفائي كاملاً.. وهو ما كنت أحتاجه بالضبط للقاء كهذا..

في الخامسة تماماً وصل العريس وأمه وشقيقتاه.. كنت في الغرفة أنتظر دوري في مسرحية الزواج التي تتقنها الخالات والأمهات جيداً.. نظرت إلى الكاميرا الموضوعة فوق الكتب وكأنني أنظر إلى مقبرة.. فقبل ساعة واحدة دفنت تلك السعادة العظيمة بكبسة زر... فإكرام الميت دفنه. جاء دوري في المسرحية..

دخلت خالتي ونادتني بوجنتين محمرّتين وكأنها هي التي ستتزوج لا أنا.. وشعرت أنها تعيش فرحها الذي لم تعشه.. ولم أكن قادرة على مصادرة سعادتها هذه التي قد تكون آخر سعادة تعيشها في سنواتها اليابسة.. خرجت للضيوف بلا حرج.. ولا خجل..

ولا أي شيء مما تشعر به العروس عادة.. حيّيت الجميع ونهضت والدة العريس التي بدت أنيقة بملابس مدنية لا ترتديها الأمهات عادة. قبّلتني هي وابنتاها وجلست أمامهما وأمام العريس الذي لم يرفع نظره إليّ.. بقيت أتأمله وأنا أستنطق النبض أن يعاود رقصه من جديد..

كان الزمن يسير على عقارب الساعة بانتظام يردّد النغمة الرتيبة نفسها.. لم يتوقف الوقت هذه المرّة ولم تعلن الساعات عصيانها وتتسرّب من أصابعي.. كان كل شيء يسير بإيقاع بطيء.. ذهبت إلى المطبخ وجلبت لهم العصير وقطع الكعك المرصوفة في صحون مذهّبة تستخدمها خالتي في المناسبات فقط.. راودتني فكرة أن أدلق العصير على العريس لأرى ردّة فعله التي قد تمنحني سبباً معقولاً للرفض..! توقفت أمامه وانحنيت قليلاً لأقدّم له العصير وأنا أفكر في كيفية دلق العصير على بدلته الجديدة.. لا أدري لماذا نظرت إليّ خالتي تلك النظرة المريبة وكأنها عرفت ما نويت فعله.. وقبل أن أدلق العصير مدّ يده واختطف الكأس وشكرني دون أن ينظر إلى وجهي.. جلست أمامه من جديد أحاول إيجاد ما يجذبني نحوه.. لم أميّز طوله من جلوسه، لكنه بدا لي وكأنه بطول ناصر تقريباً.. لكنه لا يشبهه مطلقاً.. فهذا بشرته سمراء وناصر بيضاء.. واكتشفت في تلك اللحظة أن ذائقتي كلها تغيّرت وبدأت تقيس وسامة الرجال بمواصفاتك القياسية!

يا لهزيمتي! هل كان ظهورك في حياتي يضمر لي كل هذه اللعنات!

كانت أم العريس تسألني أسئلة عامة عن عملي، فيما أخذت شقيقاته ينظرن إليّ بتفحّص مريب..

بدت بعد أسئلتها وحديثها العام تطري على ابنها وتشيد بأخلاقه تزكيه من العلاقات والنساء... وتساءلت في أعماقي: كيف يمكن لرجل أن يقطع هذا الشوط الطويل في العمل من دون

أن يخفق قلبه لامرأة! وهل يمكن أن يخفق قلبه لي حين أكون ملكه وفق صكّ شرعي! متى كان الحب مشروطاً بالتزام شرعي أو قانوني! كل قصص الحب التي سمعت عنها كانت تنبت على أرض صخرية وتزهر غالباً في أرض بور ليحتفظ بها التاريخ في أجندته العشقية حين يبدأ الفراق يقصّ فصولها للأجيال.. في حين أن هنالك الكثير من قصص الحب انتحرت على سرير الزوجية!

خرج الضيوف.. وبقيت وحدي أمام كوؤس العصير وبقايا الكعك الذي لم يأكلوا منه الكثير.. عادت خالتي بلهفة عروس وهي تسألني:

- هل رأيته؟ كم هو وسيم ومهذب

قلت لها وأنا أشرب بقايا العصير في أحد الكؤوس:

- مهذب؟ عن أي تهذيب تتحدثين؟

صعقت وهي تسمع كلامي وتجيبني بصمتها واستغرابها:

- ألم تشاهدينه وهو يغمز لي؟

لولا ضحكتي التي شرقت بها وقاطعت ادعائي.. من يدري أية نكبة كانت ستصاب بها خالتي في يوم خطبتها.. أعني.. خطبتي!

* * *

اليوم الثاني عشر لغيابك.. بدت حالتي أكثر سوءاً وأنا أستعد لبدء حياتي من جديد.. كنت قد قرّرت اغتيال ذاكرتي الخربة قبلك وبعدك بالعريس الذي جاء هذه المرّة كامل المواصفات..

قلت لمعمر الذي يجلس أمامي وهو يسجّل أسماء البدو المهجّرين الذين اتخذوا من (معسكر الدروع) مأوى، ليوزّع لهم المعونات:

- قد تسمعون خبراً سعيداً هذه الأيام

استدار نحوي وترك القائمة من يده بدهشة:

- ستنخطبين؟

وضحكت ضحكة صفراء ادعيت فيها الفرح بكل ما أوتيت من قدرة على التمثيل.

– حقاً؟

– ربما

– هذا أجمل خبر سمعته منذ الاحتلال حتى الآن

– شكراً.. أعرف أن هذا الخبر يفرحك لهذا لم أخبر أحداً غيرك به

– هل أنت سعيدة الآن؟

هذه المرّة أيضاً.. كان سؤاله مباغتاً..! كان رصاصة أخرى تخترق قلبي بالسؤال... لم أرغب بالكذب عليه أو الادعاء.. كنت بحاجة إلى أن أتحدث قبل أن أنفجر.. أن أسرّب شيئاً من بكائي وخيبتي وانكساري... أن أقول لشخص ما دون أن أخاف من ظنونه: إني تائهة! إني أحببت شخصاً في الليل اختفى مع الصباح وبصمت فادح.

إني امرأة لم تعد تعرف ملامحها، فقد رسمها الحب في الليل وجاء الصباح ليمحوها من جديد! لكنني لم أتمكن من قول شيء أمام نظرته المتفحصة المليئة بالأسئلة..

في هذه الأثناء تحوّل نظره عنّي وهو ينهض من مكانه ليستقبل أحد القادمين إليه.. وكانت فرصتي للتهرّب منه.. أخذت ألملم أوراقي وأهمّ بالعودة إلى البيت.. كان صوت المدير وهو يحدث معمر يعلو في الممر المقابل لغرفتنا.. حملت حقيبتي السوداء وهممت بالخروج.. استوقفني المدير وهو يقف بوجهي محاولاً الدخول إلى الغرفة فيما كنت أهمّ بالخروج منها حتى أوشكت على الاصطدام به وهو يقول:

– هذه هي غرفة المعتقلين عسى أن تجدي رسائل جديدة.. وضحك ضحكة طويلة.. ومضى

لم يطل استغرابي الذي تحوّل إلى ذهول عاصف ودويّ هائل في أركان قلبي وكأن قنبلة ذرية انفجرت وقذفتني في كوكب بعيد!

سقطت الحقيبة من يدي أمام معمر وحطّ ذهولي وأنا أشاهدك للمرة الأولى بعدما دفنتك وأهلت على جسدك ووجهك رصاص النسيان!

لحسن حظ الحب كان المدير مستعجلاً فعلّقك أمانة في عنق غرفتي وذهب.. مات الكلام على لساني حين بدأت لهفتي تتسلّقك من جديد.. وجهك وجهك.. صوتك ومطر خطوك.. هدير كلماتك.. وتلك العينين الصغيرتين اللتين استدرجتاني لجحيم انتظارك..

انحنيت على الأرض لأحمل حقيبتي التي سقطت من يد لهفتي.. وجاءني صوتك ليعمّدني بالمطر من جديد وأنت تسبقني إليها بصوتك الماطر:

- لا أحد غيري يحمل لك كل ما يسقط منك

ومضيت أتأملك بحقد تطاير كالقش في عاصفة وجودك التي هبّت على كل ما يحيط بنا وتركتنا وحدنا نقف قبالة دهشتنا ببعضنا في كوكب عار إلا من جسدينا المنتصبين كرمح في خاصرة الوقت.. قلت لك وأناً أحاول من جديد تجميع الكلمات المتكسرة على لساني:

- مفاجأة

- هل هي مفاجأة جميلة؟

وتذكرت حقدي عليك.. وغيابك المفاجئ كحضورك.. لهذا قلت لك في محاولة لصفعك بالكلمات:

- إنها مفاجأة وحسب

كأنك التقطت إشارات حقدي لهذا وجدتك تبتسم لي بعينيك الصغيرتين وأنت تقول:

- قبل قليل فقط وصلت من عمّان وكان هذا أول مشوار أعمله

حين وضعت شريحة الاتصال في الهاتف لأتصل بك من هناك ولسبب تقني أجهله انمحت كل الأرقام في جهازي بما فيها

رقم هاتفك.. وكنت سأجنّ..! كنت أتأمّلك وأنا أرى في مرآة قلبك وتلقائيتك البعيدة تحليلاتي وتعقيداتي.. صورتي الحاقدة وهي تمحوك بسرعة فادحة وتمحو صورك وتكسر زجاجة عطرك في ذاكرتها لتفوح كلماتك وضحكة عينيك الصغيرتين اللتين أوقعتاني في فخاخ عشقك...

في هذه اللحظة فقط تنبهت إلى معمر وهو يحمل سجلّه ويهمّ للخروج.. كان يودّعنا مبتسماً وكأنه الراوي العليم في حكايتنا هذه.. لم أشعر بالخجل منه.. بل كنت أريده أن يشهدك زلزالاً ومطراً.. جحيماً ورحمة تنزل على روحي..

قلت لي وأنت تأخذ الحقيبة من يدي وتمضي أمامي:

- لنخرج فقد انتهى دوامكم.. وسأوصلك إلى البيت

كنت أريد أن أرفض.. أن أغالب نبضي.. أن أكذب على قلبي وأدّعي أن هذا خطأ جسيم لا يمكن تكراره بالاستسلام ذاته.. لكنني.. وبذلك الاستسلام اللذيذ.. مضيت خلفك.. أقتفي ذات العطر.. وذات الرجل.. وذات الرجولة التي عادت تعبّد خطاي من جديد.. وجلست جوارك هذه المرة.. في سيارتك البيضاء المظللة.. كنا صامتين على امتداد المسافة من الجمعية حتى الوجهة التي لا أعرفها ونسيت أن اسألك عنها بل.. تناسيت! كانت السيارة تدخل طرقاً ومنعطفات لم أدخلها من قبل.. سألتك عن وجهتنا بعدما طالت المسافة:

- إلى أين تأخذني؟

فأمطر صوتك وأنت تنظر لي:

- كم اشتقت إليكِ

وبقيت صامتة أرقب لهفتي التي عادت تخضرّ على يديك وصوتي الذي فقدته على شفتيك وكياني الذي تبعثر بين أصابعك الحلم.. أجبتك بصمتي.. ففي حضرتك.. ضاعت اللغة.. وكنت أبحث عن لغة جديدة تنقذني من غرقي الكامل بك.. ومعك..

ودخلنا أحد المنعطفات حتى وصلنا إلى بناية كبيرة توقفت السيارة أمام مدخلها بعدما اجتزنا الاستعلامات.. كانت ابتسامتك السماوية تنتظرني وأنت تقول لي:

- أهلاً بك في شركتي

كنت لا أزال أحاول أن أتمثل ذهولي بقدومك ولم يكن بإمكاني أن أستوعب ما تضمره لي من مفاجآت.. نزلت مغالبة ارتباكي من جديد.. وسألتك همساً عند باب السيارة الذي فتحته لي:

- ما الذي سيقولونه عني؟ لماذا جئت معك إلى هنا؟ ما كان يجب أن آتي معك

- سيقولون حبيبتي وسأقول لهم فيما بعد زوجتي

ومضيت أحلّق بأجنحة جنونك الذي اجتاحني ليسجّلني أنثى مختومة بماركة رجولتك. أغلقت الباب خلفي ومضيت أمامي لأقتفيك من جديد... كان الجميع يحيّيك وكنت أزهو بك وحدك.. لا لأنك صاحب الشركة.. ولا لأنك مدجّج بهذا الثراء.. فقط لأنك رجل الدهشة! ودخلنا غرفتك أخيراً...! ذلك المكتب الفخم.. والأثاث المنسق بطريقة لا تدل على قرويّتك مطلقاً..

استدرت نحوي وأنت تطلب مني الجلوس. ومثل طفلة مطيعة لم أكنها... جلست.. كانت عيناي تلاحقانك بصمت وشوق كاسر وأنت تجري عدداً من الاتصالات السريعة.. ووجدتك تتقدم نحوي وتغلق الباب لنبقى أنا وأنت فقط! اتجهت نحوي بعينين تبرقان حباً وشوقاً وجنوناً آسراً.. ومع كل خطوة كان قلبي يخفق ويضيق بقفصه الصدري.. لا أدري أية كارثة عشقية كنت تضمرها لي..! ووجدتك تقف أمامي وتطلب مني النهوض بصوت لم أسمعه منك من قبل.. بالاستسلام ذاته.. وقفت.. وكنت هذه المرّة أخفق رعباً وشوقاً.. مددت يدك إليّ ولم تستأذني يدي التي انصاعت للنداء.. بل طارت إليك وحطّت بين أصابعك.. هذه المرّة.. لم تصافحني.. بل أحنيت رأسك عليها ورحت توشمها بقبلة محمومة شعرت فيها بحرارة

أنفاسك.. لتضعها بعد ذلك على جبهتك كمن يصلّي في محراب الحب..

كان الذهول قد وصل أقصاه وأنا أحاول سحب يدي منك وأنت تتشبّث بها.. وتضعها على جبهتك.. وكان عرق جبهتك قد تسرّب إلى مساماتي كلها.. كنت تلثم كفي ابتهالاً.. وكنت أتعمّد بعرقك المقدّس مسامة تلو أخرى... عاد الوقت يشهق بك من جديد.. ولم أستيقظ من صلاة الحب إلا وأنا أستمع لتلك الساعة الكبيرة المعلقة على جدار غرفتك وهي تعلن انتصاف النهار.. سحبت يدي مغالبة جنوني الذي أشعلته قبلتك.. تلك القبلة التي لم تكن قبلة.. بل صلاة والتحام وإعادة تكوين.. لم تكن تشبه القبل التي قرأت عنها وسمعت عنها.. كانت تتويجاً وتكريماً.. لم تكن شهوانية ولا مدنسة.. بل تطهير من تلك الأحزان المحفورة في جبهة القلب.. جاء صوتك الهامس متمماً لصلاة العشق:

- كم أحبكِ

وتعلقت فوق حروفك من جديد.. يدي التي تحمل أنفاسك صارت بعضك.. ولك فيها تاريخ انعتاق وانبعاث.. أصابعي التي حظيت بشفتيك كانت تتفلت مني لتعانقها من جديد وتغيب فيها لتفشي لك بأسرار اللهفة وترسم لك جنوني بك.. غير أن لساني بقي معقوداً على عينيك.. لم أتمكن من الإمساك بالحروف الهاربة مني إليك.. كان كل شيء يتآمر معك ليمنحني سعادة بكراً.. رسمتها شفتاك. كان طوفانك قد أودى بذاكرتي كاملة لتتربع فوقها ببهاء رجولة.. رسمتها أحلامي.. من دون أن أدري.. ومعك.. بدأت أتعلم الوقوف من جديد.. المشي على هذه الأرض التي تنجب الموت أكثر من الحياة.. معك.. كنت طفلة تتعلم خطواتها الأولى بتعثر أسندته قامتك.. كنت تصرّ أن تعبّد لي الحياة بك.. وكنت الدرب وغايته.. المنفى والوطن البديل..

فصل جديد

(هل كان عليّ أن أخسر العالم لأربحك؟!).

تسعة أشهر.. كانت تعادل أعماراً من الفرح الشحيح في مشكاة الوقت.. تحوّلت فيها من رقم مكرّر في قاموس النساء إلى... أنثى! كان لرجولتك الفضل في إعادة صياغتي من جديد.. رغم أن المسافة بيننا ظلّت خاضعة لأحكام عقل كنت أرفضه في كل لحظة لكنني أصرّ على التمسك به..

كنت تكبر كل يوم أمامي وتزداد نفوذاً وثراءً، غير أني لم أكن أرى فيك سوى ذلك الطفل المتعلق بأذيال أمه.. وكنت أمك التي ولدتك طفلاً ورجلاً وعاشقاً وأباً..

قلت لي في اتصالك الأخير من عمان التي تحب: يجب أن نضع تاريخاً لبدء حياتنا معاً.. فكل مشروع ناجح يحتاج إلى توقيت.. وطلبت منك أن تنتظر أيضاً.. لكي لا أصطدم بخالتي من جديد.. بعدما ساءت علاقتي بها بعد رفضي لذلك العريس الذي لم تعد ترى في الكون سواه.. تحول البيت إلى جحيم كنت أنت ملاذه الوحيد.. وتعلّمت معك أن أحصي حبّات الوقت بانتظار هاتفك.. أو رسالة صغيرة منك.. ذلك الوقت المترهّل أصبح ثميناً وهو يرقبك ويعلن انتظاره لك..

علاقتي بخالتي كانت على حافة الانهيار إن لم تكن قد انهارت فعلاً.. وكلّما أوشكت على مفاتحتها بأمرك كنت أصطدم بغضبها ولامبالاتها.. الفرح الوحيد الذي تمنيتها أن تشاركني فيه كانت غير آبهة له.. حتى خالي شعرت أن حمّى غضبها قد انتقلت إليه فلم يعد يتصل بي، وحين أتصل به كان بروده لا يقلّ عن برودها..

تُرى.. هل كان عليّ أن أخسر العالم لأربحك!

***

كانت البلاد تغرق كل يوم في بحر دمها وكنّا نغرق معها، وكنت نجادتي الوحيدة التي أطفو بها فوق أكوام الجثث والأحلام المغدورة.. ازدادت مجالس العزاء في المدينة فكانت طقوس التعزية واجباً تصرّ خالتي على تأديته في كل الظروف..

في ذلك اليوم الذي قررت فيه الخروج، استوقفتها لسبب أجهله وقلت لها إن قلبي مقبوض فلا داعي لخروجها في ذلك الوقت.. لكنها لم تأبه لي.. وطمأنتني وهي تخرج غير مبالية بخوفي.. جلست في الحديقة أرقب تعاقب الفصول على بيتنا الشاخص بأحجاره العتيقة.. الديك الذي كبر وقد أنشأ عائلة بفراخ كبروا معه ليملأوا فناء الحديقة الخلفي.. وحدي كنت لا أزال في مكاني.. وخطوتي الوحيدة التي قفزت بها قفزة ضوئية للأمام.. كنت أنت! وكلما تراجعت.. أو قرّرت إطفاء هذا الحلم المستحيل.. كنت تركض نحوي بسرعة تسونامي غاضب وتغرقني من جديد..

كان وجودك يشعرني بسلام واطمئنان داخلي.. لولاه من يدري أي رعب كنت سأعيشه وسط أهوال الموت والخطف التي طاولت الصغير والكبير.. الطالب والمعلم والطبيب والضابط ؟ لهذا وجد الحب أفيوناً يقي أرواحنا من التعفّن.. وكنت المخدّر الذي أدمنته روحي لتتجاوز به الألم المحيط بها.. والهاتف الذي كان قطعة معدنية مرمية بإهمال في حقيبتي.. تحوّل إلى حبل سرّي يرفدني ويشحنني بصوتك وأنفاسك وكلماتك.. على قلّتها.. أقلب رسائلك الصغيرة لأستحضرك كلّما راودني الشوق إليك: (متى أضمّك تحت جناحي).. هذا ما كنت أحتاجه تماماً.. أن أكون تحت جناحيك لا فوقهما.. أن تطير بي.. لا معي.. لا أدري إن كان شوقي قد استدرجك لإرسال رسالة أخرى في هذه اللحظة بالذات التي استحضرتك فيها أم إنه شوقك الذي تزامن مع عطشي إليك!

تأملت حروفك بلهفتي ورحت أقرأها بإمعان حرفاً حرفاً.. (مشتاق).

خمسة حروف تفكّ شفر السعادة في قلبي وتجعله يرقص من دون أن يرى سعادته أحد.. حتى أنت! طالما كنت تسألني إن كنت أحبك أم لا.. وكنت أكتفي بالصمت.. الصمت الذي كنت تؤوله بما يسعد قلبك أيضاً.. الحيلة التي نمارسها على ذواتنا المنكسرة كلما صادفنا غياب الحب.. أو تأخره عن موعده الصباحي!

لم تكن تحب كتابة الرسائل الطويلة.. كانت رسائلك لا تتجاوز بضع كلمات.. فأنت رجل اعتاد على تشييد أحلامه على أرض الواقع والصحو.. بينما كنت أنا امرأة لم تعتد إلا على جمع ركام أحلامها الواقعة من أقاصي السماء لتصوغ منها الحكايات..

كنت امرأة الصحو والمطر.. حين أتأمل جنونك أوشك على الطيران إليك بألف جناح.. وحين أتذكر زوجتك وكيف سأكون محتلة أخرى لأرضها وحياتها.. أنطفئ بالكامل.. حتى تعود وتشعلني من جديد لأعاود مزاولة غيبوبتي بك.. تلك الغيبوبة.. التي لا أدري أية حماقة كنت سأرتكبها.. لولاها!

***

أوشكت الدنيا على المغيب، وكان عليّ أن أهيّئ حقيبتي للسفر إلى بغداد مع خالتي لمباركة سروه بمولودها الذي انتظرته سنوات هي وحازم.. ولدته في دمشق وعادت به إلى بغداد.. في آخر اتصال لها أخبرتني برغبتها بالبقاء مع أهلها في دمشق حيث تهجّروا، وكان حازم قد ترك لها الخيار فيما حزم هو خياره بالعودة لبغداد.. رغم كل محاولات أهلها.. ولم تكن لتتركه بعد قصة حب تكلّلت بطفل أنبوب المعجزة!

كانت تتصل بي كل يوم لتصف لي أحمد.. كان شكله في تغيّر مستمر... مرّة يشبهها ومرّة يشبه حازم ومرّة لا يشبه أياً منهما.. وكانت تتصل بخالتي كلما أكثر من بكائه، وعبثاً كانت خالتي تهدّئها.. وتقنعها أن الأمر طبيعي بالنسبة لطفل عمره أيام.. كنت أحب أن تصفه لي.. كيف ينام.. وكيف يبتسم.. وكيف يبكي.. وكانت تقول

إنه في الحلم يبكي، فتقول لها خالتي إن (الغزيله) تبكيه حين تقول له ماتت أمك.. وحين يضحك في حلمه فهذا يعني أن (الغزيله) رأفت بحاله وقالت له كنت أمزح معك.. يا لجنون (الغزيلات) وهنّ يفزعن أحلام الأطفال بهذا الكابوس.. لا أدري إن كانت (الغزيله) قد أنذرتني بهذا الفقد حين كنت صغيرة..

عادت خالتي ومعها أكياسٍ كبيرة ساعدتها في إدخالها إلى البيت.. جلست وكان التعب بادياً عليها.. لم أسألها عن الأكياس فقد كان من الواضح أنها هدايا.. قالت لي وهي تنزع شالها:

- هذه ملابس لابن سروه وهي جهاز كامل للطفل عملته الخياطة لي كما أردته وبالمقاسات التي طلبتها ليكون ملائماً له منذ الولادة وحتى الشهر الثالث على الأقل

أخذت أفتح الأكياس وأتلمس ملابسه بحنان..

- ما رأيك بها؟
- إنها جميلة.. وناعمة
- جيد ستعجب سروه بالتأكيد، فالمسكينة والدتها بعيدة عنها وهذه الأمور لا تجيدها سوى الأمهات.. حتى أهل حازم بعيدين عنهم.. هذه الفتاة تحزنني فلا أهلها ولا أهل زوجها معها.. بعضهم في السويد والبعض الآخر في دمشق.. وللغربة باب واحد وطعم واحد.. نحن أهلها وليتها تترك بغداد وتعيش هنا.. قد نقنعهم في زيارتنا لهم.. سأتصل بها الآن وأؤكد لها موعد ذهابنا في نهاية هذا الأسبوع.

كنت أستمع لخالتي وأتلمس ملابس الطفل بحنان يزداد مع كل قطعة. تركتها تتحدث مع سروة وأخذت ملابس الطفل إلى غرفتي لأنفرد بها.. وكأنني كنت أنفرد بابنك الذي منحتني إياه في ليلة مجنونة.. وعدت تستنبته في أحلامي من جديد.. هذه الأكمام البيضاء الصغيرة أية يد معجزة سترتديها؟ هل يمكنك أن تمنحني طفلاً بحجم هذه الأكمام! هل كنت أريدك لتجعلني أماً أم لتمنحني

طفلك أنت! وتراودني عيناك من جديد.. يبتسم بوجهي ذلك الطفل الذي زرعته في رحم ذاكرتي وظل يكبر منذ ذلك المساء البعيد..

صوت خالتي يقضّ مضجع حلمي وهي تستعجلني للحديث مع سروة. تطلّ سروة بفرح الكون وهي تسألني بلهفة عن ملابس طفلها التي كانت قبل ثوان ملابس طفلي!

- الملابس رائعة ستعجبك كثيراً
- لا أصدق أني سأراكما بعد يومين كأن العالم توقف منذ أن أعلنتما موعد مجيئكما لبغداد، حتى حازم متشوق لزيارتكما ليطمئن أنه لن يتركني لوحدي حين يذهب للعمل
- وكيف تكونين لوحدك وولي العهد معك؟

تضحك وهي تستأذن بالذهاب لإرضاع ولي عهدها الذي علا صوت بكائه في سمّاعة الهاتف... وتغيب معه.. فيما أعود لغرفتي.. أعيد ترتيب الملابس من جديد ليرتديها طفلها.. فيما يظل طفلي عارياً وهو يتوسّد رحم ذاكرتي وأحلامي.

* * *

أخذت إجازة من الجمعية وسلّمت على الجميع وكأنني في سفر بعيد قد أعود منه.. وقد يلفني الغياب في دوامته كما لفّ الكثيرين من قبلي لأسباب أكثر عبثية..

انتظرت عودة معمر مع بعض الزملاء من معهد الدروع لأسلّم عليه.. وقبل انتهاء موعد الدوام في منتصف النهار يئست من عودته ففاجأني وقت طويل حتى بعودته مرهقاً وسجلّه ممزق.. وملابسه متربة وعليها آثار طين يابس.. بادرته بقلقي:

- ماذا حدث لكم؟ كأنك خارج من معركة؟
- كانت معركة فعلاً
- ما الذي حدث؟ هل تعرّض لكم الأمريكان؟
- كنا نوزّع السلة الغذائية بسلام وكل حسب دوره حتى تجمّع أهالي

مركز الدروع.. المهجّرين.. وأخذوا يشتموننا لأنهم لم يستلموا حصتهم.. وتحوّلت الشتيمة إلى معركة بالأحذية

لم يتمكّن من إكمال كلامه بسبب نوبة الضحك التي اعترتني وأخذ يشاركني بها نافثاً بقايا تعبه وشعثه.. قلت له وأنا أمسح ما علق بعينيّ من دمع جراء الضحك:

- ضحكة خير يا ربي

- تخشين حتى الضحك

- لا أدري، لكني كلّما ضحكت بكيت بعدها.. للضحك ضريبته أيضاً

هزّ رأسه باستغراب ونهض ليقف أمام المرآة الموضوعة خلف الباب الخشبي وأخرج مشطاً صغيراً أخذ يمشط به شعره وينظف ماعلق به من غبار تلك المعركة.. فتحت درجي لأتأكد من عدم وجود رسائل باقية فوجدت رسالة واحدة متبقية من مسلم شقيق عمر.. ذلك الصبي المعتقل في سجن الأحداث بالصالحية ببغداد.. تذكرت أمه.. وحكاية أخيه عمر الذي يخبّئ السلاح في سطح منزلهم... لم يكن بمقدوري تأخير الرسالة أكثر..

اتصلت بمتطوع سامراء لأستفسر عن موعد قدومه فأكّد لي مجيئه في الغد.. أكدت عليه بضرورة إيصال الرسالة لعائلة مسلم عبد الرحمن.. فجاءني ردّه صاعقاً:

- لا أعتقد أنه وقت ملائم لإيصال الرسالة لهم الآن

- لماذا؟

- لقد استشهد ابنهم عمر حين أطلق النيران على إحدى الطائرات التي كانت تطير على مسافة قريبة ظاناً منه أن بإمكانه إسقاطها.. فضربته.. حتى إنهم لملموا بقاياه في كيس صغير

في بلورة دمعي.. تكسّرت صورة أمه وأخيه واحترقت الرسائل الخضراء بشهيق النحيب الذي أسقط الهاتف من يدي... وقطع

الاتصال! كان وجه أم عمر يسترسل أمامي بمخاوفها عليه وقلقها ومحاولاتنا لإيجاد حلول عقيمة.. بعدما جمعوا لها ابنها في كيس صغير! ذلك الحلم الذي أنجبته وشهقت به فرحا.. وحلمت بعرسه وأحفاد معلّقين برحم الغيب.. كل ذلك تحوّل إلى أشلاء متناثرة في كيس صغير! لا أدري كم مرّة صاح بي معمر مذعوراً أمام نحيبي الذي أجابه:

– إنه ثمن تلك الضحكات.. جاء سريعاً.. ومباغتاً.. لقد قتلوا عمر.. قتلوه

– من هم؟ ومن هو عمر؟

تركته معلقاً فوق حبال أسئلته ومضيت ألملم بقايا أوراق كان الموت أسرع منها... وضعتها مع تلك الرسالة التي حملت سلاماً أبيض.. ذلك الطائر الذي أحرقه الموت.. وكوّمه في كيس صغير..

بوابة المغيب

كان صوت الطائرة يعلو صوت السيارة حتى شعرت كأنها تلتصق بسقف السيارة وتطير بها.. كنت أقبض على حقيبتي السوداء كي لا تطير منّي حين انفتح سقف السيارة عن تيار ناري لاهب قذف بي وبحقيبتي التي طارت أوراقها ورسالة مسلم التي تناثرت حروفها في الفضاء الملتهب.. كان جسدي يهتز بقوة وأنا أصيح بصوت أضاع حنجرته تحت أزيز الطائرات ولهيبها..

وفجأة.. انتصب فوقي وجه خالتي المرتعب وهي توقظني وتهزّني بقوة لأستفيق..

- كنت تتوجّعين في الحلم.. أيقظتك مراراً ولم تستيقظي

أتلمس جسدي وأتحسّس مواضع الألم.. إنه وجع حقيقي حدّ العظم.. كما تشحننا الأحلام بنوبة سعادة وانتشاء حين نلتقي على أرضها حباً بعيداً.. أو نعانق مستحيلاً نائياً.. فإنها تصيبنا بنوبات وجع وبكاء كما لو أننا فعلاً نسقط من أعالي الحلم إلى أقاصي الخيبة.. لذا.. كانت الدموع تغطي وجهي.. والألم يعتصر جسدي..

علا فجأة صوت الطائرات.. الطائرة ذاتها التي قذفت بي في الكابوس.. سألت خالتي وأنا أحاول جرّ نفسي من الفراش:

- هل هذا صوت طائرة أم أني لم أخرج من الكابوس بعد؟

- هنالك إنزال جوي على أحد البيوت في الشارع الخلفي والأمريكان يطوّقون المنطقة

- و كيف سنذهب لبغداد؟

– اتصلت بالسائق وطلبت منه الانتظار حتى يذهبوا، صلّي الفجر وتهيئي عسى ألا يتأخروا أكثر

نهضت أجرّ جسداً بالكاد يتحرك.. عاد التيارالكهربائي بعدما تركناه منقطعاً.. وشعرت بارتياح، فعودته ستسهّل لي ارتداء ملابسي بسرعة.. بدأت أصوات الطائرات تبتعد.. معلنة ذهابها بعد إنهاء مهمتها... وبعد نصف ساعة.. كان السائق أمام بيتنا.. وضعنا ملابس ابن سروة وهديتها في الصندوق الخلفي.. وخلال دقائق.. كنا في الطريق إلى بغداد.. كانت الشمس تشرق بنعاسها فوق الأسيجة والبيبان.. مررنا بجانب السوق الكبير الذي يشتهر بزحامه وحركته...

كان لا يزال نائماً.. وفارغاً.. والمحال مقفلة.. كأننا ندور في مدينة للأشباح.. كان كل شيء صامتاً عدا سيارتنا التي تأكل المسافة... بين سيطرة وأخرى...

حاولت أن أتذكر آخر مرّة رجعت فيها من بغداد مررت على هذا الطريق.. فلم أنجح باستحضار تلك النشوة العجيبة.. وأمام فشلي في حقن نفسي بمخدر الحب من جديد.. أخرجت الهاتف.. ورحت أتأمل اسمك برغبة في أن أحقن به... لكن صحوة الألم كانت أمضى مفعولاً من كل مخدر.. ما زلت أعيش ذلك التشظي.. بين جسد يتكوّم في سيارة... وروح تطوف في مأتم...

كان السائق يتصل برفاقه ليتأكد أنهم سيذهبون إلى بغداد ويزامن ذهابه معهم خوفاً من مفاجآت الطريق.. الأمر الذي طمأن خالتي وهي تشاهد سيارتي أجرة ترافقننا مقلّتين ركّاباً بدا عليهم كأنهم طلبة أو موظفين... لحسن الحظ لم نواجه رتلاً أمريكياً في الطريق لذا قطعناه بثلاث ساعات.. تخللتها السيطرات التي لم تقم بتفتيش السيارة هذه المرّة...

كان علينا أن نقطع طريقاً أخرى للوصول إلى سروة.. فالطرق أصبحت بلا خرائط.. كل شيء تغيّر..

بين الطرقات أبحث عن وجه بغداد... عن عطرها الذي بدّدته رائحة الحرائق والدخان.. عن رائحة طعام آمن وطرقات تتراقص تحت أقدام الجميلات والعشاق والطلبة والمدارس الأنيقة بعراقتها.. لكن... بغداد غائمة تحت غيوم الدخان وسوادها.. ومدجّجة بالخوف والتوجّس وهي تتفرّس بوجوهنا.. كأننا ما تربّينا على أرضها يوماً..

يدخل السائق أحد الأفرع بأمل إيجاد منفذ من الزحام.. وينجح في ذلك.. تطلب خالتي أن نتصل بسروة ونعلمها بوصولنا..

- لا أريد إفساد المفاجأة.. حين تفتح الباب وتجدنا أمامها ستسعد أكثر

خلال وقت قصير نجد أنفسنا أمام البيت حيث تتوقف السيارة ونبدأ بإنزل الأغراض مع السائق.. المياه الآسنة تجمّعت في الشارع والطين يفترشه.. نحمل الأغراض خوفاً من أن تتسخ بالطين ونحاول أن نعبر المياه وصولاً لباب المنزل الخارجي.. تطرق خلتي الباب فيما أحمل حقيبة الطفل البيضاء المطرّزة بقلوب الحب الملوّنة.. تكرّر خالتي طرق الباب وتطلب مني الاتصال بها.. يفاجئنا القفل الكبير في الباب الخارجي.. هذا يعني أنهم في الخارج.. أخرج الهاتف لأتصل بها.. وقبل أن أكمل الاتصال تخرج إلينا امرأة من المنزل المجاور تركض نحونا.. تفاجئنا بانتحابها عند الباب وهي تصيح:

- لا أحد في المنزل.. لا أحد هناك

- أين ذهبوا؟

تنشج المراة يتبعها زوجها وامرأة كبيرة.. ويتجمع بقية الجيران حولنا.. وهم يتطلّعون إلينا بأسى... صرخت بهم خالتي:

- أين ذهبوا؟ لماذا لا يجيبنا أحد؟

يقترب أحد الجيران منا.. بعينين غارقتين بالدمع:

- خرجا صباح البارحة ليستخرجا لأحمد هوية ليعملا له جواز سفر.. وفي الطريق.. تعرّض لهما مسلحون .. أو عصابة.. لا نعرف بالضبط.. لكنهم انهالوا عليهما بالرصاص

سقطت الحقيبة البيضاء من يدي في الطين.. كما سقطت خالتي التي ازرقت شفتاها وهي تطلق نحيبها.. ولفرط سوادي.. لفرط نزفي.. لم أتمكن من مدّ يدي لأسند وقوعها ووقوعي.. الجميع هرع إليها وحملها وأدخلوها المنزل.. وكنت وحدي أشهد توقّف الكرة الأرضية عن الدوران... كنت أتنفّس بصعوبة.. وأنا أهوي على الأرض.. على ركبتيّ الجاثيتين أمام المنزل... الذي تحوّل إلى مقبرة شاخصة بحزن وطن.. كانت ثمة يد تساعدني وتجرني لأنهض.. لكني عبثاً أسحب روحي المعلقة على الجدران والباب الأخرس.. تصرّ المرأة على جرّي لبيتها حيث حملوا خالتي.. لكن قدميّ خذلتاني.. هل هو الشلل الذي يتحدثون عنه...

احتضنتني المرأة وقبّلتني ببكائها الحار.. وشاطرتني الطين والوقوع والنحيب أمام الباب... لم أكن أبكي.. كنت أنزف نحيباً.. كانت روحي تئنّ على جدران خرساء... فوق أرض تأكل أبناءها.. في وطن يدفن نفسه عند كل جثة مغدورة...

أوقفتني المرأة بصعوبة.. وكانت قدماي ترتجفان... كان السائق يسندني ويحمل الحقائب الملطخة بالطين.. وتذكرت لحظتها ابن سروة.. تجمّدت عيناي بدمعها على عيني المرأة ولم يجرؤ لساني على السؤال عن ابنها، لكنّها فهمت سؤالي المرتجف على فمي:

- الطفل بخير.. وهو عندنا في المنزل.. لقد حفظه الله ولم يصب بأذى.. كنا نريد الاتصال بأقربائهم ولم نكن نعرف أحداً

الطفل بخير إذن! يتيم آخر.. وحرمان آخر! حسرات وأسئلة... هل كان عليّ أن أفرح بحياة معاقة باليتم!

تؤكد لي المرأة:

- هو بخير.. تعالي لترينه..

السائق ينشج أمامي ويردّد لا حول ولا قوة إلا بالله... يسحبانني للداخل.. خالتي مرمية على السرير.. بشفاه مزرقة.. وعلى المرآة المعلقة أمامي يسقط نظري على وجهي... الوحل يلطّخه.. والأسى يرسمه... تتطلع إليّ خالتي بأنينها الذي يتحوّل إلى نحيب.. نحيب ارتاح له.. لأنّه يسرّب حمم البراكين المستعرة في أرواحنا.. كلانا.. يتصبب دمعاً... وطيناً.. وحزناً... مثل ذئب جريح أطلق صرختي في أحضانها.. يشاركنا البكاء صوت طفل يأتي من الغرفة المجاورة...

تأتي المرأة تحمله وهو ملتف ببياض القماط... وبصوتها المتهدّج تقول:

- هذا هو

تهوي يدي على رأسي.. على وجهي... على روحي... أحمل الطفل بيدين خائرتين مرتجفتين... عيناه غارقتان بالدمع.. لا أكاد أميز شكله لفرط دموعي... تضع المرأة قنينة الحليب في يدي لأرضعه إياها... ومن دون إرادة مني تحمل أصابعي القنينة وتلقّمه إياها... فيسكت... ويبدأ يرضع الحليب...

خالتي يزداد نشيجها.. وأصمت أنا... أرقبه وهو يرضع... عيناه صافيتان.. وجهه مستدير كوجه سروة... أكتم انتحابي كي لا أفزعه... وأشرق بملوحة الدمع الكتوم... هو أيضاً... خطف الموت أهله.. وتركه ملفوفاً بالقماط.. والأسئلة والحرمان... كومة لحم في حضن الموت.. عيناه الصغيرتان تتطلعان ليتمي.. وتغفوان بطمأنينة، كأن العالم قد تخلص من القتلة.. أو.. ربما كانا يحلمان بذلك.. أطبع قبلتي على جبهته الناعمة وأمسح دموعي قبل أن تقضّ

أحلامه الصغيرة.. أضعه في حضن خالتي.. التي تخبئ دموعها وتدفن نشيجها في فوطتها... تبدأ تقرأ عليه الآيات وترقيه... أتركها وأتجه لصاحب المنزل:

- أين دفنا؟

يرتبك الرجل قبل أن يجيب وفي طرف عينيه تتعلق الدموع:

- إنهما في مشرحة الطب العدلي منذ البارحة، رفضوا تسليمهما لندفنهما حتى يأتي أحد أقربائهما ويستلمهما

يعود الكون يطبق على أنفاسي وأوشك على التقيؤ.. تمسكني المرأة وتجلسني على الأريكة المجاورة... هما ينامان في مشرحة الطب العدلي منذ البارحة.. وفي هذا البرد القارس؟ يا إلهي... أي كابوس آثم يهرسني بين فكيه!

اقترب الرجل منّي وهو يمسح دموعه:

- أعطينا هواتف أهلهما وسنتصل بهم ليستلموا جثتهما

صاح نحيبي به:

- لا. كيف يمكن لأهل أن يستلموا جثث أبنائهم من ثلاجة الموتى؟ هذا موت وشقاء آخر.. وكيف يمكنني أن أدعهم في ثلاجة الموتى حتى يصل أهلهم من منافيهم. سأستلم جثثهم أنا.

- مستحيل.. لن يمكنك ذلك.. أنت لا تعرفين ماذا يعني الطب العدلي... إنه مدينة موتى وجثث وأشلاء... إنه...

- لا يهمّني... لن أدع سروة وحازم يمكثان في ثلاجة الموتى أكثر.. أكاد أستمع لندائهما.. هما يستغيثان أن.. أدفنهما.. بيدي سأدفنهما.. بهذه اليدين.... سأستر جسدهما الطاهرين بالتراب

يقاطعني السائق وهو يقترب منا:

- سآخذك وأذهب للطب العدلي فقد تسلمت جثة ابن عمي قبل أشهر قليلة.. هل تحملين أوراقك الثبوتية؟

- نعم
- هيا إذن

ونمضي... صوب مشرحة الطب العدلي.. معقل الموت والأشلاء المجهولة الهوية.. معقل الدماء المهدورة عبثاً والأحلام المغدورة...

نمضي.. وجهي ملطّخ بالطين... وروحي موشومة بالبكاء الصامت بعدما أضعت صوتي في زحمة الموتى.. تستوقفنا إحدى السيطرات... يبدأ الضابط بتفتيش السيارة ويطلب مني النزول... أطالعه ببكائي وصوتي المبحوح يقول له:

- لا تجعل الجثتين تنتظران أكثر في ثلاجة الموتى.. نريد أن ندفنهما

ينظر إليّ برهة قبل أن يقول:

- عذراً

يغلق باب السيارة ويعيد الأوراق للسائق.. هذه بلاد لا تحترم سوى الموت... والموتى.. نواصل سيرنا المتعثّر لمشرحة الطب العدلي..

في الطريق.. يفقد الوقت خواصه فتسقط حدوده وننفتح على زمن آخر... زمن لا قيمة فيه لشيء.. زمن مترهّل بلا ملامح.. أو فصول.. تتوقف السيارة ويستدير إليّ السائق كأنه يخيّرني بين النزول أو البقاء:

- هذه هي مشرحة الطب العدلي.

وأنزل... أمام البوابة أقف.. قدماي ترتجفان.. أشعر أنهما تصطكان ببعضهما.. لكن يجب أن أمضي.. لست وحدي.. ثمة نساء ورجال يدخلون إليها ويخرجون...

يتطلّع إليّ السائق بخوف:

- يمكنك البقاء في السيارة

- كلا.. لندخل

وندخل... لائحة كبيرة للصور تغطّي أحد الجدران... يقول السائق إنها للقتلى المغدورين الذين لا هوية لهم... لا أجد صورة سروة بينهم... أصاب بخيبة أمل... يتحدث مع السائق أحد الموظفين بعد أن يدسّ في يديه مبلغاً من المال. ينهض الموظف ليأخذنا نحو الداخل الذي كان يفترض أن يكون مرآباً للسيارات... لكنه تحول إلى مرآب للجثث.. جثث على الأرض.. جثث في الاستعلامات وجثث مرمية فوق بعضها..

تستوقفني إحدى الجثث المقطوعة اليدين... وبجانبها جثة مقلوعة العينين... وأتوقف عن السير.. الرائحة المنبعثة من الأجساد المتفسخة تكاد تحجب الرؤية.. يسألني السائق بخوف:

- سأعيدك إلى السيارة وأتابع البحث

لا أستطيع أن أجيبه.. القيء يملأ فمي.. الرائحة تمزق أحشائي.. رائحة الموت مرعبة كمخالبه... وأتقيأ... أتقيأ حزني وبكائي... أمسك بطني لأوقف القيء.. وأفشل... يخرج السائق منديله وأبعد يده عني لأكمل قيئي... بصعوبة أجرّ أنفاسي.. آخذ المنديل وأنشف به عرقي والقيء الذي سقط على ملابسي وغطّى الأرض.. أنهض وأطلب منه الاستمرار بالبحث... ونمضي بين الجثث في مدينة للموتى تدعى الطب العدلي...

ندخل ممراً تكوّمت على جانبيه الجثث... جثث محروقة بلا ملامح .. كأنهم ماتوا في انفجار ما.. أو تحت تأثير حرق ما..

نواصل سيرنا حتى ندخل إلى غرفة طويلة تكدّست فيها الجثث.. وعند إحدى الجثتين.. يقف الموظف.. تتلكأ خطواتي.. تعاود الرجفة قدماي.. وبخطوات وئيدة أتوقّف عند الجثتين.. فيشرق لي وجه سروة بعينين شاخصتين للسماء ورأس مثقوبة وفم مفتوح... وحازم برأسه المثقوب.. وأهوي فوقهما.. أقبّل رأس سروة

وأتمرّغ بدمائها التي لم تتيبّس بعد... يجرّني السائق والموظف.. وأتملّص منهما وأنا أستجديهما أن يتركاني أقبّلها.. أقبّل رأسها وأحضنه بيدي... أقبّل يديها الصغيرتين... وأضم صدرها المثقوب إلى صدري... وأبكي حضنها الذي لن يضم طفلها.. وأبكي الطفل الذي لن يرى حضنها طوال حياته... وأبكي يتمي الذي تفجّر أنهاراً من دمع ونحيب...

أتطلّع لوجه سروة في حضني.. لا تزال عيناها شاخصتين نحو السماء مليئتين بعلامات الاستفهام.. أحاول إغماضهما.. لكنهما تظلان مفتوحتين... وأعاود ضمّها إلى انتحابي... حتى يجرّني السائق ويسحبني بقوة عنها.. يستمرّ بسحبي حتى يخرجني من الطب العدلي.. ويضعني في السيارة.. بعد أن يأخذ أوراقي الثبوتية.. رأيتهم كيف يضعون جسد سروة وحازم في سيارة حمل تبعتنا...

قلت للسائق بصوت لا يكاد يسمع:

- أرجوك دعني أصعد معهما.. أرجوك.. أتوسل إليك دعني أضمّ سروة إلى قلبي
- أرجوك دعينا نصل بسرعة قبل أن يغلق الطريق.. هل تريدينهما أن يباتا في العراء ليلة أخرى؟
- لكن الجو بارد عليهما في الخارج.. دعني أغطيهما بمعطفي هذا أرجوك
- هما جثتان الآن ولا يشعران بما تشعرين به

وقاطعه صراخي.. لا يمكن أن يتحوّلا في لحظة إلى شيء يشبه الخشب.. ميت وبلا إحساس.. إنهما كائنان كانا ينبضان بالحياة ولا زالا يشاهدان موتنا من دون أن يقويا على قول شيء...

توقفت السيارة وأخذ معطفي وصعد به إلى سيارة الحمل وراح يوسّد الجثتين به.. تسرّب الدفء إلى روحي.. ورحت أدور في غيبوبة البكاء من جديد.. وفي الشوارع التي لم تكن شوارع بل

ثكنة عسكرية... كانت السيطرات تفسح لنا الطريق وهي تشاهد الجثتين... وعند منزلهما توقفنا... كان المنزل يرقب الجثتين بصمت ذاهل.. كان يشاطرني احتراقي المنتحب... وكانت خالتي تضرب وجهها بيديها وتنتحب عند الباب الخارجي للمنزل... ملابس طفلها والملاءات البيضاء الصغيرة معلّقة على حبل الانتظار..

تجمّع الجيران من كل بيت وامتلأ الشارع بالبكاء... صعد البعض ليودّعوا حازم وكانوا يقبّلونه ويلطمون وجوههم بقساوة الموت المباغت.. في الحزن لا فرق بين الرجال والنساء... كان عزائي أنهما يلتفان بمعطفي.. بعض مني معهما إن لم يكن كلّي.

مضت السيارة بنا تتبعنا الجثتان.... كنّا نشق طريقنا بصعوبة. كان الجيران يلوّحون لهما تلويحة الوداع.. والطفل بين ذراعي... يغفو في حضني... ولا تجرؤ (الغزيلة) على إخباره بأن أمه ماتت.. بأن أبويه أرادا أن يستخرجا له شهادة ميلاد فأخرجوا لهما شهادة وفاة مختومة بالرصاص..

تمضي الساعات وقلبي يرفرف فوق هذه المعجزة الناجية من حضن الموت... أهمس له:

- سأكون أمك وأبيك.. لن تكون يتيماً آخر

يعلو بكاء خالتي.. يتبعها السائق... تستوقفنا السيطرة الحدودية... وأنزل إليه ومعي الطفل.. يطلب الضابط أوراقي الثبوتية فيصيح صوتي به:

- عن أية أوراق تبحث والقتلة يتجولون؟ أنا ابنة هذا الوطن.. لا أحمل سلاحاً.. لهذا حملت جثتين.. ولا أملك مخططاً لتفجير أحد، فنحن في مقبرة كبيرة.. ولا توجد حياة لأقتنصها.. كان الأجدى بك أن تحمي هذا الطفل.. أن لا تجعله يتيماً.. أن تقتنص القتلة.. أن تحميهم من الرصاص الغادر.. القتلة يتجوّلون.. وأنت هنا تنصب فخاخك لنا.. وتشهر رشاشك بوجوهنا.

يتطلع الضابط للجثتين خلفنا.. يرفع يده سلاماً لهما.. ويدعنا نمضي معتذراً... وتمضي السيارة بنا.. تجر خلفها جثتين تتوسّدان الرصاص.. وطفلاً.. يغفو في ملكوت أبيض..

عبرنا بوابة بغداد.. بوابة المجهول والخوف.. التي ظلت تشرّع أبوابها بوجه قادمين.. قد لا يعودوا بعدما ابتلعتهم في ظلمة رحمها..

وعائدين.. لم يعودوا يحلمون بالرجوع إليها... بعدما شيّعتهم أحياء... وأمواتاً.

الفهرس

حين أضرموا النار 5
في قلب الحجر 31
عند خط الاستواء 41
فجر أخضر 91
رصاصة في قلب الريح 103
صمت معتّق 127
هكذا.. كنا سنزهر 133
نوبة عطر 157
قريباً.. من الشمس 167
غيبوبة الضوء 185
الفصل الأخير.. للربيع 213
بالأسود والأبيض 223
فصل جديد 245
بوابة المغيب 255